فتاة من حائل

حقوق الطبع محفوظة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م

فتاة من حائل

رواية سعوديّة

الدكتور
محمّد عبدُه يَماني

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء..

إلى العزيزة فاطمة..

الجدة

و

الشقيقة

و

الابنة

وفاءً.. واعتزازًا.. وأماني مخلصة

محمد عبده يماني

١/٦/١٤٠٠ هجرية

المقدّمة

فتاة من حائل. . .

فكرة قديمة ظلت تراودني. . . في ملامح مبهمة، ومعالم غامضة ـ نوعًا ما ـ أخذت تتضح في مخيّلتي شيئًا فشيئًا، إلى أن هيأ الله تعالى لي الفرصة المناسبة، لأسطرها على الورق خلال فترة زادت عن السنتين. وأحسب أن عامل الزمن كان أساسيًا في تأخر إتمامها على النحو الذي جاءت عليه، ذلك أنني قد أوضحت في مقدمة مجموعتي القصصية الأولى التي صدرت تحت عنوان «اليد السفلى» أنني لست من الكتّاب المحترفين، ولا من ممارسي هذا النوع من الكتابة بصورة دائمة ومنتظمة، وإنما هو متنفس أهرب إليه كلما أحكمت ظروف العمل طوقها حولي، أو عمدت إلى تضييق الخناق عليّ. . . فكتابة القصة ـ بالنسبة لي ـ أقرب ما تكون إلى رياضة أستعيد بها نشاطي، وحيويتي. . .

ولقد كانت مهمتي في هذه القصة متممة لما سبق أن بدأته من محاولة لإعادة تشكيل ملامح واقعية عرفتها، أو عايشتها، أو اطلعت عليها بشكل أو بآخر، وهي أيضًا جهد يهدف إلى رسم بعض صور المجتمع السعودي بوجه خاص، في محاولة لسد جانب ـ ولو يسير ـ من الفراغ الذي نلاحظه في هذا اللون من العطاء الفكري في بلادنا. . .

كنت ـ إذًا ـ حريصًا على رسم وتسجيل بعض الصور الغنية النابضة بالحياة لمجتمعنا، لا سيما وأن بعضها آخذ في الاندثار مع هذا التطور السريع الذي أصبح يلتهم الكثير منها، أو يؤدي إلى اضمحلالها؛ لتخلفها صور أخرى عصرية ربما. . . وجميلة ربما. . . وضخمة ربما. . . ولكنها

ـ على أية حال ـ تختلف عن تلك الصور الأصلية التي يحلو للبعض تسميتها بـ: «التقليدية»... وهي صور عاشها أجدادنا وآباؤنا... وعشناها نحن في حواري مدننا، وأزقتها...

كذلك ضمت هذه القصة لمحات من صور حياتنا في جامعة الرياض، أيام بدأت خطواتها الأولى، بذلك الرهط من المدرسين والعلماء... وذلك النفر اليسير من الطلاب... وهي صور «واقعية» بكل ما في الكلمة من معنى، ولعب «الخيال» دورًا فيما يتعلق بمدينة حائل، ذلك أنني ـ إلى حين إتمام القصة ـ لم أكن قد سعدت بزيارتها، والتعرف على معالمها...

* * *

وأعترف، هنا، بأنني عندما شرعت في تسطير هذا العمل ـ فتاة من حائل ـ لم يكن في ذهني قالب فني معين أفرغها فيه... فما هدفت إلى كتابة «رواية»... ولا توقعت أن أكتب «قصة قصيرة»... وإنما كانت هناك صور معينة أريد أن أعرضها بتفاصيلها، وأحداثها... وكان هناك واقع أريد أن أجسده وأترجمه ففعلت، فلقد عاش أشخاص القصة في خيالي فترة غير قصيرة، وخاصة «هيا» و«هشام»، وكنت أحس بارتباط عجيب مع هذه الشخصيات، فإذا بالأحداث والأفكار تتداعى إلى ذهني تباعًا لأسطرها، دون أن أقيد نفسي بقالب فني معين، ولا بمستلزمات أسلوب أدبي بالتحديد، فإذا بالصفحات تتكاثر وتتضاعف كلما توغلت في عرض الأحداث، وإذا بي، في النهاية، أمام «قصة طويلة» ـ إذا أردت ـ أو «رواية» ـ إذا شئت ـ حاولت أن أقول فيها ما أردت أن أقوله، والعمل الفني ـ كما سبق أن اتفقنا ـ كلمة يريد صاحبها أن يقولها... ولست أدري إلى أي مدى وفقت فيما قصدت إليه...

والآن أصبح هذا العمل الفني بين يديك ـ أيها القارئ الكريم ـ

تحكم عليه حكمك، وترى فيه رأيك، وتصنفه في القالب الذي تعتقد أنه أكثر ملاءمة له. . .

وحسبي، من جهتي، أنني قد قلت ما أردت أن أقوله، وبات ـ بفضل الله ـ بين دفتي هذا الكتاب، فللقارئ الكريم اعتذاري إن كان التوفيق قد جانبني. . . ولله تعالى الحمد والشكر على ما أمدني من عونه. . . وهو المستعان في جميع الأحوال. . .

محمد عبده يماني

فتاة من حائل

١

هبط هشام من سيارة الأجرة أمام مبنى الجامعة، وتوجه مسرعًا إلى مكتب المسجل وقد بدت عليه معالم اللهفة، فقد أدى امتحان البكالوريوس في الهندسة، وجاء اليوم لمعرفة النتيجة.

وما إن دخل مكتب المسجل حتى وجد بعض زملائه ينتظرون، وقد بدت على وجوههم ـ مثله ـ معالم اللهفة والقلق، وفي الوقت الذي سمح فيه لطلاب البكالوريوس بمقابلة المسجل، كانت مجموعات من طلبة السنوات الأخرى تنتظر في القاعة الرئيسية.

وراح مهندسو المستقبل يتبادلون الأحاديث والتعليقات حول مواد الامتحان، وأبدى أكثرهم تخوفه من نتائج مادة القوى؛ لأن الأسئلة جاءت على غير ما كان متوقعًا، بينما كان هشام يقف مطرقًا؛ مما استرعى انتباه زميله عبد العزيز الذي اقترب منه متسائلًا عما إذا كان سبب ذلك الوجوم هو تفكيره في موضوع التقديرات، وتأثيرها على إمكان عمله في الكلية معيدًا، فرفع هشام رأسه، وقال بابتسامة مغتصبة:

ـ لا أكتمك أن هذا الموضوع يشغل جانبًا من تفكيري، ولكنني لا أعتقد أن بالإمكان حصولي على تقدير عال يؤهلني للعمل معيدًا، خصوصًا وأن هناك صالح وعلاء وأحمد وناجي وعبد السلام؛ الذين لن تقل تقديراتهم عن الامتياز، بينما لا توجد سوى ثلاث وظائف للمعيدين. . .

وتنهد هشام وهو يختم حديثه قائلًا، وكأنه يحدث نفسه:

ـ إنني سوف أعد نفسي للعمل في إحدى الوزارات، وأتمنى أن أكون بجوار الوالد والوالدة في مكة.

وتدخل زميلهما عمر، المعروف بخفة روحه، وحبه للمزاح، والذي كان يصغي إلى الحديث، فقال ضاحكًا:

ـ أنت على حق يا أخ هشام، وأعتقد أن عليهم أن يبحثوا لك عن عمل ليس في مكة، يعمرها الله، وإنما في حارتكم «جياد» إذا أمكن، أو ربما بجوار المنزل في جبل «السبع بنات»، ومن يدري فلعلهم يجدون لك عملًا تحت روشان الوالد...

وأردف عمر قائلًا بجدية:

ـ يا أخي حرام عليك... يا ناس حرام عليكم... كلها بلدنا... وإذا كان تفكير كل منا هو أن يبقى بجوار أهله فمن، بالله عليكم، سوف يعمر البلاد، وينهض بها؟...

وابتسم هشام على الرغم منه، وقال مجيبًا زميله:

ـ إنك تبالغ كثيرًا يا عمر، وأرى أن تعمير البلاد لا يتعارض مع رغباتنا... إن مكة في حاجة إلى كثير من المهندسين، وإذا لم أذهب أنا فقد يحضرون مهندسًا أجنبيًا، وفي هذه الحالة فأنا أولى بالبقاء في مكة...

وردَّ عمر بالجدية نفسها:

ـ هذا صحيح بوجه عام... ولكن ألا توافقني على أننا إذا تكدسنا جميعًا في المدن بجوار أهلنا وذوينا؛ أضعنا فرصة كبيرة للتعرف على مناطق بلادنا المترامية الأطرف، فضلًا عن أن عملنا خارج المدن هو أكثر فعالية من عمل الأجانب فيها؟...

وختم هشام مناقشته مع عمر قائلًا:

ـ أنت فيلسوف دائمًا . . .

وفتح عمر فمه وهو يهم بالرد، لولا أن قطع الحديث زميلهم تركي الذي اقترب منهم بجسمه المكتنز بالشحم، وقال:

ـ يا جماعة لا تذهبوا ببركة النتيجة. . . نقول يا الله السلامة بالنجاح وأنتم تفكرون في عالم الغيب. وحِّدوا الله، وصلُّوا على النبي. . . عسانا ننجح عسانا. . . ومن جهتي فأنا لا أطمع في أكثر من مقبول. . . أتدرون لماذا؟ . . . لأن الوالدة تدعو لي عندما أخرج كل صباح قائلة: ربنا يجعلك من المقبولين. . . ولهذا فلا أتوقع أن أحصل على أكثر من مقبول. . .

وراح زملاؤه يضحكون على الرغم مما كانوا فيه من قلق، ثم قطع عليهم ضحكهم صوت المسجل، وهو يتجه نحو القاعة حاملًا أوراق النتيجة، فازدحم الطلبة حوله، وراحوا يتابعون حركته بلهفة شديدة، وهو يثبت الأوراق على لوحة الإعلانات، وجرى هشام بعينيه بسرعة على الأوراق باحثًا عن اسمه، ثم لم يلبث أن شعر بخيبة أمل. . .

لقد نجح بتقدير جيد، وكان يتوقع النجاح بتقدير جيد جدًا، فوقف برهة يحدِّق في اللوحة، ثم استدار على عقبيه منصرفًا، بينما كان زملاؤه يتزاحمون أمام أوراق النتيجة، ثم لا يلبثون أن يغادروا القاعة وقد عبرت وجوههم عن النتائج التي حصل عليها كل منهم. .

٢

دخل هشام غرفته في السكن الجامعي متثاقلًا، وارتمى بجسده على السرير، وراح يحدق في السقف، وهو مستغرق في التفكير. . ولم يلبث أن قطع عليه تفكيره صوت تركي، وهو يثير ضجة كبيرة يعبر بها عن فرحته بالنجاح، على الرغم من أنه لم يحصل على غير درجة مقبول. . ولم يفاجأ هشام بفرحة تركي بدرجته، فقد سبق له أن أعلن توقعه لها،

ولكن الدهشة بدت على وجه تركي وهو يرى معالم الاستياء، وخيبة الأمل مرتسمة بوضوح على وجه هشام؛ ولذا بادره قائلًا:

ـ يا أخي احمد الله.. يا أخي بالشكر تدوم النعم.. ما هذا يا هشام؟.. لقد كنت تتمنى الالتحاق بكلية الهندسة بأي ثمن؛ يوم لم توفق في الحصول على درجات عالية في امتحان القبول، وها قد منَّ الله عليك اليوم بالنجاح بدرجة جيد، فاحمد الله.. احمد الله يا أخي...

ـ أنا أحمد الله وأشكره.. ولكنني كنت، في الحقيقة، أتمنى أن أحصل على «جيد جدًا»...

ـ ها.. تتمنى.. إذًا فأنت تعترف بأنك لم تفاجأ بالنتيجة..

ـ أرجوك يا تركي.. لا تزدني على همي همًا.. اجلس وسأعد الشاهي لنا، فإني في أمس الحاجة إلى كوب منه الآن..

وجلس الاثنان في الشرفة المطلة على شارع الجامعة، وهشام يعبث بسبحة في يده، ويعود إلى أفكاره حين دخل عليه أحد زملائه، وهو يقول بصوت مرتفع:

ـ هشام.. هشام.. تلفون لك يا هشام..

ـ تلفون؟.. ممن؟..

ـ من مكة.. من الوالد..

وهبَّ هشام مسرعًا نحو الهاتف، ورفع السماعة ليصل إليه صوت والده:

ـ مبروك يا هشام.. مبروك يا ولدي.. لقد سمعنا النتائج من الإذاعة.. الجميع يهنئونك بالنجاح، ويقولون لك: مبروك..

ـ الله يبارك فيك يا والدي.. هذا من فضل الله، ثم ببركة دعائكم..

ـ والله الحمد لله.. ألف حمد لله.. هذه والدتك تريد التحدث إليك..

ـ مرحبًا يا أمي.. مرحبًا..

ـ مبروك يا ولدي.. مبروك.. إن فرحتنا لا تعدلها فرحة..

ورد هشام على والدته بتأثر، ثم راح يجيب بالشكر على أصوات باقي أفراد العائلة؛ الذين كانوا يتعاقبون على سماعة الهاتف ليبلغوه تهانيهم، وتمنياتهم.

وعندما وضع هشام السماعة، وتوجه عائدًا إلى غرفته كان ينتابه شعور بالخجل الشديد من نفسه، إذ كيف يحول الفرحة إلى حزن، وكيف يمنع نفسه من الشعور بالسعادة والارتياح، وكيف لا يخرج ويملأ الدنيا سعادة، وبهجة؟..

وراح يؤنِّب نفسه.. كان المفروض أن يفرح، ويعلن فرحته للجميع.. لقد أخطأ في حق نفسه، حين عدّ عدم حصوله على تقدير «جيد جدًا»، سببًا في الحزن والكآبة، وكأن هذا التقدير هو مفتاح الحياة..

وردد هشام بينه وبين نفسه كلمات أبيه، وأمه، وأخواته.. استعاد عباراتهم وهم يعبرون له عن فرحتهم واغتباطهم، ويأملون له مستقبلًا زاهرًا عظيمًا، وشعر بأن عليه أن يطرح همومه المصطنعة جانبًا، وأن يشارك زملاءه الناجحين فرحتهم، فدبَّ فيه نشاط مفاجئ جعله يسرع لتوه فيستحم، ويذهب إلى حيث كان زملاؤه يحتفلون بالنجاح؛ ليحتفل معهم، ويشارك الناجحين منهم فرحتهم، ويواسي من لم يسعده الحظ بالنجاح.

ووسط الضجيج الذي كان يسود المكان، دخل فجأة صلاح وهو زميل من زملائهم الأوائل في السنة النهائية، وكأنما أحدث دخوله شيئًا من عدم الارتياح عند بعضهم، ممن يعرفونه ويعرفون شيئًا عن طباعه التي تتسم بالكبرياء، والعجرفة، والتباهي الدائم بأنه يحصل باستمرار على الأولوية، والدرجات العالية.

وقال صلاح وهو يبتسم بخبث:

ـ ماذا يا هشام؟.. كنت تتطلع إلى المعيدية.. يبدو أن الحظ لم يحالفك..

وشعر هشام بالدماء تغلي في عروقه، وساد المكان وجوم ما لبث تركي أن بدده قائلًا بلهجته المرحة:

ـ علينا أن ندرك تمامًا أن الدرجات ليست هي مفتاح الحياة في الشخصيات؛ التي تتحكم فيها مقاييس مادية بحتة.. لقد ثبت للأسف الشديد أن مصيرها يكون دائمًا هو الفشل في النهاية.. المستقبل، يا صلاح، أمامنا جميعًا.. والتوفيق بيد الله.. وقد حصلت أنت فعلًا على درجات عالية.. وربما سوف تحصل على المعيدية، ولكننا جميعًا سنعمل ضمن إطار هدف عظيم هو خدمة بلادنا.. ولكي نستطيع تحقيق هذا الهدف فلا شك في أننا يجب أن نكون ممتلئين وطنية، وحبًا لهذا الوطن العزيز. لا بد وأن تكون لدينا القدرة على التعامل مع الآخرين، واحترامهم لكي نستطيع أن نعمل أسرة واحدة ذات هدف محدد.. ولا شك في أن تضافر الجهود يؤدي دائمًا إلى نتائج أفضل..

والتفت صلاح نحو تركي، وقال له بلهجته المتعالية:

ـ إن خير ما استفدته أنت من وجودك في الجامعة هو هذه الفلسفة.. لماذا لم تلتحق بكلية الآداب بدلًا من كلية الهندسة لتستفيد من هذا المجال أكثر؟..

وبجدية لم تكن معروفة عن تركي أجابه بهدوء:

ـ لا عليك يا صلاح.. إننا جميعًا نهنئك على التقدير الذي حصلت عليه، ولكن ثق تمامًا بأن هناك الكثير من الجولات التي تحتاج فيها إلى أشياء أهم بكثير من التقدير.. أشياء أهم كثيرًا من «جيد جدًا» و«امتياز».. أنت تحتاج إلى الإنسانية في التعامل مع الآخرين.. تحتاج

إلى الشعور بأنك فرد من المجموعة، أنت، اسمح لي أن أقول لك، تحتاج إلى التخلص من هذا الغرور الذي نلاحظه فيك.. وإلا فإنني أؤكد لك بأنه سيكون أول العوامل التي تقف ضدك.. وربما تحطم مستقبلك.

وساد الصمت في المكان كله، وتكهرب الجو، وتركزت أنظار الطلبة على صلاح الذي تضرج وجهه بحمرة الخجل، وبدا عليه الذهول من كلمات «تركي» الصريحة، وما لبث أن تضاحك وهو يقول:

ـ ما هذا؟.. إنكم دائمًا تخلطون المزاح بالجد.. أنا لم أقصد أبدًا أن أسيء إلى هشام.. فقط كنت أداعبه.. وإذا بكم تقفون ضدي في جبهة دفاع واحدة.

وبالجدية نفسها، غير المعروفة عنه، أجاب تركي:

ـ لا عليك. جد أو مزاح.. الأمر واحد.. والحقيقة واحدة.. فنحن الآن نودع بعضنا ليأخذ كل منا طريقه.. ولا ندري متى وكيف نلتقي.. ولذا فعلينا أن نتأكد تمامًا من أن ما درسناه، وما تعلمناه ليس سوى جزء بسيط من أساسيات مهمة نحتاج إليها عند التعامل، وعند الخروج إلى المجتمع.. فالناس يحتاجون إلى إنسان ليتعامل معهم.. والوطن يحتاج إلى مواطن حقيقي يعرف أبعاد وطنه، ووطنيته.. وما يريد، وما يجب، أن يحققه لهذا الوطن.

وكان صوت تركي الجاد يصل إلى أسماع زملائه الصامتين، وإلى صلاح الذي كان يبدو عليه الذهول، فهم لم يعتادوا من تركي بالذات أن يتحدث بهذه الطريقة، بل عهدوه دومًا مازحًا هازلًا.. ولذا فقد هزتهم كلماته، فتركتهم جامدين، صامتين.

ويبدو أن تركي قد لاحظ ذلك، فابتسم لزملائه، وأدار وجهه فيهم متأملًا، ثم قال:

ـ لا علينا من هذا. . آسف إذا كنت قد اضطررت لهذا الحديث. . هيا بنا نصعد إلى الصالة فقد تجمَّع الزملاء هناك، وأظنهم يعدون حفل شاهي. .

وعادت إلى المكان بهجته وجوه المرح، فتصاعدت أصوات التأييد للحفل، واتجهوا نحو الدرج المؤدي إلى الصالة، وهم يتحدثون عن المعدلات، والتقديرات، والآمال المستقبلية التي تعمر فؤاد كل منهم. .

٣

في أرجاء الصالة الواسعة، تناثر الشباب هنا وهناك، يحتسون الشاهي، ويتحدثون، وقد جمعت كل عدد منهم حلقة، أقبلت على تبادل الآراء والأحاديث حول الموضوع الذي يشغلهم جميعًا، وهو: ماذا بعد التخرج. . . وما تأثير النتائج التي حققها كل منهم على ما كان قد تخيله، أو تمناه، لنفسه من مستقبل.

وفجأة صمتت القاعة كلها، واتجهت الأنظار إلى المدخل، حيث وقف الدكتور محمد والدكتور إبراهيم والأستاذ عبد الله، وهم من هيئة التدريس في الجامعة.

ونهض الشباب احترامًا لهم، ثم تدافعوا نحوهم يصافحونهم بحرارة، ويتبادلون معهم عبارات التهاني، والمجاملات.

وقال الدكتور محمد، أحد قدماء الأساتذة في الجامعة، وهو يتجه مع زميليه إلى ناحية من المكان:

ـ لقد أردنا، زميلاي وأنا، أن نبلغكم تهانينا الشخصية. . . وأن نشارككم حفلكم الصغير هذا. . . إذا أردتم. . .

وتصاعدت أصوات الترحيب والتأييد من كل جانب، وتسابق الطلبة لتقديم الكراسي، وإعداد إحدى الطاولات للزائرين الثلاثة. . . وتحلق

الشباب حول الأساتذة في ضجة مرحة تنسجم مع الجو الجامعي الأليف، حيث للصداقة أعلى مكان، سواء بين الأساتذة والطلبة، أو الطلبة فيما بينهم.

وهز الدكتور محمد رأسه في رضى، وهو يخاطب الشباب الذين كانوا حريصين على أن يسمعوا كل كلمة تصدر عن الأستاذ الذي طالما شملهم بعطفه، ورعايته، وقدَّم لهم توجيهاته الأبوية النافعة... وقال في لهجة بدا فيها الكثير من الاعتزاز:

ـ ما شاء الله... ها أنتم، الآن، تجنون ثمار ما بذلتم من جهود طوال سنوات... وها قد أصبحتم، ولله الحمد، مهندسين، تفخر بهم بلادهم، وعليكم الآن أن تكونوا في مستوى هذه المسؤولية، وأن تثبتوا أنكم جديرون بما حزتم من شهادات، وما اتخذتم من استعدادات.

وتمهل الدكتور محمد، واحتسى رشفة من الشاهي قبل أن يستطرد، بينما الطلبة يتجهون بأبصارهم، وجوارحهم إليه:

ـ لقد زرت معظم كليات الهندسة في المنطقة... ورأيت كثيرًا من الكليات المماثلة في بلاد عديدة من العالم، وأستطيع أن أقول لكم، بفخر وتواضع في آن واحد: إن لنا واحدة من أفضل كليات الهندسة في المنطقة، وإنكم تنعمون بجو جامعي مثالي لا نراه بكثرة في بلدان أخرى.

وسرت همهمة الفخر بين الطلبة، ثم ما لبثت أن توقفت عندما استأنف الدكتور محمد كلامه:

ـ أجل... هذه المباني المنسقة الفخمة... وهذه المعامل والمختبرات... وهذه المعدات والتجهيزات. كلها أشياء تفخر بامتلاكها أية جامعة في العالم لأنها تمثل، بالفعل، أرقى ما في هذا المجال، وهي متاحة لكم ولزملائكم، وكانت في خدمتكم عددًا من السنوات، انصرفتم خلالها لتلقي العلم، والاستعداد لمعركة الحياة.

إنني حين أتذكر كيف كانت بدايتنا، أعني كجامعيين، أعرف تمامًا قيمة المستوى الرفيع الذي بلغه التعليم العالي في بلادنا.

أنا لا أريد أن ألقي عليكم محاضرة إعلامية... ولكنني، بالفعل، فخور بما حققناه من تقدم في هذا المجال... جامعات عديدة في طول البلاد وعرضها... تجهيزات متكاملة... هيئات ممتازة من الأساتذة والمحاضرين... ظروف مثالية للدراسة والتحصيل، وربما لا ينعم بمثلها سواكم يا شباب هذه المملكة.

وعلَّق الأستاذ عبد الله على كلام الدكتور محمد قائلًا:

ـ صدقت والله يا دكتور... ليتك تحدّثهم كيف كانت البداية...

ـ البداية؟...

قال الدكتور محمد متسائلًا، وقد ظللت جبينه سحابة تدل على أنه يعود بفكره إلى ذكريات قديمة، وتعالت أصوات الشباب بحماسة تطالب الدكتور محمد بالحديث:

ـ أجل... أجل... يا دكتور... حدثنا...

وابتسم الدكتور محمد في سعادة، وهو يرى وجوه أبنائه الطلبة وقد ارتسم الاهتمام والحماسة عليها، وهز رأسه عددًا من المرات وكأنه يريد أن يقول إنه قد عزم على الحديث، وعلى فتح صفحات من الماضي.

وقال الدكتور محمد:

ـ لقد كانت البداية متواضعة، ومتواضعة جدًا...

كانت أولى الكليات هي كلية الآداب التي كانت تحتل مبنى مدرسة ابتدائية في حي الملز بالرياض، وعلى مقربة منها يسكن الطلاب الذين كانوا قلائل جدًا.

إنني أتذكر، أن أول رئيس للجامعة كان المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام، الذي أعطى الجامعة الكثير، والكثير جدًا، من وقته

وجهده. . . وكان هناك أيضًا المرحوم الأستاذ مصطفى السقا، والدكتور الحوفي، وغيرهم ممن غابت عني أسماؤهم الآن، والذين كانوا من كبار الأساتذة الجامعيين، والحق يقال.

وهنا قال الأستاذ عبد الله ضاحكًا:

ـ لقد ذكرتني، يا دكتور، بشيء. . . ففي ذلك الوقت كان الطلبة ينامون، كما تفضلت وذكرت، في غرفتين من مبنى المدرسة. . . التي أصبحت نواة للجامعة. . . بل نواة للنهضة الجامعية العظيمة التي نعيشها الآن. . . فإذا حدث وتأخر الطلبة في النوم، كان الأساتذة يأتون إليهم ويوقظونهم، فيسارع الطلبة إلى الدروس، وهم بملابس النوم.

وضحك الجميع لهذه الذكرى الطريفة، وكأنما تذكر الدكتور إبراهيم طرفة أخرى، فقال:

ـ وهذا يذكرني، يا أستاذ عبد الله، بطرفة أخرى. . . فحين افتتح قسم قواعد اللغة في الكلية، لم يكن هناك سوى طالب واحد ليس غير. . . اسمه، على ما أذكر التبر. . . نعم. . . التبر. . . وكان المرحوم الأستاذ مصطفى السقا هو الذي يتولى تدريسه، وكان التبر هذا أصلع الرأس، والمرحوم الأستاذ السقا كما تذكر يا أستاذ عبد الله، وأنت يا دكتور محمد، خفيف شعر الرأس. . فكان الاثنان يجلسان في الحديقة، وصلعتاهما تلمعان تحت ضوء الشمس، وكأن المرحوم الأستاذ السقا يلقي درسًا خصوصيًا على طالبه الأوحد. . . التبر. . .

واستأنف الدكتور محمد حديثه قائلًا:

ـ يا لها من ذكريات. . . لشد ما اختلف حال تلك البداية، عما نحن عليه الآن من تقدم فريد في مجال التعليم العالي. . . لقد كانت الكلية الثانية التي افتتحت في جامعة الرياض هي كلية العلوم، ثم كلية الصيدلية. . . وكان عدد الطلبة قليلًا بطبيعة الحال. . . إنني أتذكر أن قسم البيولوجيا،

مثلًا، لم يكن يضم سوى ستة طلاب. . . كانوا يفتقرون إلى كل شيء من المعدات والتجهيزات. . . لم تكن هناك معامل. . . ولا أدوات. . . كان طلبة كلية العلوم يستخدمون معامل كلية الملك عبد العزيز الحربية. . . وكانوا يدرسون «علم البلورات» على علب الكبريت، وعلب الطباشير. . . وأول ميكروسكوب دخل الجامعة كان مستعارًا من «الثروة المعدنية».

وعاد الدكتور إبراهيم ليضيف إلى ما قاله الدكتور محمد شيئًا:

ـ عفوًا يا دكتور على قطع حديثك. . . ولكنني تذكرت الآن واقعة طريفة حدثت معي. . . فقد ركبت مرة إحدى سيارات التاكسي، وطلبت من السائق أن يأخذني إلى الجامعة، فنظر إليَّ السائق مستغربًا وقال: «إيش اسمه الجامع اللي تبغاه. . . الرياض فيها جوامع كثيرة. . .» ووجدت عناء حتى أفهمته بأنني أقصد «الجامعة» لا «الجامع». . .

وتساءل أحد الطلبة بدهشة:

ـ إذًا فالجامعة لم تكن معروفة إذ ذاك؟.

فقال الدكتور محمد بسرعة:

ـ بالمرة. . . إلا لدى القلائل. . . كانت شيئًا جديدًا تمامًا. . . ولكنها، والحق يقال، قد تطورت تطورًا مذهلًا. . . لقد تولى أمور الجامعة بعد المرحوم الدكتور عزام، معالي المرحوم ناصر المنقور يرحمهما الله. . . كان المنقور يعمل في وزارة المعارف، وكانت الجامعة تابعة، إذ ذاك، لوزارة المعارف، الأمر الذي أتاح له، يرحمه الله، فرصًا كبيرة لخدمة الجامعة، ودفعها إلى الأمام خطوات كبيرة وواسعة. . . وبعده، كما تعلمون، تولى معالي الدكتور عبد العزيز الخويطر وكالة الجامعة، وبقي في هذا المنصب فترة طويلة، تحقق خلالها التكامل في كيان الجامعة حتى باتت تضم كليات للآداب، والعلوم، والصيدلة، والزراعة، والتجارة، والهندسة. . . وإلى جانب ذلك افتتحت جامعة

الملك عبد العزيز في جدة، التي كانت بادئ الأمر «أهلية» شارك في إنشائها عدد من كبار رجال الأعمال، ثم تسلمتها الدولة، وطورتها على النحو المعروف... كما أنشئت كلية للبترول والمعادن في الظهران ما لبثت أن تحولت إلى جامعة، وقبلها أنشئت الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، كما أن هناك استعدادات أخرى تتخذ لافتتاح أكثر من جامعة في أكثر من منطقة من مناطق البلاد.

وصمت الدكتور محمد بعض الوقت، وبدا على الشباب وكأنهم مبهورون بقصة نشوء التعليم الجامعي في البلاد، وما ساره من خطوات، من بداية متواضعة جدًا، إلى انطلاقة جبارة وضعت بلادهم العزيزة في الصف الأول بين دول المنطقة في مجال التعليم العالي.

وعلَّق أحد الشباب قائلًا:

ـ يا لها من قصة... بل يا لها من ملحمة...

وقال الدكتور إبراهيم باسمًا:

ـ صدقت يا بني... إنها ملحمة حقًا... امتزجت فيها الإرادة الماضية مع الطموح غير المحدود... وتحققت فيها المنجزات على الرغم من الصعوبات...

وكأنما تذكر الأستاذ عبد الله شيئًا، فقال وكأنه يؤيد كلام زميله:

ـ أية منجزات... وأية صعوبات... إن أيًا منا، نحن والذين رافقنا نشوء الجامعة، أساتذة أو طلبة، إذ ذاك، لا ينسى التحديات العديدة التي كانت تواجهنا في كل خطوة من خطواتنا.

وتمهل الأستاذ عبد الله في حديثه، وكأنه يريد أن يؤكد كل كلمة من كلماته...

ـ إنني أتذكر أنه في أوائل الستينيات من القرن الميلادي الحالي، حدثت جفوة ذات أسباب سياسية مرتبطة بأحداث ذلك الوقت... بين

المملكة وبين أحد الأقطار الشقيقة... يومها ترك الجامعة، فجأة، عدد كبير من أساتذتها من مواطني ذلك البلد الشقيق... ويومها بدت الروح السعودية الأصيلة التي طالما واجهت الصعوبات، والتحديات... لقد هب، إذ ذاك، معظم الشباب السعوديين الذين تلقوا تعليمًا عاليًا في الخارج لملء الفراغ الذي تركه الأساتذة الذين تركوا الجامعة، وعادوا إلى بلادهم... هب أولئك الشباب السعوديون وقد ألهبت الحماسة إرادتهم... والتحقوا بالجامعة للتدريس فيها... فالجامعة جامعتنا... والطلبة أبناؤنا... والطموح طموحنا... وما كنا لنرضى بأن تخفق الجامعة لأي سبب من الأسباب.

إنني أتذكر أولئك الشباب ممن تولّوا فيما بعد مسؤوليات وزارية، وغير وزارية، وكانوا شديدي الحماسة لوطنهم ولجامعته... منهم، على سبيل المثال، الأستاذ أحمد زكي يماني، الأستاذ هشام ناظر، الدكتور علوي درويش كيال، الأستاذ حسن مشاري، الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع، الأستاذ عمر فقيه... وغيرهم كثيرون ممن لا تحضرني أسماؤهم الآن... لقد تولى أولئك الشباب التدريس في الجامعة وفق تخصص كل منهم، وبذلك اجتازت الجامعة تلك الأزمة، وخرجت منها مرفوعة الرأس، بفضل ما هيأ لها الله من قدرة على مواجهة التحديات، والتغلب عليها.

وسرت بين الشباب همهمة فيها من الفخر والاعتزاز شيء كثير، وقال واحد منهم:

- نحن فخورون بأننا شعب كتب له أن يواجه التحديات طول حياته... وحدة المملكة تحدٍّ عظيم، قاده مؤسس هذه المملكة المغفور له جلالة الملك عبد العزيز، طيَّب الله ثراه، وانتصر فيه... مواكبة التطور الحضاري العصري تحد نحقق فيه كل يوم، بفضل الله، نصرًا جديدًا، البحث عن المياه... التصنيع... الرعاية الصحية... الرعاية

الاجتماعية... شق الطرق... إنشاء المرافق... كل هذه تحديات واجهنا فيها ما لم يواجهه سوانا، وانتصرنا بحمد الله...

وبدا على الدكتور محمد الرضى وهو يسمع الشاب يتحدث بتلك الحماسة، وقال بعطف:

ـ هذا صحيح يا بني... وهذا ما أريد من كل منكم أن يضعه نصب عينيه دومًا... فنجاح أي منكم هو نجاح للبلد كله... ونجاح البلد إنما هو محصلة النجاحات الفردية التي يحققها كل مواطن في مجاله... فأنتم وقد منَّ الله عليكم بالنجاح... وأصبحتم، الآن، مهندسين، عليكم أن تقدِّروا مدى مسؤولياتكم في هذا المجال، وأن تدركوا ما ينتظره وطنكم منكم، لكي تكونوا جديرين بشرف مواطنيتكم، وبفخر الانتساب إلى هذا البلد الذي هو محط أنظار العالم كله... فأرجو لكم التوفيق والنجاح، وآمل أن نسمع عنكم جميعًا أطيب الأخبار...

٤

عندما أوى هشام وزميله عبد العزيز إلى غرفتهما المشتركة، لاحظ عبد العزيز أن هشام ساهم واجم، وكأنه مشغول البال بأمر مهم.

وراح عبد العزيز يتأمل هشام، وقد ألقى بنفسه على الفراش، وعقد ذراعيه على صدره، وبدا عليه التفكير.

والواقع أن هشام كان يشعر بانزعاج داخلي عميق، بسبب كلام زميله صلاح، وكان يحدِّث نفسه بأنه كان يمكن أن يكون في موقف أفضل أمام صلاح وسواه لو أنه حصل على تقدير «جيد جدًا»، وأنه مهما كان كلام صلاح قاسيًا وصريحًا فإنه لا يخلو من الحقيقة، وأن أمله في العمل معيدًا في الكلية قد بات بعيدًا.

وانتبه هشام من أفكاره على عبد العزيز وهو يتأمله صامتًا، فرفع رأسه إليه متسائلًا، فقابله هذا بابتسامة عطوف، وقال له برقة:

ـ هيا يا هشام... أنا أعرف فيما تفكر... مؤكد أنك تفكر في موضوع التقدير.

ـ أبدًا... أبدًا...

رد هشام وهو يحاول أن يداري ارتباكه... ولكن عبد العزيز عاد يقول بإصرار:

ـ لا... بل إن الأمر واضح جدًا على محياك يا أخي... أليس من عجائب الأمور أن تأتي «الحكمة» من زميل مثل «تركي» اعتاد المزاح، والمداعبة، والبعد عن الجد؟... أجل يا هشام... لقد كان ما قاله تركي صحيحًا مئة بالمئة، فإن ولوجنا أبواب المستقبل يحتاج إلى مقومات عظيمة... يحتاج أن نطرح العقد النفسية جانبًا، وأن نتخلص من العوائق الذهنية التي كثيرًا ما تصيب عقل الإنسان بما يشبه الشلل، فلا يكاد يعرف كيف يتصرف.

واقترب عبد العزيز من هشام أكثر، وسحب كرسيًا قرب سريره، وجلس عليه، وهو يستأنف كلامه:

ـ إذا كانت مشكلة صاحبنا صلاح هي العجرفة والكبرياء، وهي علة خطيرة ولا شك، فإن مشكلتك لا تقل عنها خطورة، وإن اختلفت نوعيتها... مشكلتك هي التردد، وعدم قدرتك على اتخاذ القرار الحازم، والرأي الحاسم في الظرف المناسب... صحيح أنه قد يكون من المستحسن، بالنسبة للإنسان، أن يسأل الآخرين وأن يستشيرهم، ولكن ذلك يجب أن ينطلق من قناعة شخصية واضحة، تكون هي القاعدة الأساسية لسلوكه، وتصرفاته... اعذرني يا هشام، أنا لا أريد أن أجعل من نفسي تجاهك واعظًا، فأنا مثلك بحاجة إلى من

ينصحني، ولكن النصيحة شيء... والعمل بكل ما يقال لنا شيء آخر.

وبدا على هشام وكأنه قد تأثر بكلمات زميله؛ التي كانت تندفع من فمه سريعة متلاحقة، وقال له كتلميذ يسأل أستاذه:

ـ ماذا ترى أن علي أن أفعل إذًا؟.

فأجاب عبد العزيز بسرعة:

ـ الأمر واضح... يجب ألا تكون سعفة في مهب الريح... كلما مر أمر تحدث فيه الناس اندفعت إليه... يجب أن تكون لك شخصيتك المميزة... يجب أن تكون لك أفكارك، وآمالك...

ورد هشام:

ـ إن لي أفكاري وآمالي... بل قل... كانت لي أفكاري وآمالي، فجاءت النتائج مخيبة لتلك الآمال...

ـ آه... هذه نقطة مهمة أيضًا... لقد بذلت أنت جهدك... وعملت ما بوسعك، فإذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون... المسألة أبسط من أن تسمح معها للكآبة أن تسيطر عليك بهذه الصورة المؤسفة... نحن لا نزال في بداية الطريق، ومعارك الحياة كثيرة، ومشكلاتها كثيرة أيضًا... وهي كلها تحتاج إلى صمود، وإلى عمل في صمت... وإلى صبر... وصدق... وإيمان... هيا... هيا يا أخي ابتسم... وعد إلى مرحك... وأهم من ذلك أريدك أن تعدني بأن يكون لك رأيك الشخصي غير المتأثر بالآخرين.

ففكر هشام ثم تساءل بتردد:

ـ يعني... لا تريدني أن أستشير أحدًا؟... يا أخي المرء بأصدقائه.

ـ أنا لم أقل لا تستشر أحدًا... بالعكس... اقرن رأيك بآراء الآخرين واستشر... فالحق، كما يقول الشاعر، لا يخفى على

اثنين... بل إن الله ﷻ قد أمر رسول الله ﷺ بذلك... ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]... أنا لم أقل لا تشاور الناس... بالعكس... شاورهم... وتبادل الرأي معهم... ولكن لا بد وأن يكون لك رأيك المتميز... ويجب ألا تتأثر بآراء أي كان من الآخرين.

ـ الحق معك... الحق معك.

رد هشام على كلام زميله، ثم استطرد:

ـ أنا أشعر بنقطة الضعف هذه، وأحاول دائمًا أن أتخلص منها... هات يمينك لأعاهدك... وسأبذل جهدي لأفعل كما تقول.

وقبل أن يرد هشام، طرق باب الغرفة، ودخل تركي بجثته الضخمة، وضجيجه يسبقه كالعادة، وصاح بهما بلهجة المنادي، والذي يعلن نبأ مهمًا على عدد كبير من الناس:

ـ يا إخواني... يا أصدقائي... الحاضر منكم يعلم الغائب... والغائب منكم يعلم الحاضر... كل من توجد لديه كتب مستعارة من مكتبة الكلية يجب أن ترد صباح غد... وإلا فلن يعطوكم إخلاء طرف.

ووقف تركي يلهث بعد المجهود الذي بذله في إعلانه هذا، فتبادل هشام وعبد العزيز النظر، ثم قال هشام:

ـ ولم العجلة؟.

فوضع تركي يديه على خصريه، وقال له بلهجة مرحة:

ـ لم العجلة؟... لا أظنك تنوي استعارة هذه الكتب إلى الأبد...

ـ لا قدَّر الله... أنا لا أقصد هذا... ولكنني كنت أظن أن هناك أشياء أهم من ذلك.

ـ أهم من ذلك؟... مثل ماذا يا صديقي؟

ـ هناك إجراءات عديدة كما تعلم... وعلينا الحصول على الشهادات الأولية... وإخلاء الطرف...

وقاطعه تركي ساخرًا:

ـ إخلاء الطرف؟... تريد أن يعطوك إخلاء طرف، وذمتك مشغولة بكتب استعرتها من المكتبة، ولا تريد أن ترجعها؟... ما هذا الكلام يا باشمهندس؟.

ـ بالله عليك يا تركي افهمني... أنا لم أقصد هذا طبعًا... ولا يعقل أن نترك الكلية وذمتنا مشغولة بشيء... اطمئن...

وفتح تركي فمه بعد أن ملأ صدره بالهواء استعدادًا لجواب ساخر من إجاباته، ولكنه لم يقل شيئًا، فقد تناهت إلى أسماعهم أصوات ضجيج مرح، وقرع على أدوات نحاسية، فلمعت عينا تركي بالمرح، وقال:

ـ آه... حفلة أخرى... الزملاء استأنفوا احتفالهم بعد مغادرة الأساتذة... هيا بنا يا شباب...

وتوجَّه الثلاثة مسرعين إلى القاعة، وقد عزم هشام على أن يطرح هواجسه جانبًا، فوجدوا زملاءهم وقد أمسك كل منهم بأداة من أدوات المطبخ، من صحون، وقدور، وملاعق، وسواها، وجعلوا منها أدوات موسيقية كانت ترسل صوتها الرتيب المزعج بقوة تكاد تصيب المرء بالصمم، ولكن الشباب المرحين وجدوا فيها وسيلة للتعبير عن ابتهاجهم بالنجاح، واختتام مرحلة حاسمة من حياتهم.

ودون أدنى تردد، «تحزَّم» تركي بغترته، وراح يرقص على إيقاع زملائه، الذين راحوا يصفقون له، ويهتفون، ويشجعونه على تحريك جسمه المكتنز الذي كان لا يستطيع الحركة إلا بصعوبة، وإذا به الآن، يتحرك برشاقة أثارت ضحك الشباب، وزادت من مرحهم، وحماستهم.

٥

قضى هشام اليوم التالي في عمل متصل، فهو قد أخذ الشهادات الأولية، وسلَّم إلى المكتبة ما كان لديه من الكتب المستعارة، وتابع معاملة إخلاء الطرف، وبذلك أصبح وجهًا لوجه أمام الخطوة التالية من حياته، وهي اختيار الطريق الذي سيسير فيه... هل يقدَّر له الحصول على العمل معيدًا في الكلية، على ضوء التقدير الذي حققه؟... ذلك أمر مستبعد وإن كان هو بالذات ما كان يطمح إليه.

هل يستطيع العمل مهندسًا في مكة، فيبقى بذلك في منزل أهله، ويعيش في مرتع صباه الأول؟... ذاك أمر ليس مؤكدًا، فضلًا عن أن كلمات زميلهم «عمر» قد هزته حين قال: إن واجب الشباب السعودي يقتضيه العمل في أي مكان من أرجاء المملكة الشاسعة، ليحملوا ـ هم بأنفسهم ـ عبء تعميرها، وتحقيق نهضتها، وتطويرها، وازدهارها.

هل يستطيع الحصول على بعثة؟... إنه يشعر بحاجة شديدة إلى تقوية لغته الإنجليزية بصورة أفضل، والبعثة إلى أميركا أو بريطانيا، هي السبيل الأقرب إلى تحقيق ذلك... هل...

وأوقف هشام خواطره عند هذا الحد، فقد أحس بأن عقله قد بات متعبًا مكدودًا، وأنه لم يعد باستطاعته التفكير بصورة مناسبة... وعاد إليه إحساسه بالأسف؛ لأنه لم يحصل على تقدير «جيد جدًا»... إذًا لكان الموضوع قد انتهى، وحقق أمله في العمل بالكلية معيدًا... أما الآن، وهذه الخواطر تتضارب في رأسه، فخير ما يفعله هو أن يلقي بنفسه على السرير، ليغط في إغفاءة عميقة، بعد ذلك اليوم الحافل.

ودلف إلى غرفته، وفتح بابها ـ إذ كان زميله عبد العزيز غائبًا ـ ولم يكد يهم بالدخول حتى وجد ورقة دفعت إلى الغرفة من تحت الباب.

وقرأ الورقة، فإذا بها من أحد زملائه، وفيها يخبره بأن خاله «علي»

قد اتصل به من فندق «اليمامة»، وأنه قد وصل إلى الرياض صباح هذا اليوم.

ولما كان هشام يعلم بأن خاله لا يمكث عادة في الرياض كثيرًا، بحكم أعماله، وأنه يتردد عليها لفترات قصيرة، فقد خشي أن يعود الخال من الرياض دون أن يراه؛ ولذا فقد عزم على أن يتوجه إليه في الحال، على الرغم مما هو عليه من تعب، وإعياء...

وتنهد هشام باستسلام، وعاد أدراجه مغادرًا مبنى الطلبة ليستقل أول سيارة تكسي صادفها، طالبًا من سائقها أن يأخذه إلى الفندق...

٦

وفي صالة الفندق الواسعة، دار هشام بعينيه باحثًا عن خاله، فوجده جالسًا مع اثنين من أصدقائه، فتوجه نحوهم، ولم يكد خاله يلمحه حتى هبَّ يقابله بالعناق، وهو يقول:

ـ مبروك يابن أختي... مبروك يا هشام... مبروك يا باشمهندس...

وبادل هشام خاله قبلاته وتحياته، ولكنه علق بارتباك على الجملة الأخيرة:

ـ باشمهندس؟... بدري يا خالي عليها... أنا يا الله حصلت مهندس بالعافية...

ـ فيك البركة يا هشام... فيك البركة...

وحيا هشام الرجلين اللذين كانا برفقة خاله، فعرَّفه بهما:

ـ أقدِّم لك يا هشام الأخ صالح... إنه أحد المسؤولين عن الصيانة والشؤون الهندسية في إحدى قواعد الدفاع الجوي في مكان ما من أرض الوطن... وهذا هو الأخ عبد الرحمن... إنه من كبار المهندسين في وزارة الدفاع.

وشعر هشام برهبة وهو يرى اثنين من «المهندسين» يحملان مسؤوليات مرموقة من وزارة الدفاع، فأين هو ـ المتخرِّج هذا اليوم بالذات من كلية الهندسة ـ من المهندسين القدامى؟.

وأمسك خاله بزمام الحديث، وراح يتحدث عن هشام:

ـ إنه ابن أختي... وهو من أحب أولادها إليَّ... وكان لي دور في اختياره لكلية الهندسة بالتحديد... فأنا أومن بأن المستقبل هو للعلوم العصرية المتقدمة، وأن بلادنا بحاجة إلى رجال تكنولوجيين في شتى المجالات.

وأمن الرجلان على كلام الرجل، وقالا: إن نظريته في محلها. واستطرد الخال في كلامه قائلًا:

ـ إن هشام قد تخرَّج هذه السنة... ماذا كان تقديرك يا هشام؟...

فقال هشام بخجل:

ـ جيد...

ـ عظيم... عظيم... قالها الخال بفخر...

ولكن هشام قال وكأنه يعتذر:

ـ الحق أنني كنت أطمح في أن يكون تقديري «جيد جدًا»، ولقد بذلت جهدي من أجل ذلك... ولكن...

ـ وماذا به تقدير «جيد»؟... خير وبركة... أليس كذلك يا باشمهندس عبد الرحمن؟...

وأجاب المهندس عبد الرحمن بلهجة الخبير الواثق مما يقول:

ـ بكل تأكيد... إن التقديرات التي يتخرَّج بها الطالب لا تعدّ، بالضرورة، مقياسًا حقيقيًا دقيقًا لإمكاناته العلمية، والعقلية... هناك ظروف كثيرة تلعب دورها في تقرير تلك التقديرات، والعبرة هي بالتجربة العملية.

وقال الخال ضاحكًا:

ـ حقًا. . . وأذكر أنني قرأت مرة أن آينشتاين، صاحب نظرية النسبية التي قلبت علوم العصر رأسًا على عقب، كان أيام دراسته ضعيفًا جدًا في الرياضيات بالذات. . . تصوروا. . .

وضحك الجميع، وقال الخال:

ـ والله العظيم لست أمزح. . . وإنما قرأت هذا فعلًا. . . أي: أن الرجل الذي عُدَّ أعظم «مخ» في القرن العشرين، كان ضعيفًا في الرياضيات. . .

وقال المهندس عبد الرحمن:

ـ هذا صحيح فعلًا. . . وهو دليل على ما أقول. . . ويبدو لي أن الأخ هشام متأثر لعدم حصوله على تقدير «جيد جدًا».

أجابه هشام في أسف:

ـ فعلًا يا باشمهندس. . .

وأردف بابتسامة:

ـ ولكن كلام خالي الآن رفع معنوياتي قليلًا. . .

وابتسم الخال وقال:

ـ الحمد لله. . . لأنني لا أريد أن أنتقص شيئًا من شعوري بالفخر عندما سمعت اسمك في الإذاعة بين ناجحي كلية الهندسة.

ووجَّه المهندس عبد الرحمن كلامه إلى هشام:

ـ ماذا نويت أن تفعل إن شاء الله؟

فقال هشام بارتباك:

ـ لست أدري والله. . .

ـ كيف؟. . . أليس لديك خطة؟

ـ عندي بعض الأفكار العامة. . .

ـ مثل؟ . . .

ـ إذا أمكنني العمل معيدًا في الكلية فهذا ما أفضله. . . ولكنني أستبعد ذلك. . . لأنهم لا يأخذون لهذا العمل سوى أصحاب التقديرات العالية جداً . . .

ـ وماذا أيضًا؟

ـ أفكر في إمكانية العمل في مكة. . .

وقال المهندس عبد الرحمن بلهجة فيها شيء من الاستغراب:

ـ ألم يخطر ببالك العمل في وزراة الدفاع والطيران؟

ـ أنا؟ . . .

هتف هشام متسائلًا بدهشة، فدل ذلك على أن هذه الفكرة لم تخطر له ببال من قريب أو بعيد، وإنه قد فوجئ بها تمامًا.

ـ أجل. . . أنت. . . لم تستغرب؟

ـ الواقع. . . الواقع. . . أن هذه الفكرة لم تخطر ببالي أبدًا. . .

ـ لماذا؟

ـ لست أدري. . .

ونظر هشام إلى خاله وكأنه يستنجد به كي يساعده في هذا الحديث، بعد أن بدا على المهندس عبد الرحمن وكأنه مصمم على معرفة السبب الذي يجعل هشام يستبعد من تفكيره الالتحاق بوزارة الدفاع والطيران، ولكن الخال قال مؤيدًا المهندس عبد الرحمن:

ـ حقًا يا هشام يا ولدي. . . لم لم تفكر في العمل في وزارة الدفاع والطيران؟

وارتبك هشام، وشعر وكأن حصارًا قد ضرب حوله، فالجميع ـ فيما يبدو ـ يؤيدون التحاقه بوزارة الدفاع والطيران، ومن يدري؟ . . . فلعل هناك اتفاقًا سابقًا بينهم على ذلك. . . ولعل اجتماع اثنين من المهندسين

التابعين لوزارة الدفاع والطيران ليس مصادفة. . . ولعل خاله هو الذي دعاهما، عامدًا إلى هذه الجلسة، ولعل خاله قد قرر شيئًا بشأن مستقبله دون أن يأخذ رأيه. . .

وانتبه هشام من تصوراته وتخميناته على صوت المهندس عبد الرحمن وهو يسأل بلهجة هادئة، ولكنها تدل على إصراره على معرفة الجواب:

ـ إنك لم تجبني يا أخ هشام على سؤالي. . . لماذا؟

ـ لقد أجبتك. . . إنني لست أدري. . . لم يخطر هذا ببالي من قبل. . .

ـ وما هو رأيك الآن وقد جعلنا ذلك يخطر ببالك؟

فقال هشام بارتباك شديد:

ـ لست أدري. . . لست أدري. . . المسألة تحتاج إلى تفكير. . . وبحث و. . .

وقاطعه خاله:

ـ إنها لا تحتاج إلا إلى الاتكال على الله، والإقدام على هذه الخطوة. . .

ـ إنني متكل على الله في كل أموري. . . ولكنني فوجئت. . . وأعتقد أنني بحاجة إلى مشاورة الوالد، وبحث الأمر من مختلف نواحيه و. . .

ورد عليه خاله على الفور:

ـ من ناحية الوالد اطمئن. . . إنه موافق.

ـ موافق؟. . . قالها هشام باستغراب. . .

ـ أجل موافق. . . أمس كنت في مكة. . . وزرت الوالد. . . وهنأته بنجاحك. . . ثم تحدثنا حول مستقبلك، فقال: إنه لا يستطيع أن يفرض

عليك شيئًا... فزمانه غير زمانك... وأنت أدرى بمصلحتك... ولما كنت أعرف المميزات التي يتيحها لك العمل في وزارة الدفاع والطيران بحكم صلاتي ببعض الأصدقاء فيها، فقد اقترحت عليه أن تلتحق بهذه الوزارة، فاستغرب الاقتراح مثلك، في البداية، ولما شرحت له الأمر، تمنى أن تتاح لك هذه الفرصة... وترك الاختيار لك... فما رأيك...

وتكلم المهندس صالح الذي كان يتابع الحديث صامتًا طوال الوقت، وقال موجهًا كلامه إلى هشام، وفي هذا الكلام رنة المداعبة:

ـ بالمناسبة يا أخ هشام... إن الالتحاق بوزارة الدفاع والطيران ليس سهلًا كما قد تعتقد، فهناك شروط عديدة يبدو لي أنها تتوافر فيك، ولكنها لا تتوافر في كل إنسان... أقلها اللياقة الصحية... ومن الطريف حقًا أن أراك مترددًا في الوقت الذي يقبل فيه آلاف من الشباب سواك على الالتحاق بالقوات المسلحة برية وجوية وبحرية، وبعضهم ترفض طلباتهم لعدم حيازتهم على الشروط اللازمة...

وأضاف المهندس عبد الرحمن ضاحكًا:

ـ حقًا يا أخ هشام... ولكن يبدو لي أن صحتك على ما يرام... وإن تقديراتك الجامعية مناسبة... ولسوف تلتحق بالقوات المسلحة برتبة ملازم أول... فماذا تريد أكثر من هذا...

وقال الخال بحماسة:

ـ الله أكبر... ملازم أول مرة واحدة؟... وتتردد؟...

ثم وجَّه الخال حديثه إلى المهندس عبد الرحمن قائلًا:

ـ حدّثه بالله عليك عن المميزات التي سوف يحصل عليها بانتسابه إلى القوات المسلحة.

وأخذ المهندس عبد الرحمن يسرد تلك المميزات:

ـ خذ عندك يا سيدي... أولًا الراتب... وهو ليس بالقليل...

ثم بدل صنف... وبدل سكن... وبدل ملابس... وبدل إعاشة... وبدل خادم...

وعلَّق الخال مخاطبًا هشام:

ـ هل سمعت يا بني؟... البدلات وحدها تعدّ راتبًا قائمًا بذاته... وماذا أيضًا يا أخ عبد الرحمن؟

ـ هناك أيضًا البعثات... إن الفرصة متاحة أمامك للابتعاث لدراسة اللغة... وتحصيل الدراسات العليا.

ـ البعثات؟...

تساءل هشام بتمهل، فقد وجد نفسه على باب أحد الأحلام التي كان يفكر فيها، وهو أن يكمل دراسته، ويحصل على شهادة عليا في تخصصه.

ـ أجل... فهناك كثير من الضباط السعوديين الذين يتلقون دراسات عليا في أرقى الأكاديميات العسكرية في الولايات المتحدة، وأوربة...

وكأنما أراد الخال أن يحسم الأمر، فقال لهشام:

ـ ماذا ترى الآن يا هشام؟... ها أنت قد سمعت بأذنيك كل جوانب الموضوع ممن يعرفون عنه كل شيء... ولا شك في أن المعلومات التي أدلوا بها إليك تدل على أنهم إنما يدلونك على طريق الخير... ولك أنت، على أية حال أن تختار.

ودون أن يشعر، وجد هشام نفسه يقول:

ـ قد اخترت... وتوكلت على الله.

فابتسم المهندس عبد الرحمن ابتسامة عريضة، وقال له:

ـ مبروك هذا الاختيار... ومرحبًا بك، مبدئيًا، في القوات المسلحة... أقول مبدئيًا لأن هذا متوقف على استكمال الإجراءات...

وعلَّق الخال قائلًا:

ـ فيك البركة يا باشمهندس. وأظن أنك لا تمانع في مساعدته على استكمال الإجراءات، وتقديم الأوراق.

ـ بكل سرور... ويستطيع الأخ هشام أن يراجعني غدًا إن شاء الله في الوزارة، وسوف نشرع في الإجراءات حالًا.

وعلى هذا انفضت الجلسة، فانصرف الصديقان، وبقي هشام وخاله جالسين وحدهما في بهو الفندق.

ولاحظ الخال أن هشامًا مستغرق في التفكير استغراقًا كليًا، فسأله:

ـ هيه... وحدوه... أين أنت؟

ـ هه؟... آه... آسف يا خالي... فقط كنت... كنت أفكر...

ـ تفكر؟... الحمد لله الذي قيض لنا هذين الصديقين اللذين استطاعا إيضاح المسألة لك في كل جوانبها، كما أبديا استعدادهما لمساعدتك على استكمال الإجراءات اللازمة، فماذا تريد أكثر من ذلك؟

ـ لم يكن هذا ما كنت أفكر فيه... وإنما كنت أعجب لتصاريف القدر... كانت وزارة الدفاع هي آخر ما يمكن أن يخطر ببالي... لا لشيء... إلا لأنني لم آنس في نفسي ميولًا عسكرية في يوم من الأيام.

ـ وهل هناك أسمى من خدمة الوطن عن هذا الطريق... اسمع يا ولدي، إن بلادنا وهي تبني نهضتها العظيمة التي نعيشها كلنا، لم تغفل عن حماية هذه النهضة بالقوة الضاربة التي تدفع عنها كل سوء... ونحن، كما تعلم، بلد له وضع خاص ومتميز... إننا نعدّ أنفسنا مجاهدين في سبيل الله... ونعدّ قواتنا المسلحة، بل وكل إمكاناتنا، في خدمة دين الله... وأنت تعلم أن أعداء الإسلام كثيرون... وكل من عادى الإسلام والمسلمين فهو عدو لنا بصورة تلقائية... ولهذا أمرنا الله سبحانه وتعالى بأن نعد لأعدائنا ما استطعنا من قوة...

إن الدم السعودي الزكي، استطرد الخال قائلًا، قد امتزج بأكثر من أرض إسلامية، دفاعًا عن إخوة لنا في فلسطين... في مصر... في الأردن... في سورية... وفي كل مكان نودي فيه للجهاد... إن مسؤوليتنا، يا بني، تقضي علينا أن نكون في مركز من القوة العسكرية يجعلنا جديرين بها... ولقد أثبتنا، ولله الحمد، أننا في مستوى هذه المسؤولية، وأننا نضع أفعالنا موضع أقوالنا، ونقرن المبدأ بالجهاد في سبيله.

... أنا، يا بني، أحد الذين اشتركوا في الجهاد على أرض فلسطين مع أفراد القوات السعودية؛ التي حاربت في الجبهة المصرية أيام حرب فلسطين الأولى عام (١٩٤٨) ميلادي.

ونظر هشام إلى خاله باهتمام، وقد هزته كلماته هزًا عنيفًا، وقال بلهجة رجاء:

ـ هلَّا حدثني، بالله عليك يا خالي، عن بعض ذكرياتك تلك؟

ـ لم لا؟... الليل طويل... ولست أمل الحديث عن هذه الذكريات التي لا يعرفها، للأسف، كثيرون منكم يا أبناء هذا الجيل.

وأشار الخال إلى النادل، وطلب إليه أن يأتيهما بفنجانين من الشاهي، ثم راح يروي بعض ذكرياته تلك...

٧

قال الخال وهو يمسح بأصابعه على جبينه، ليعود بذاكرته إلى الوراء ربع قرن، أو يزيد:

ـ مع حلول عام (١٩٤٨)، ميلادي، كانت الأحداث في فلسطين تسير وفق المخططات الشريرة التي ساهم في وضعها وتنفيذها ثالوث أعداء الإسلام المعروف: الصهيونية، والشيوعية، والاستعمار، لتقسيم

فلسطين، وانتزاعها من أصحابها الشرعيين، وإسكان شذاذ الآفاق الصهاينة في بلد أولى القبلتين تتفق ومطالع تلك الأطراف الثلاثة في الكيد للإسلام والمسلمين، والعرب والعروبة... ولست أريد، هنا، أن أحدثك عن الملابسات السياسية للقضية، فهي ليست ـ الآن ـ موضوعنا... ولكنني أريد أن أنوه لك بأن بلادنا كانت في طليعة الدول التي اهتمت بالقضية، وتابعتها، وبذلت من أجلها الغالي والنفيس.

ولعلك تعلم، يا ولدي، أن مؤسس هذه المملكة، الملك عبد العزيز، يرحمه الله، كانت له جهود جبارة في الدفاع عن فلسطين، وتذكر ـ طبعًا ـ اللقاء التاريخي الذي تم في أعقاب الحرب العالمية الثانية بين عبد العزيز، طيَّب الله ثراه، وبين الرئيس الأميركي روزفلت.

لقد رغب الرئيس الأميركي في هذا اللقاء لكي يتعرف إلى مطالب عبد العزيز، ولكنه فوجئ ـ كما اعترف هو نفسه ـ بأن الملك، يرحمه الله، لم يطلب لنفسه ولا للمملكة أي شيء، واقتصر حديثه على فلسطين، وعلى حقوق شعب فلسطين، لدرجة انتزع معها وعدًا صريحًا من الرئيس الأميركي بأن يمتنع هذا عن المساهمة في أي عمل يسيء إلى الحق العربي الصريح في فلسطين... وهذا مثبت في وثائق وزارة الخارجية الأميركية التي نشرت قبل فترة... وأعتقد، يا بني أنه لولا أن المنية قد عاجلت الرئيس الأميركي قبيل نهاية الحرب، فلربما كان تغير وجه الأحداث.

ما علينا...

المهم، أن المؤامرة العدوة قد بدئ بها، وتقرر دخول الجيوش العربية إلى فلسطين.

ـ عفوًا يا خالي... أعتقد أن الملك عبد العزيز، يرحمه الله، كان معارضًا في دخول الجيوش العربية إلى فلسطين... أليس كذلك؟

ـ هذا صحيح... وكانت له في ذلك نظرة غاية في النضج والعمق... وهي أن يتولى شعب فلسطين الدفاع عن بلاده وهو في أرضه، وألا يغادرها بأية حال من الأحوال... وأن تحشد الدول العربية جيوشها على الحدود الفلسطينية، وأن تمد أهل فلسطين بالمال، والسلاح، والمتطوعين... ولقد قال جلالته، يرحمه الله: إن الدول العربية أعضاء في الأمم المتحدة، وأنها إذا دخلت جيوشها فلسطين فلن تلبث الأمم المتحدة أن تتخذ قرارًا بوقف القتال، وسوف تلتزم الدول العربية بهذا القرار بحكم عضويتها في الأمم المتحدة... ولكن دولًا عربية أخرى، لأسباب خارجة عن موضوعنا الآن، أصرت على دخول الجيوش العربية، ورغبة من جلالته، طيَّب الله ثراه، في الحفاظ على وحدة الموقف العربي، وافق ـ كارهًا ـ على الاشتراك في الحرب بالجيش النظامي، وأشهد من حوله إذ ذاك، بأنه قد بذل جهده لإقناع الآخرين بوجهة نظره، وأعتقد أنه قال يومها والألم يعتصر قلبه: «لقد ضاعت فلسطين»... هكذا كتب الذين شهدوا لقاءه مع المسؤولين العرب الذين جاؤوا لإقناعه بدخول الحرب.

ورشف الخال من فنجانه رشفة، ثم استطرد:

ـ كنت أنا، إذ ذاك، جنديًا في القوات السعودية النظامية التي أمرت بالتوجه إلى الجبهة لتقاتل مع القوات المصرية والسودانية في الجبهة الفلسطينية الجنوبية الغربية، وقد تجمعت الوحدات التي تقرر إرسالها إلى فلسطين في جدة، ومنها نقلنا جوًا وبحرًا إلى القاهرة والسويس، وكان ذلك في شهر رجب عام (١٣٦٧هـ)، الموافق لعام (١٩٤٨م).

بعد ذلك نقلنا إلى غزة بعد أن تم التنسيق بيننا وبين القوات المصرية والسودانية. ولعلي، يا هشام، أكشف لك أمرًا لا تعرفه بحكم سنك الغضة، وبحكم ما تسمعه من أننا قد «هزمنا» عام (١٩٤٨م).

أبدًا يا ولدي، وها هي آثار جراحي تشهد، وجراح زملائي وإخواني من المجاهدين السعوديين، نظاميين وغير نظاميين، وكذلك جراح إخواننا المقاتلين في الجبهات الأخرى.

كان هدفنا هو تل أبيب... أجل تل أبيب... وعلى الرغم من كل ما جرى، وما كان قد أعد ضد العرب وفلسطين من مؤامرات، فقد كان هذا الهدف في متناول أيدينا أو يكاد... إنك قد لا تصدق ذلك، ولكنه ـ والله ـ هو الحقيقة.

لقد كانت الخطة الموضوعة تقضي بأن تلتقي القوات العربية المتقدمة في مختلف الجبهات مع بعضها بعد احتلال المستعمرات اليهودية القائمة في طريقها، وقد سارت هذه الخطة، في البداية، بنجاح تام، طمست أنباءه ـ بعد ذلك ـ الأحداث التي تلت ذلك العام.

لقد سارت قواتنا، مع باقي القوات العربية مجتازة «دير سنيد» و«المجدل»، واتجهنا حتى وصلنا إلى «أسدود».

وفي الوقت نفسه اتجهت قوات أخرى شرقًا بادئة من «المجدل» حتى دخلت «عراق سويدان» و«الحيفات» و«كراتيا» ثم «الفالوجا» ثم «عراق المنشية» فاتصلت بالقوات الأردنية المقاتلة شرقي فلسطين... وبهذا فصلنا المستعمرات اليهودية القائمة في الجنوب عن المستعمرات القائمة في الشمال... فصلناها فصلًا تامًا... وفرضنا عليها حصارًا شديدًا، وقطعنا عنها التموين، الأمر الذي حاول العدو معه أن يزودها بالتموين جوًا، ولكن هذه المحاولة لم تنجح، وظللنا نشدد الحصار على تلك المستعمرات لدرجة جعلتنا نتوقع استسلامها بين لحظة وأخرى.

كان هشام يصغي إلى حديث خاله مبهورًا، حابس الأنفاس، فهو لم يصل إلى علمه شيء من هذه الأمجاد، وكل ما كان يعرفه هو الحديث المعاد عن «الهزيمة»؛ التي شكلت لدى الشباب العربي عقدة

ثابتة، ولذا فقد فوجئ بما يرويه له خاله، ورغب في المزيد والمزيد من هذه المعلومات، فسأله:

ـ هلّا حدثتني عن تفاصيل إحدى المعارك التي خاضتها القوات السعودية إذ ذاك؟

ـ أستطيع أن أحدثك عن كثير، وكثير جدًا، من هذه المعارك. . . إليك مثلًا قصة معركة «بيت طيحان» التي وقعت في أول شهر رمضان عام (١٣٦٧) هجري.

كانت الأوامر قد صدرت إلينا بالاتجاه من غزة إلى المجدل، ومنها إلى قرية «بيت طيحان» التي كانت تعدّ نقطة استراتيجية مهمة جدًا بالنسبة للعدو.

المعركة بدأت، كما قلت لك، في غرة شهر رمضان، الساعة التاسعة ليلًا، واستمرت اثنتي عشرة ساعة دون انقطاع. . . بدأ العدو ـ بعدها ـ بالتراجع شيئًا فشيئًا على الرغم من تحصيناته القوية، ومع ظهور الخيوط الأولى للفجر كانت قواتنا تحتل آخر موقع من مواقع العدو، وهو مدرسة القرية التي كانت أهم جيوب المقاومة، وبعدها بحوالي نصف ساعة سقط في أيدينا مرتفع كنا نسميه «التبة رقم ١»، ويقع في شرقي المدرسة، وبعد ذلك بساعتين سقطت «التبة رقم ٢»، وفي الوقت نفسه احتللنا الجبل الذي يشرف على المستعمرة، ولم يأت عصر ذلك اليوم حتى كنا قد نفذنا المهمة بحذافيرها، وسيطرنا على الطريق المؤدية إلى «عراق سويدان» و«بير سبع».

آه يا ولدي. . . إن جسدي ليقشعر إذ أذكر الحماسة التي كنا نقاتل بها في تلك المعركة المجيدة.

ماذا تتوقع من جنود يرفعون الراية الخضراء، وعليها شهادة أن «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، ويندفعون نحو حصون العدو، وهم يرددون كما ردد أجدادهم من قبل: «الله أكبر. . . الله أكبر»؟.

هكذا خضنا معركة «بيت طيحان»، وهكذا استولينا على مواقع العدو كلها بعد أن كبدناه خسائر جسيمة من القتلى، والعتاد، والذخائر، وكان شهداؤنا ـ على ضراوة المعركة ـ أربعة، أذكر منهم، الآن، الشهيد المرحوم يحيى الصمان نائب فصيل الهاون، وستة جرحى.

لقد كان معنى سقوط «بيت طيحان» في أيدينا قطع الشريان المهم؛ الذي كان يمد ستًا وثلاثين مستعمرة يهودية بالتموين عبر خط الأسفلت الذي ينتهي إلى... تل أبيب.

ـ إلى تل أبيب؟.

هتف هشام بذهول، وهو يسمع خاله يروي له القصة، وهز الخال رأسه بأسى وقال:

ـ أجل يا ولدي... إلى تل أبيب...

ـ وماذا جرى بعد ذلك؟

ـ لقد عمد العدو، في البداية، إلى إمداد المستعمرات المحاصرة جوًا، محاولًا في الوقت نفسه إجلاء قواتنا، واستعادة «بيت طيحان»، ولكن عبثًا كان يحاول... وكانت أعنف تلك المحاولات هي المعركة التي جرت في الثاني والعشرين من رمضان، فقد وجَّه العدو قواته إلى «التبة رقم ٢» التي كانت تحقق لنا السيطرة على الطريق، ولكن قواتنا قاتلت ببسالة، ودافعت بعنف وضراوة، جعل العدو يرتد مخلفًا وراءه ثمانين قتيلًا، وكميات كبيرة من الأعتدة، منها مدافع هاون ورشاشات من طراز «فيكرز»، وثلاث سيارات، وكان قائد الهجوم نفسه، وهو برتبة «كابتن»، بين القتلى...

لقد حاولنا محاصرة العدو المتراجع، ولكنه استطاع الفرار في غمرة الذعر واليأس، في آخر لحظة.

وبعد يومين اثنين، حاول العدو، مرة أخرى، أن يستعيد الموقع،

واستمرت المعركة بيننا وبينه من الثامنة ليلًا إلى الثانية عشرة، واضطر للارتداد مرة أخرى تاركًا وراءه ـ هذه المرة ـ ثمانية عشر قتيلًا . . .

وتوقف الخال عن الحديث كأنما ليلتقط أنفاسه بعد أن عادت إليه الذكريات، فراح يرويها وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح، وكان هشام قد تحول كله إلى آذان صاغية، فنسي تعبه وإعياءه، واستيقظت حواسه تلتقط من فم خاله ما لم يكن يعرفه، أو يتصوره، عن أمجاد تمت قبل أن يرى نور الحياة، وقبل أن يسأل خاله عما حدث بعد ذلك، كان هذا قد استأنف كلامه فقال:

ـ بعد هذا واصلت قواتنا تقدمها، وكان هدفها هذه المرة احتلال مستعمرة صهيونية تدعى «كوكبة»، وقد جابهنا العدو بالمصفحات، فحطمنا له منها ثلاثًا، وصرعنا له خمسة وعشرين جنديًا، وغنمنا كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر، ولم تستغرق المعركة سوى ثلاث ساعات، وبالتحديد ما بين الساعة الثانية عشرة ظهرًا إلى الثالثة عصرًا، وبعدها كان كل شيء قد انتهى، وانسحب العدو إلى مرتفع عال كنا نسميه ـ حسب خرائطنا ـ «التبة رقم ٤»، ولكننا تبعناه بهجوم صاعق أسفر عن هزيمته، وخلَّف وراءه محطة لاسلكية، وبضع سيارات، ومدافع، وعددًا من القتلى.

لقد حاول العدو بعد ذلك بأسبوع أن يستعيد هذا الموقع المهم، ولكن فصيلين اثنين من القوات السعودية ردته بعنف في معركة ضارية بدأت في الثانية ليلًا، واستمرت حتى الساعة الثامنة صباحًا.

وطبعًا ما كان العدو ليطيق أن نسيطر على خط الأسفلت المؤدي إلى تل أبيب، فأخذ يزود مستعمراته المحاصرة بالمؤن بوساطة الطائرات، بينما كان يستعد للقيام بهجوم مضاد بدأه بعد أيام، ولكننا كنا له بالمرصاد.

لقد بدأ العدو هجومه في منتصف الليل، واستمرت معركتنا معه حتى الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم التالي، وأسفرت عن اندحاره، تاركًا ثلاث دبابات دمرتها نيراننا، إلى جانب عدد غير قليل من القتلى، والذخائر، والمعدات.

وهنا نظر الخال إلى ساعته، ثم قال بدهشة:

ـ ياه... لقد مضى الوقت بسرعة... وأعتقد أنك في حاجة إلى الراحة والنوم مثلي.

ولكن هشام قال له بلهجة أقرب إلى الرجاء:

ـ هذا لا يهم... وبودي أن أسمع منك المزيد.

ـ عندي من هذا شيء كثير... وهي أحداث عشتها بنفسي، وشاركت فيها بجهدي المتواضع، وتركت آثارها على جسمي إلى اليوم... ولسوف أستأنف حديثي غدًا إن شاء الله... أما الآن فعليك أن ترتاح قليلًا؛ لكي تستطيع ملاحقة معاملاتك غدًا في وزارة الدفاع والطيران... ولعل الله يكتب لك التوفيق في الالتحاق بها.

ونهض هشام مودعًا خاله، عائدًا إلى غرفته، وقد شعر بأن رغبة جامحة قد باتت تجتاحه لكي يلتحق بوزارة الدفاع والطيران بالذات، وإن رغبته في العمل معيدًا في الكلية قد تضاءلت، أو تلاشت، لا لشيء، إلا لأن ما سمعه من خاله عن أمجاد كتبتها القوات السعودية بدمائها وجهادها على أرض فلسطين قد أيقظت في أعماقه شعورًا بأن الجيش هو مكانه الطبيعي، وأنه لن يحقق ذاته بغير أن يلتحق بالقوات المسلحة، في سبيل الله، والدين، والمليك، والوطن.

٨

صباح اليوم التالي، استيقظ عبد العزيز على صوت حركة وجلبة في الغرفة التي تضمه مع هشام، ففتح عينيه وأخذ يجيلهما فيما حوله، ليرى هشام وهو يتحرك بسرعة، وحماسة، ونشاط، فيفتح حقيبة أوراقه، ويستعرض هذه الأوراق، ويختار بعضها فيضعها جانبًا، ثم يتناول مظروفًا كبيرًا يضع فيه الأوراق التي اختارها . . . ثم يتوجه إلى خزانة ملابسه، ليفرغها في حقائبه وهو يطوي هذه الملابس بعناية، ويجمع أشياءه التي زاملته أثناء سنوات الدراسة، وخلال ذلك كانت تبدو في حركاته روح جديدة تتناقض مع ما كان عليه، أمس فقط، من جمود، وركود، وإغراق في التفكير . . . وكان هشام يعيد اللحن ويكرره دون انقطاع، وهو يتنقل هنا وهناك في أرجاء الغرفة؛ ليستكمل استعدادته لمغادرة المبنى بصورة نهائية.

واستقام عبد العزيز في جلسته وقد بدت على وجهه معالم الدهشة، وظل يتأمل هشام، ويحاول أن يخمن سبب هذه الروح الجديدة التي تبدو فيه، ولكن هشام كان منصرفًا عنه كل الانصراف، ولم ينتبه إلى استيقاظه.

ودلى عبد العزيز ساقيه من السرير، واسترخى في جلسته هذه، وهو يلاحق هشام بأنظاره في دهشة صامتة، ويتوقع منه أن يراه، ولكن هشام كان ـ على ما يبدو ـ في واد آخر تمامًا.

ولم يستطع عبد العزيز السكوت أكثر من ذلك، فتنحنح بصوت مسموع، وقال:

ـ ما شاء الله . . . ما شاء الله . . . ما هذه الموسيقا التي تتحفنا بها مع بداية الصباح؟

وتوقف هشام عما كان فيه، والتفت بسرعة نحو عبد العزيز، وقال بفرح:

ـ صباح الخير . . . هل استيقظت؟.

ـ صباح الخير... استيقظت طبعًا... إذ كيف أستطيع أن أستمر في النوم وأنا لا أسمع سوى صوت خزانة تفتح، ودولاب يغلق، وحقيبة توضع على الأرض، وكرسي يسحب... ثم صفير متواصل... خيرًا إن شاء الله... إيش الحكاية؟

وأشرق وجه هشام بفرح حقيقي، واتجه نحو زميله، وأمسكه من كتفيه بكلتا يديه وقال له بحماسة:

ـ آه يا عبد العزيز... اسكت... لقد وجدت نفسي... وجدت نفسي.

وذهل عبد العزيز، وبدا عليه أنه لم يفهم كلمات زميله، وكاد أن يسأله عما يعنيه، ولكن الحقيقة سطعت فجأة في ذهنه:

ـ آه... هل حصل شيء أمس؟... بالنسبة للمعيدية و...

ـ معيدية إيش يا عمي؟ ... لا... لا... حاجة ثانية... حاجة ثانية خالص...

ـ مدير شركة؟

ـ مدير شركة إيش أنت التاني... باقول لك وجدت نفسي...

ـ يا سيدي عارف... وفاهم... عارف إنك كنت ضايع وتايه... بس اللي أبغي أفهمه هو إنك وجدت نفسك فين؟.

فشد هشام قامته بكبرياء، وقال ببطء وتأن:

ـ في وزارة الدفاع والطيران.

وهب عبد العزيز واقفًا وقد أذهله الخبر:

ـ إيش؟... وزارة الدفاع؟... إيش جابك أنت لوزارة الدفاع؟... عمرك ما جبت سيرتها... ولا تكلمت عنها أبدًا... كانت كل أحلامك أنك يا أما تصير معيد بالكلية... أو مهندس في مكة... إيش حكاية وزارة الدفاع هاذي؟...

وانطلق هشام يتحدث، والكلمات تتدافع من فمه بسرعة، وحماسة، وإيمان... تحدث إليه عن لقائه بخاله... وبصديقيه المهندسين اللذين يعملان في وزارة الدفاع... أعاد عليه بالتفصيل كل كلمة من الحوار الذي دار بينه وبين الثلاثة... روى له شيئًا مما سمعه من خاله عن أمجاد جهاد القوات السعودية في حرب فلسطين الأولى... وكان عبد العزيز يصغي إليه صامتًا مذهولًا، لم يقاطعه بحرف واحد، بل اتجه إليه بكل جوارحه، وهو يزداد اقتناعًا ـ شيئًا فشيئًا ـ أنه يرى في هشام إنسانًا جديدًا عليه، وأن الاتجاه الذي اختاره ليس نزوة طارئة، وإنما عن قناعة عميقة، وتصميم أكيد...

وختم هشام كلامه قائلًا لزميله:

ـ هه... والآن؟... ما رأيك؟...

وتمشى عبد العزيز في الغرفة مطرقًا يفكِّر، فهو قد فوجئ تمامًا بهذا الاتجاه الجديد الذي اختاره هشام، وشعر وكأن الحماسة التي كان هشام يتحدث بها قد انتقلت إليه...

وكان هشام يتابعه بنظراته مرتقبًا جوابه بلهفة:

ـ هه... ما رأيك؟... لم تقل لي...

وهز عبد العزيز رأسه في حيرة وقال:

ـ الحقيقة إنك قد فاجأتني تمامًا... ولست أدري ما أقول... وطبعًا كان اختيارك موفقًا... وأرجو أن توفق في مسعاك.

وشعر هشام بالارتياح لكلام زميله، فقال له بلهفة:

ـ إذًا... هل تأتي معي؟.

فمد عبد العزيز يده إلى نظارته السميكة، وخلعها، وراح يديرها بيده وهو يقول بمرارة:

ـ وهذه؟... أين أذهب بها... لعلك لا تعلم أن درجة النظر

عندي ضعيفة إلى حد لا يمكن أن يقبلوني معه في القوات المسلحة. . . وإذا قبلوني فلن يلحقوني بإحدى الوحدات المقاتلة كما أتمنى. . .

وتنهد عبد العزيز بأسف وقال:

ـ ما علينا. . . المهم الآن هو أنت. . . إنني أكرر لك تمنياتي بأن توفق في مسعاك.

وشكر هشام لزميله عواطفه، وأكمل الاستعداد للخروج، وحمل أوراقه معه، واتجه نحو الباب وهو يسأل عبد العزيز:

ـ متى ستسافر؟

ـ لم أقرر بعد. . . ربما بعد يومين أو ثلاثة. . . وأنت؟

ـ أنا؟. . . هذا متوقف على نتيجة مسعاي الآن في وزارة الدفاع والطيران، إلى اللقاء إذًا.

٩

وسار كل شيء على ما يرام. . . فالمهندس عبد الرحمن قد أبدى اهتمامًا كبيرًا عندما جاءه هشام، وقام بعدد من الاتصالات الهاتفية، وأرسل هشام عددًا من المرات إلى جهات عديدة في مبنى الوزارة، وأرشده كيف يملأ الاستمارات التي أعطيت له، وتابع معه الموضوع بصورة قطع معها هشام أشواطًا بعيدة على طريق الالتحاق بوزارة الدفاع والطيران، ولم يبق عليه سوى إجراء الكشف الطبي، واستكمال بعض الوثائق التي يستدعي استخراج بعضها ذهابه إلى مكة.

وكان وقت الغداء قد حان، فغادر مبنى وزارة الدفاع والطيران متوجهًا إلى الفندق، حيث تناول الطعام مع خاله، ثم جلسا في الصالة التي كانت شبه خالية تقريبًا، وأحاط الخال بكل ما حدث مع هشام في

يومه هذا، وأعرب عن أمله في أن تكلل هذه الخطوة بالنجاح، بعد الشوط الذي قطعه.

واسترخى الخال في مقعده، يرشف الشاهي بتلذذ، وكان هشام شديد اللهفة على أن يكمل له خاله حديثه الذي بدأه بالأمس؛ ولذا لم يلبث أن قال:

ـ ألا تكمل لي الحديث الذي بدأته بالأمس يا خالي؟

ـ أي حديث؟

ـ ذكرياتك عن حرب فلسطين الأولى.

ـ لم لا... إلى أين وصلنا أمس؟

ـ حدثتني عن معركة «كوكبة» وعن اندحار العدو مخلفًا وراءه عددًا من الدبابات.

ـ نعم... نعم... ثلاث دبابات، مع عدد كبير من القتلى، والذخائر، والمعدات.

وصمت الخال بعض الوقت، وكأنه يحاول أن يستجمع ذاكرته، ثم تكلم فجأة وكأنه تذكر قصة معينة:

ـ آه... تذكرت الآن شيئًا مهمًا... هل تعلم أن السرية السعودية التي اشتركت في معركة «بيرون إسحاق» قد سميت «سرية النصر» من قبل القوات الشقيقة التي اشتركت في المعركة؟

وابتسم هشام وأجاب:

بالطبع لا أعلم... بل إنني لا أعلم أي شيء عن هذا الذي ترويه.

وروى الخال القصة:

ـ كانت قواتنا مسؤولة عن القطاع الأيسر من الهجوم الكبير؛ الذي كانت القوات العربية قد قررت القيام به على مستعمرة «بيرون

إسحاق». . . كانت هذه القوات مصرية وسعودية، تساندها مدفعية ميدان، وتدعمها دبابات ثقيلة، ومصفحات مصرية وسعودية أيضًا.

ـ هل أفهم من هذا أن «بيرون إسحاق» هذه كانت قوية التحصين حتى استخدمت كل هذه القوات في مهاجمتها؟

ـ كانت أقوى مستعمرة صهيونية في ذلك القطاع كله. . . وكانت تقع في منطقة مكشوفة، ولا يحيط بها سوى حقول مزروعة بالقمح. . . وقد أحيطت المستعمرة كلها بأسلاك شائكة عرضها عدد من الأمتار. . . وبعد أن مهدت مدفعيتنا الثقيلة بقصف مركز شديد، بدأ الهجوم الكبير.

وكما قلت لك، كنا نقاتل في القطاع الأيسر. . . وما إن توقف قصف مدفعيتنا حتى اندفعت فصائل الاقتحام السعودية لتدمير تحصينات العدو، وأسلاكه الشائكة. . . ولكن العدو كان يسيطر على المكان لسببين. . . أولهما أن الأرض كلها مكشوفة من حوله. . . وثانيهما هو وكر مدفع رشاش ثقيل أقيم فوق خزان المياه. . . وكان هذا الوكر في «موقف حاكم» ـ حسب التعبير العسكري ـ الأمر الذي أوقف تقدم قواتنا. . . وهنا تسلل أحد ضباط السرية السعودية. . . إنني ما زلت أذكر اسمه. . . إنه الملازم عبد الله الطاسان. . . تسلل الملازم عبد الله إلى أسفل الخزان، وتسلقه حتى وصل إلى حيث أقيم المدفع الرشاش، وأطلق النار على جنود العدو الذين كانوا يستخدمون ذلك المدفع. . . وبهذه الطريقة زال المانع الذي كان يحول دون تقدم قواتنا؛ التي ما لبثت أن طهرت القطاع كله من قوات العدو، ورفع الملازم عبد الله العلم السعودي على سارية الخزان، فمضى يخفق ويرفرف، بينما ارتفعت تكبيراتنا، ونحن نرى رايتنا الخضراء تعلن انتصارنا.

كان العدو يقاوم بعنف، كما أن سقوط القطاع الأيسر في أيدينا قد جعل العدو يستميت في الدفاع عن القطاعات الأخرى، ويأتي بنجدات

جديدة، الأمر الذي جعل إخواننا الجنود المصريين ينسحبون بانتظام، وبهذا استطاع العدو أن يحكم الطوق على القوات السعودية، ويشدد عليها الحصار، ولكننا كنا نقاتل بضراوة، ونرد الهجوم تلو الهجوم، حتى نفد ماؤنا، وجاءتنا أوامر القيادة العامة بالانسحاب... خاصة وأن العدو أخذ يستخدم الطائرات في هجومه علينا، ويلقي بقنابل حارقة.

وبدت رنة من الأسف في صوت الخال وهو يستطرد في حديثه:

ـ أظن أن لديك فكرة عن القيادة العامة التي فوتت كثيرًا من الفرص كان يمكن الاستفادة منها... كانت القوات السعودية تتبع هذه القيادة، بعد أن تم التنسيق بيننا وبين إخواننا المصريين والسودانيين... ولو استطاعت القيادة العامة أن تستثمر النصر الذي حققته القوات السعودية في القطاع الأيسر، لتغيرت نتيجة المعركة كليًا... ولكن هذا لم يمنع من استحقاق سريتنا لقب «سرية النصر» على أثر معركة «بيرون إسحاق»... وبالمناسبة كانت المستعمرة خالية تمامًا من المدنيين، أي: أن حاميتها كانت مؤلفة جميعها من العسكريين... كانت فيها كتيبتا مشاة مزودتان بالأسلحة الأتوماتيكية، وتساندهما بطارية مدفعية ميدان، وكتيبة مدرعات، وفصيل هاون.

وفي الوقت الذي كنا نستعد فيه لمعاودة الهجوم على المستعمرة، صدر قرار مجلس الأمن بفرض الهدنة لفترة أربعة أسابيع... فتوقف القتال، نسبيًا، على جميع خطوط النار.

ـ أي كما توقع الملك عبد العزيز، يرحمه الله.

ـ بالضبط... وكن على ثقة أنه لولا تلك الهدنة التي كانت متوقعة ومرسومة سلفًا لتغير وجه التاريخ في المنطقة، ولما قامت لليهود دولة في فلسطين... لقد استغل الصهيونيون فرصة الهدنة ليحصلوا على السلاح الذي انهال عليهم من الدول الشيوعية، وخصوصًا تشيكوسلوفاكيا، على

الرغم من أن قرار مجلس الأمن قد حظر تصدير السلاح إلى المنطقة... ولكن هل ينتظر من اليهود أن يحترموا قرار مجلس الأمن، أو غيره؟... لقد قتلوا الوسيط الدولي، برنادوت، الذي أرسلته الأمم المتحدة لدراسة المشكلة على الطبيعة، واقتراح الحلول المناسبة... وحين شعر اليهود بأن برنادوت قد وضع مقترحات لم تعجبهم، ولم تنصف العرب طبعًا، قتلوه، وأنكروا معرفتهم بقاتله... مع أن القتلة معروفون لدى القاصي والداني.

ـ هل تغيرت الأوضاع بعد المعركة الأولى؟

ـ بوجه عام نعم... وهذا أمر تجده فيما كتب عن القضية الفلسطينية، وأنا إنما أروي لك ما لم تقرأه في كتاب، ولا دون فيما أعلم حتى الآن.

كانت القوات السعودية ترابط في مواقعها المحددة، وكانت الأوامر الصادرة إلينا هي إتمام ما كنا قد بدأناه قبل الهدنة... كانت مستعمرات العدو في النقب الجنوبي معزولة تمامًا... وكان العدو يحاول بشتى الطرق إمداد تلك المستعمرات بالمؤن... لقد خاضت السرية الثالثة من الفوج الأول معركة تسمى «معركة الحليفات»، وقد حقق جنودنا الهدف المنشود... وردوا هجمات العدو، وأكملوا محاصرة جميع المستعمرات الواقعة في قطاعهم، وأبدوا كفاءة في استخدام السلاح، بصورة قللت كثيرًا من خسائرنا، ونفذوا المهمة الموكلة إليهم.

وعلى الرغم من العون العسكري القوي الذي تلقاه العدو، فقد ظلت قواتنا السعودية تواجهه، وتنتصر عليه.

هناك، مثلًا، المعركة المسماة «معركة الدنقور»... والدنقور، هذه، مستعمرة يهودية قائمة جنوبي غزة على مسافة أربعين كيلومترًا منها، لقد قامت المصفحات السعودية بهجوم كاسح على هذه المستعمرة فور استئناف القتال، وأبدى العدو مقاومة عنيفة جدًا، ولكنه لم يلبث أن

هزم، بعد معركة استمرت بضع ساعات، واستولينا على المستعمرة بعد فرار من بقي حيًا من المدافعين عنها، وغنمنا كميات كبيرة من مدافع الهاون، والبنادق، والذخائر، أما خسائرنا ـ على الرغم من ضراوة المعركة ـ فكانت جريحًا واحدًا، والسبب هو كفاءة المقاتل السعودي، وحسن تدريبه، وإجادته لقواعد القتال.

ماذا أذكر لك أيضًا يا ولدي؟... هناك، مثلًا، مستعمرة «النجبة» التي دارت حولها سلسلة من المعارك التي شاركت فيها القوات السعودية، والمصرية، والسودانية... كانت «النجبة» حاضرة لست مستعمرات يهودية أخرى، فكان من الضروري تطهير المنطقة منها لتأمين الاتصال ما بين القوات العربية عبر طريق المجدل ـ الفالوجا.

لقد تمكنا من تطهير المنطقة من كل أثر للعدو، عدا مستعمرة النجبة هذه... وكانت قواتنا تتمركز في «كراتيا» و«دير سنيد» وهما مستعمرتان يهوديتان، كنا قد استولينا عليهما من قبل لحماية الطريق المؤدي إلى غزة، فشن العدو هجمات متلاحقة على «دير سنيد» بقصد إجلائنا عنها، ولكنه لم يتمكن إلى أن يئس من ذلك، وتوقف عن محاولة الاستيلاء على الموقع.

بعد ذلك أجرت القيادة العامة تنقلات في مواقع القوات السعودية، وكنت أنا بين الذين نقلوا إلى قطاع «كراتيا»، بينما نقلت قوات أخرى إلى قطاع المجدل... آه يا ولدي إن جسدي ليقشعر إذ أتذكر تلك الأيام، لا سيما ليلة معركة «كراتيا»، لقد كان احتلالنا لهذا القطاع معناه فصل المستعمرات الصهيونية الشمالية عن المستعمرات الجنوبية، وهذا، طبعًا، ليس في صالح العدو، ولذا فقد حشد لنا قوات ضخمة مدعومة بالمدرعات والمدفعية الثقيلة، وقام بهجوم عنيف صددناه بقوة... وارتد العدو ثم ما لبث أن كر علينا مرة ثانية فرددناه... وتكرر هجوم العدو وارتداده مرة ثالثة... ورابعة... وخامسة... وسادسة، ولكن جند هذا البلد ظل صامدًا في مثل صلابة الصخر.

ثم كانت تلك الليلة التي هاجمنا فيها العدو مستغلًا الظلام في محاولة للتسلل إلى مواقعنا... ولكن أنىٰ له ذلك ونحن له بالمرصاد؟.

يا لها من ليلة لا أنساها ما حييت...

لقد دار القتال في الظلام بعنف وضراوة أعجز عن وصفهما... والتحمت قواتنا بقوات العدو مرات عديدة في القتال وجهًا لوجه... وأخيرًا كلل الله تعالى جهادنا بالنصر، ورددنا العدو على أعقابه مهزومًا مدحورًا، بينما كان الصباح يرسل خيوط أنواره الأولى، ولم تكد المرئيات تتضح أمامنا حتى تبين لنا أية معركة هائلة خضناها.

والله يا ولدي لا أبالغ لو قلت لك أننا رأينا حطام أسلحة العدو وقتلاه يملؤون أرض المعركة على مدى البصر... دبابات محطمة... مصفحات ممزقة... قتلى... مدافع... بنادق... ذخائر... كلها تركها العدو، وولى هاربًا.

لقد تبيَّن لنا أن إحدى قنابل الهاون التي أطلقتها قواتنا سقطت داخل إحدى مصفحات العدو... مصادفة نادرة ولكنها وقعت... وبطبيعة الحال قتلت كل من كان في المصفحة، وانفجرت بما فيها من ذخائر.

إنني ما زلت أذكر ذلك اليوم جيدًا... كان أول شوال... أي أول أيام عيد الفطر... فكانت فرحة العيد مضاعفة في نفوسنا... فاحتفلنا به... واستولينا على ما تركه العدو المهاجم من كميات قليلة من المواد الغذائية، دلتنا على أن مستعمرة «النجبة» المحاصرة كانت في أسوأ حال من حيث قلة الطعام، والذخيرة.

وأخلد الخال علي إلى الصمت بعد أن وصل في حديثه إلى هذا الحد... وطال صمته، الأمر الذي دعا هشام إلى النظر إليه نظرة متسائلة، ولكن الخال ظل على صمته.

ولم يجد هشام بدًا من السؤال:

ـ ثم ماذا؟... هل هذا هو كل شيء؟.

ـ كل شيء؟... ماذا أقول لك يا بني؟... إنني لم أرو لك سوى سطور قلائل من سفر الملاحم البطولية الرائعة التي خاضتها القوات السعودية على أرض فلسطين، وحتى عندما اتخذ مجلس الأمن قراره بإعلان الهدنة إلى أجل غير مسمى، استطعنا أن نضيف إلى ذلك السفر صفحات أخرى من الأمجاد.

ذلك أن ما توصل إليه الوسيط الدولي الآخر «رالف بانش» من عقد اتفاقيات للهدنة، لم تشترك المملكة في محادثات أي منها، كان يستدعي إدخال تعديلات واسعة في مواقع القوات العربية في فلسطين، وهكذا أصدرت القيادة العامة أوامرها بسحب القوات من بعض المواقع إلى مواقع أخرى يمكن معها الدفاع عن الأراضي التي ظلت تحت السيطرة العربية، تجاه عدو اعتاد على الغدر والطعن في الظلام... وبالفعل... لم تكد القوات العربية تبدأ تحركاتها حتى استولى العدو على موقع رئيسي في منطقة «الحليفات» التي تسيطر على الطريق الرئيسية بين المجدل والفالوجا والمستعمرات اليهودية الشمالية والجنوبية، وكان هذا الموقع هو «تبة الخيش» الذي كانت استعادته ضرورية لسلامة القوات العربية.

ولما كانت القوات السعودية هي أقرب القوات العربية إلى ذلك الموقع، فقد كلفت بمهمة استعادة «تبة الخيش»، فقام الفوج الأول من القوات السعودية بالمهمة، واستطاع إجلاء العدو عن الموقع بعد معركة ضارية، وتمركز فيه إلى أن تم تطبيق خطة الانسحاب. كذلك أسندت للقوات السعودية، ومعها وحدات سودانية، مهمة حماية مؤخرة القوات المنسحبة من المجدل إلى غزة، وقد قامت قواتنا بعمليات إعاقة نموذجية، استعملت فيها مختلف أنواع الأسلحة الثقيلة والخفيفة.

ولقد تبين لنا فيما بعد، ومن خلال ما تجمع لدى القيادة السعودية من معلومات، أن التعليمات كانت قد صدرت لقوات العدو بتحاشي الصدام مع القوات السعودية، وعدم الاشتباك معها في أية معركة، فأنت تعلم ـ ولا شك ـ كم يخشى العدو على جنوده، ويحاول الحفاظ عليهم بشتى الطرق، وما طريقته في الغدر والمباغتة إلا بقصد التقليل من خسائره البشرية. . . إنني يا ولدي، أستطيع أن أقول لك، من واقع ما عشت من أحداث تلك الحرب، وما عاشه إخواننا العرب في مختلف الجبهات، أن العدو الصهيوني يتحاشى المواجهة، ويخشى المجابهة، وإنه لا يخوض حروبه إلا متسللًا، وغادرًا.

أجل يا ولدي، تنهَّد الخال وهو يصل في حديثه إلى هذا الحد، لقد عدنا من فلسطين وما هزمنا قط في معركة واجهنا العدو فيها، بل لطالما رفرفت رايتنا خفاقة في أعالي المستعمرات والمواقع العدوة التي استولينا عليها. . . عدنا بعد أن خلفنا نفرًا كريمًا من شهدائنا الأبطال الذين رووا أرض فلسطين بدمائهم الزكية، وأثبتوا أننا جديرون بالمسؤوليات الجسام التي ألقتها المقادير على عواتقنا، وإننا في مستوى شرف الانتماء إلى هذا البلد الطاهر، الذي نذر نفسه فداء للإسلام، وعلى كل أرض إسلامية.

١٠

أسند هشام رأسه إلى أعلى مقعده، وأرخى يديه على جانبيه، ومد ساقيه إلى الأمام، وراح في شبه إغفاءة، تدل على أنه قد وجد ـ أخيرًا ـ مجالًا لكي يختلي بنفسه، ويراجع أفكاره، ويعيد ترتيب خواطره، بينما كانت الطائرة النفاثة الضخمة تشق الأجواء على ارتفاع أربعين ألف قدم في طريقها من الرياض إلى جدة.

هذه أول مرة يجد نفسه وحيدًا، ويستطيع أن يفكِّر بهدوء، بعيدًا عن ضجيج زملائه، وأحاديثهم، ومرحهم، وبعيدًا ـ كذلك ـ عن التنقّل بين دوائر حكومية، حاملًا أوراقه هنا وهناك، ليستكمل الإجراءات كي ينتسب إلى الجيش، ويصبح في عداد منتسبي وزارة الدفاع والطيران.

الجيش؟ . . .

وزارة الدفاع والطيران؟ . . .

وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه حين وصل بأفكاره إلى هذا الحد. . . لقد عادت إلى ذهنه الضجة الهائلة التي أحدثها قراره بالانتساب للقوات المسلحة، مهندسًا، بين زملائه.

وازدادت ابتسامته اتساعًا وهو يتذكر ما حدث صباح اليوم.

كان نائمًا في سريره، مستغرقًا في سبات عميق، إثر ما بذل من مجهود في اليوم الفائت، واستيقظ على صوت ضجة زملائه المعتادة، حين اقتحموا عليه غرفة النوم وهم يقهقهون في مرح، وصاح به أحدهم:

ـ ما هذا؟ . . . تنام في وضح النهار؟ . . . ماذا أصابك يا هشام؟ . . .

فقال تركي على الفور:

ـ يا جماعة حرام عليكم. . . سيبوه. . . لعله وفق إلى العمل كعسة. . .

وارتفعت الضحكات مرة أخرى، والتف الزملاء حول هشام الذي نهض من سريره، واتجه إلى الحمام ليغسل وجهه، بينما استمر زملاؤه في لغطهم، ومرحهم.

قال عبد العزيز معلقًا على كلام تركي:

ـ عسة؟ . . . عسة مين يا عم. . . صاحبنا دخل وزارة الدفاع.

ـ صحيح؟ .

هتف الزملاء جميعًا بصوت واحد، بلهجة فيها من الدهشة، وعدم التصديق الشيء الكثير. . . وتدافع الزملاء نحو عبد العزيز، والتفوا حوله يريدون أن يفهموا منه الحقيقة.

وحك تركي رأسه حائرًا، وقال:

ـ إذا كانت الحكاية فيها وزارة الدفاع والطيران، فمعنى هذا أن أخانا هشام سوف يتدرب على إطلاق النار.

وقهقه الزملاء مرة أخرى من لهجة تركي الخاصة التي اعتاد أن يضحكهم بها دائمًا.

وخرج هشام من الحمام وهو يجفف وجهه ويديه بالمنشفة ويقول:

ـ إيش فيه؟. . . ليش الضجة والصخبة هاذي. . . غريبة يعني أنه الواحد يدخل وزارة الدفاع؟!

فقال صلاح:

ـ طبعًا ليست غريبة. . . بل بالعكس. . . هذا شرف عظيم. . . ولكن بالنسبة لك. . . لم تأت مرة واحدة على ذكر وزارة الدفاع هدفًا من أهدافك بعد التخرج. . . كنت تركز دائمًا على المعيدية. . . أو على العمل مهندسًا في مكة. . . فماذا جرى يا ترى حتى غيرت رأيك؟

ورد هشام باقتضاب:

ـ قناعة شخصية.

ـ مفهوم أنها قناعة شخصية. . . ولكن ما الذي غيرك؟. . هذا هو السؤال. . .

وعلَّق هشام المنشفة في مكانها، ثم جلس على كرسيه وهو يقول ببساطة:

ـ هذه قصة طويلة. . . ولكن المهم هو. . . ما رأيك في ذلك؟.

ـ رأيي؟. . . إنه اختيار موفق ولا شك. . . إن خدمة الوطن في أي

ميدان هي شرف للمواطن... فكيف إذا كان ميدانها هو القوات المسلحة بالذات؟! إن جميع فرص الحياة متاحة أمامك، في وزارة الدفاع، بشكل أفضل... التدريب... إمكانات العمل... البعثات... السكن... البدلات... الحق إنها فرصة ذهبية.

وكان تركي يتابع الحوار صامتًا، وهو يوجِّه نظرة إلى المتحدثين... تارة إلى صلاح... وتارة إلى هشام، وإذا به يتدخل قائلًا:

ـ يا جماعة... يا أخ صلاح... الدين النصيحة... لا تودوا الولد في داهية... ما لك ومال الدفاع يا هشام... دفاع؟.... دفاع ماذا يا هشام؟... قنابل... صواريخ... دبابات... طائرات... رادارات... معارك... إلى آخره... إلى آخره... إيش لك أنت يا هشام في هذا كله؟.. وما الذي ورطَّك؟

فضحك هشام ضحكة هادئة وقال:

ـ ورطني؟... بل قل بمن اصطبحت يوم قررت أن أتخذ هذا الاتجاه... إنني سعيد جدًا به... سعيد وشديد الارتياح.

فتأمله تركي غير مصدق، وقال له:

ـ هل تدري أنهم قد يعينونك في أقصى الشمال... أو في أقصى الجنوب، هل نسيت رغبتك في العمل بمكة، قرب الوالد... والبيت... والأهل؟!.

ـ صحيح إنني أتمنى لو أعيَّن في مكة... ولكن الجندية هي الجندية... وعلي أن أطيع الأوامر ولو قذفوا بي إلى الربع الخالي.

ووضع صلاح يده على كتف هشام بتأثر، وقال:

ـ أهنئك يا هشام... أنت اليوم إنسان جديد تمامًا... لم أكن أتصورك هكذا... لا تؤاخذني... ولكنني أقول الحق... لم أكن

أتصورك هكذا أبدًا... ألف مبروك... وأتمنى لك النجاح من كل قلبي.

وقضى الشباب الوقت بعد ذلك في استكمال إجراءات انفكاكهم عن الجامعة بصورة نهائية، وليس لهم من حديث سوى عن المستقبل... هذا يتمنى بعثة، والثاني يتمنى الالتحاق بالدفاع الجوي... والرابع عزم على الالتحاق بالقوات الجوية الملكية... والخامس ينوي فتح مكتب... وكان هشام أقلهم كلامًا، فهو قد اختار بعد أن توكل على الله، وهو مطمئن إلى حسن اختياره، وهو ـ فوق ذلك كله ـ قد قطع شوطًا بعيدًا على طريق الالتحاق بوزارة الدفاع والطيران... وتنهَّد بارتياح، وراح يصغي إلى أحاديث زملائه، وهم يودعون بعضهم بعضًا، ويتبادلون العناوين وأرقام التليفونات... ويتواعدون على استمرار اللقاء في كل مناسبة.

* * *

وصحا هشام من خواطره على صوت مضيف الطائرة، وهو يقول:

ـ أيها السادة... إننا نقترب من مطار جدة الدولي... وقد أضيئت إشارة ربط الأحزمة... نرجو ربط الأحزمة استعدادًا للهبوط.

وربط هشام حزامه، ورفع ستارة نافذة الطائرة، ليلقي نظرة على مدينة جدة، وقد تلألأت بالأنوار، والطائرة تهبط في سمائها شيئًا فشيئًا.

١١

وفي مكة كانت فرحة اللقاء الغامرة، بين هشام وأهله.

عندما وصل إلى المنزل، فتح الباب بمفتاحه الخاص فقد كان يريد أن يفاجئ أهله بقدومه... وكانت أمه أول من رآه... فجمدت برهة وهي تنظر إليه بذهول، ثم شع وجهها بفرح طاغ، وأطلقت زغرودة حارة

بينما كان هشام يندفع إليها ليعانقها، ويتبادل معها القبلات، وكانت الزغرودة كافية لكي تتفتح أبواب الغرف دفعة واحدة، ليخرج من أحدها أبوه، ومن الأخرى أخواته.

وهاج البيت وماج، فالكل يقبله ويعانقه، والكل ترتسم الفرحة التي لا توصف على وجهه، وقد اختلطت كلمات التهاني بكلمات الترحيب، وامتزجت الضحكات بالدموع.

وقال الأب بفخر وهو يشد ولده إلى صدره معانقًا:

ـ مرحبًا بك يا ولدي... مرحبًا بمهندسنا الكبير... والله يا ولدي ربنا ﷻ قد أكرمنا وفرَّحنا... ولكن كان عليك أن تخبرنا بقدومك لكي نعد لك حفلة تليق بك.

وقالت الأم والفرحة تلمع في عينيها:

ـ الناس كلهم في الحارة يبغوا يفرحوا بك... وكمان عمك وخالاتك... كل الناس بيسألوا عنك... والله يا ولدي فرحتنا كبيرة... الحمد لله الذي أكرمنا بنجاحك.

وأجاب هشام وقد اختنق صوته بالتأثر:

ـ الحمد لله... هذا كله ببركة دعائكم... الله يحفظكم جميعًا.

وتوجَّه الجميع إلى غرفة الجلوس، حيث راحوا يكررون ترحيبهم به، وتهانيهم بنجاحه.

وقال الوالد:

ـ بالمناسبة... خالك اتصل بنا أمس من الرياض... وأخبرنا بما تم معك... مبروك مرة أخرى يا بني...

وبدا على الأم وكأنها غير مقتنعة بما قاله الخال، إذ لزمت الصمت إثر عبارة الوالد، فلاحظ هشام ذلك فقال لها:

ـ هه... لم تقولي لي مبروك على العمل في وزارة الدفاع.

وردت الأم حائرة:

ـ والله ما أدري إيش أقول يا ولدي... مسألة وزارة الدفاع هاذي ماني فاهماها... أنا كنت عارفة أنك تبغي تشتغل هنا عندنا في مكة... وخالك يقول إنهم يمكن ينقلونك في أي مدينة تانية...

وضحك هشام وهو يجيب:

ـ الله أعلم فين ينقلوني... الواحد صار في الجيش... والجيش حاجة تانية... أوامر... وطاعة... ما في غير كده.

وتنهدت الأم وردت بسذاجة:

ـ برضه ما أنا فاهمة حاجة يا ولدي... بس خالك يقول إنهم راح يعملوك ظابط.

وصفقت أخته الكبيرة رجاء، وقالت بإعجاب:

ـ يا سلام... ظابط... يا ترى بكم نجمة؟

فقال هشام باسمًا:

ـ مبدئيًا... بنجمتين.

ووجهت رجاء حديثها إلى أمها:

ـ إيش تبغين أحسن من كده يا أمي؟... وتشوفي ابنك، اسم الله عليه، وهو حاطط على كل كتف نجمتين.

ولم يبد على الأم أنها قد اقتنعت بعد، فعادت تتنهد وهي تقول:

ـ كل اللي يقدره ربنا طيب.

ونهضت رجاء، وجذبت هشام من يده، وقالت له ضاحكة:

ـ داحين جاء دورنا... تعال معانا... عندنا حديث طويل معاك...

فقال لها أمها محتجة:

ـ لسه دوبنا شفناه... خليه معانا شوية.

فقالت رجاء وهي تجذب أخاها من يده بقوة أكثر:

لا . . . لا . . . يلّا . . . تعال معانا.

ونهض هشام وهو يقول ضاحكًا:

ـ أمري لله . . . عن إذنكم.

ودخل مع أخواته إلى الصالة الداخلية، فأحطن به وهن يرددن عبارات الترحيب والتهاني.

وقالت رجاء:

ـ والله رفعت راسنا يا شوشو . . . رفعت راسنا.

ـ قلت لك أكثر من مرة . . . لا تناديني شوشو وموشو.

ـ إيش تبغانا نناديك أجل؟

ـ نادوني باسمي . . . هشام . . . أو بالأصح . . . المهندس هشام.

ـ الله الله . . . ابتدينا نتكبر.

ـ أستغفر الله . . . هذا ليس كبرياء . . . إنه حق من حقوقي . . . وإذا كنتم تبغوا تدلعوني صحيح . . . لازم تنادولي باشمهندس.

ـ حاضر يا . . . باشمهندس.

وضحكت البنات. وشاركهن هشام الضحك.

وقالت له أخته الوسطى سناء:

ـ أين ستعمل يا . . . باشمهندس؟

ـ لا أدري بعد . . . إنني ما زلت في مرحلة إجراءات الالتحاق . . . ولكن مكان العمل ليس بيدي.

فعلقت رجاء:

ـ أينما عُيِّنت خير وبركة . . . والله لو خلقني الله شابًا لما عملت إلا في وزارة الدفاع.

ـ إيش السبب؟.

ـ كده... لأنني أشعر بالفخر كلما قرأت شيئًا عن قواتنا المسلحة... وأشعر بقلبي يتوثب بين ضلوعي كلما رأيت عنها أخبارًا، أو موضوعات في التلفزيون... شيء يهز النفس حتى الأعماق... ألف مبروك يا أخي.

ـ يعني... لو عينوني في شرورة، أو تبوك... أو بالظهران... ما تزعلي؟.

ـ ليش أزعل؟... كله وطننا... وكلها أرضنا.

ـ بس ما راح أقدر أشوفكم دايمًا.

ـ يا سيدي ربنا يصبرنا... إيش نسوي... المهم أنك تدور على مستقبلك، وتشوف شغلك.

وطال الحديث وتشعب، وراح هشام يجيب على أسئلة أخواته اللائي كن يصغين إليه بكل جوارحهن، إلى أن دخلت الأم وهي تقول ضاحكة:

ـ إيش هاذا... هو هشام لكم وحدكم وإلا إيه؟... يلّا يا ولدي... أنا حضرتلك حاجة تاكلها... ولو كنا عارفين إنك جاي الليلة كنا عملنا لك حاجة ثانية.

ـ تسلم إيديكي يا أمي.

ونهض هشام مغادرًا الغرفة ليتهيأ لتناول الطعام، وأومأت الأم إلى البنتين أن تخرجا بعد أن تبادلت نظرة خاصة مع رجاء، وما إن انفردتا حتى قالت الأم بلهفة واهتمام:

ـ هه... كلمتيه؟.

ـ لا والله...

وبدا الكدر على الأم، فسارعت رجاء إلى تبرير موقفها:

ـ إيش أسوي... البنات موجودين... وأنا كان قصدي لما سحبته من يده إني أجي هنا أنا وإياه وحدنا... لكن إنتي شفتي... البنات دخلوا معانا...

ـ خسارة...

ـ ولا يهمك يا أمي... أنا أكلمه.

ـ ضروري... لأنه داحين بعد ما أمَّن مستقبله... صار لازم يتزوج، ويعمل عيلة زي الناس.

ـ أنا أكلمه... ولا يهمك.

وخرجت الأم وابنتها، وهمست الأم وهي تتنهد:

ـ ربنا يقدم ما فيه الخير.

١٢

ولم ينم هشام تلك الليلة..

فبعد الطعام، عادت العائلة لتلتف من جديد حوله، الأب يكرر الحمد والشكر لله؛ إذ من على هشام بهذا التوفيق، والأم تؤمن على كلام زوجها بحرارة، والبنات يتحدثن بصوت واحد، يردن أن يعرفن كيف كانت حياة هشام في الجامعة؟ وكيف ستكون في وزارة الدفاع والطيران؟ وهشام يرد على هذه، ويجيب على سؤال لتلك، ولكنه كان يشعر في قرارة نفسه أنه مشتت الفكر، موزع القلب، فإذا كان قد اتكل على الله، واختار طريقه، وهيأ نفسه للقبول بأن يبدأ حياته في أي مكان من أرض الوطن، فإن هذه المشاعر الفياضة التي لمسها في أهله جميعًا، عادت توقظ في نفسه أمنيته القديمة في أن يعيش مع العائلة في مكة، وأن يستأنف في كنفها حياته الوادعة التي ألفها، وأحبها، وراح يتساءل في سره عما إذا كان من المحتمل أن يصدر أمر تعيينه في مكة؟... آه لو حدث هذا...

إذًا لشعر بأن حياته قد اكتملت، وأنه لم يعد ينقصه في دنياه شيء.

وانتبه من خواطره على صوت أخته رجاء وهي تسأله بلهجة هي بين الجد والمداعبة:

ـ أنت ما أنت حاسس يا خوي أنه حياتك صارت داحين ناقصها شيء؟.

ونظر إليها باستغراب، فهل نفذت إلى ما كان يدور في ذهنه، وعرفت أنه يفكر بما تقول تمامًا؟... وإن النقص الذي يشعر به هو أنه قد يضطر للابتعاد عن عائلته لمدة لا يدري مداها هذه المرة.

وقال لها ببساطة:

ـ أنا في الحقيقة لا ينقصني سوى أن أستأنف حياتي في مكة معكم... أجل... هذا هو الذي ينقصني.

وتساءلت رجاء بلهجة ذات معنى:

ـ بس؟.

فرد هشام حائرًا:

ـ ما أدري إيش تقصدي...

وكانت الأم تتابع حديث رجاء مع أخيها باهتمام شديد، وأبعد الأب مبسم الشيشة عن فمه مترقبًا الجواب، أما «البنات» فلم يبد لهن في السؤال شيء غريب.

وقالت رجاء باللهجة نفسها:

ـ يعني... ما تشوف أنه صار لازم نزوجك، ونفرح بك؟.

وهتف هشام بدهشة شديدة:

ـ تزوجوني؟... وتفرحوا بي؟

وضحك الجميع...

وقالت الأم بحرارة:

ـ إي والله يا ابني... غايتي ومنى عيني أني أشوفك كده متزوج، وأفرح بعيالك قبل ما أموت.

ـ بعيد الشر عنك يا أمي.

وعادت رجاء تتساءل بإصرار:

ـ هه... إيش قلت؟

وقلب هشام شفته، وهز رأسه في حيرة شديدة، فهذا الموضوع لم يخطر بباله بصورة جدية أبدًا:

ـ والله... ما أدري إيش أقول... على كل حال أنا من رأيي أنه الواحد ما لازم يتزوج قبل ما يؤمن مستقبله... ويوضع أساس لحياته.

وقالت الأم بسرعة:

ـ هو ده اللي بنقوله... أنت داحين ماشاء الله صرت مهندس قد الدنيا... وبكره تتعين في... هذي الوزارة اللي قلت عليها... يعني صار ما ينقصك غير عروسة حلوة.

وأضاف الأب:

ـ الحقيقة يا ابني أنا أهنيك على التفكير ده... ده يدل على أنك صرت رجل ناضج... وتقدر المسؤولية... أنا في رأيي أنه الواحد لازم يتزوج في وقت مبكر حتى يفرح بأولاده... ويشوفهم وهم بيكبروا قدام عينه... زيي أنا مثلًا... أنا ولله الحمد ربنا أكرمني أني أشوف ابني رجّال، وبناتي صبايا... ده سببه إني تزوجت في وقت مبكر.

واستلمت رجاء زمام الحديث:

ـ لك عندي عروسة إنما... إيش؟... روعة...

وقالت الأم بسرعة:

ـ أصل العروسة زميلتها... وتقرب لنا من بعيد... اسمها فاطمة.

وارتفعت أصوات التأييد من البنات بصورة أدهشت هشام، فراح يجيل بصره في أبيه، وأمه، وأخواته، وقد ارتسم على وجهه تساؤل واضح:

ـ فهموني إيش الحكاية... كأنكم مدبرين المسألة... وطابخينها.

ـ طابخينها ومهيئينها كمان... وما ناقص إلا إنك تقول أيوه.

قالت رجاء ذلك، وهي تنظر إلى أخيها باسمة.

وقال الأب:

ـ هيه... إيش قلت... أنا من جهتي موافق... المهم إنك توافق أنت.

وأطرق هشام مفكرًا.

إن ما يسمعه شيء جديد عليه، ولم يسبق للعائلة قط أن تحدثت في هذا الموضوع، وإذا بها الآن ـ أبًا وأمًا وأخوات ـ تطرحه بصراحة وبساطة مترقبة جوابه.

وقالت الأم وكأنها تستحثه على الجواب:

ـ إيش قلت يا ولدي الله يهديك؟

ورفع هشام رأسه وقال ببطء:

ـ الحق أنني فوجئت تمامًا... والله فوجئت... لم يخطر هذا ببالي... كنت مستغرقًا في الدراسة استغراقًا كليًا... وكنت أبعد عن ذهني أي خاطر غير النجاح والحصول على الشهادة.

وصمت هشام، وظلت العيون معلقة على شفتيه بانتظار ما سيقوله بعد ذلك، ولكنه لم يقل شيئًا.

ولعله حسب أنه قد قدّم الإيضاح الكافي، وعرض وجهة نظره بصورة لا تحتاج إلى بيان.

ـ هه... وبعدين؟.

تساءلت رجاء، وقد بدا شيء من القلق يتسلل إلى قلبها.

ـ أبدًا. . . بس. . .

وضربت الأم صدرها بحركة عفوية، وقالت بدهشة:

ـ إيش يعني يا بني. . . ما تبغي تتزوج؟.

ـ لسه بدري على الزواج يا أمي.

وساد الصمت الغرفة، فإن اللهجة الحاسمة التي تكلَّم هشام بها، لم تترك مجالًا لأي تعليق، واتجهت الأنظار إلى رب الأسرة، وكأنها تنتظر كلمته.

وتكلَّم الأب بتؤدة:

ـ والله يا ابني. . . أنا طول عمري كنت أقول أن زمننا غير زمنكم. . . وكنت معاهدًا منذ السنوات الأولى من زواجي على أن أترك لأولادي حرية اتخاذ قراراتهم ضمن حدود ما أراه في مصلحتهم. . . فأنا وافقتك دون تردد حين اخترت دراسة الهندسة. . . وقبل أيام عندما فاتحني خالك في أمر التحاقك بوزارة الدفاع قلت له: إن الأمر متروك لك، فإذا وافقت فلا مانع عندي. . . والآن أجدني أمام موقف مماثل. . . عليك، أنت، أن تتخذ فيه قرارًا. . . وهو على أية حال قرارك. . . فإذا رغبت في الزواج فإنني سأقدم لك كل عون ممكن. . . وإذا كان لك رأي آخر. . . فأنت حر.

وعاد الصمت يسيطر على الغرفة بعد أن أنهى الأب كلماته، حتى رجاء التي كانت شديدة الحماسة لمشروع الزواج، وعرضته على أخيها بلهجة تساوي فيها الجد والمزاح، شعرت أن المسألة جدية أكثر مما كانت تتصور، وأنها تحتاج إلى بحث وتفكير، مع أنها لم تكن تتوقع إطلاقًا أن يتردد أخوها لحظة واحدة في الموافقة، لا سيما وأنها تثق بأنها قد أحسنت الاختيار حين رشحت صديقتها «فاطمة» لتكون زوجة لهشام، وفاتحت أبويها في ذلك.

وحمدت رجاء ربها في سرها على أنها لم تسر في الموضوع خطوات فعلية، وإن حديثها مع «فاطمة» حوله كان ـ كحديثها الآن مع هشام ـ أقرب إلى المداعبة منه إلى الجدية، وإن عليها ـ ومعها أمها ـ معالجة الموضوع بأسلوب آخر.

وقالت الأم لهشام بلهفة:

ـ ما تتكلم يا ابني.؟! الله يهديك...

ولم يجد هشام ما يجيب به، فاكتفى بأن قال لأمه بهدوء:

ـ ما زلت أقول، يا أماه، أنه لسّه بدري عليّ.

وتبادلت الأم والأخت الكبيرة نظرة، فهمت الاثنتان معناها على الفور، وهو أن عليهما أن تعالجا هذا الموضوع بأسلوب آخر.

وعاد للسهرة مرحها وجوها الأليف، واستأنف الجميع أحاديثهم وقد عزموا ـ كما قالوا ـ على إحياء السهرة حتى الفجر، حيث أبدى هشام رغبته بأداء الصلاة في رحاب الحرم المكي الشريف.

١٣

وفي رحاب بيت الله العتيق، طاف هشام وصلَّى، ثم انتحى ركنًا من الحرم الشريف، أخذ يستعيد فيه ذكرياته في المدينة الطاهرة، وفي مسجدها الحرام، إذ كان يجد في أروقة المسجد ملاذًا يفيء إليه وهو يستذكر دروسه، لقد قطع المسافات في أروقة المسجد مئات المرات، وهو يستعد لامتحان الشهادة الثانوية، مؤديًا الصلاة هنا وهناك من صحن المسجد، طائفًا بالبيت، مقبلًا الحجر الأسعد، متوجهًا ـ من ثم ـ إلى الامتحان، مطمئن النفس، منشرح الصدر، مستبشرًا بتوفيق الله الذي ما خذله، ولا خيَّب له أملًا.

وأحس، مرة أخرى، كم يكون سعيدًا لو أتيح المجال للعمل في مكة، والعودة إلى مرابع صباه، ومراتع ذكريات فتوته، والحياة مع أبيه وأمه وأخواته، ولكنه عاد فتشدد، وحدث نفسه بأنه لا يجوز له أن يبدأ معركة الحياة الحقيقية بأمنية قد تتحقق وقد لا تتحقق، وأن عليه أن يواجه الحياة بقوة وصلابة، وأن يختار قراره بإرادة، وعزيمة.

وقضى هشام نهاره في استخراج الأوراق الرسمية التي طلبت منه، لاستكمال إجراءات تعيينه في القوات المسلحة، وعاد إلى البيت ليجد خاله هناك.

ولم يكد الخال يراه حتى أقبل عليه معانقًا، وهو يقول:

ـ مبروك يا بني... لقد انتهى كل شيء على خير ما يرام.

ونظر هشام إلى خاله متسائلًا، فأردف هذا قائلًا بابتسامة عريضة:

ـ لقد نجحت في الكشف الطبي... هذه كانت أصعب عقدة كنت أتخوف منها... ولكن... الحمد لله... أبلغني المهندس عبد الرحمن أن النتيجة جاءت في صالحك، وأن إجراءات تعيينك لن تستغرق وقتًا طويلًا، وأن عليك استكمال أوراقك في مكة، والعودة سريعًا إلى الرياض.

وأصغى هشام إلى خاله والفرح يعتمل في نفسه، إذًا فهو صالح للخدمة في القوات المسلحة، وأن بينه وبين ذلك مسافة غير طويلة.

واستفاض الخال في الحديث، وهو يحاول إعطاء هشام أكبر قدر ممكن من المعلومات عما ينتظره في الأيام القليلة المقبلة... قال له: إنه سيعين برتبة ملازم أول في سلاح المهندسين، وإنه سيلتحق بدورة تدريبية في كلية الملك عبد العزيز الحربية، لإعداده للحياة العسكرية، وتأهيله للخدمة في القوات المسلحة، وختم الخال حديثه قائلًا:

ـ من حسن حظك يا ولدي أن موعد بدء الدورة التدريبية قريب

جدًا... فهي دورة خاصة بالمدنيين المتخصصين من حملة المؤهلات العالية كالأطباء، والمهندسين، والحقوقيين، إلى غير ذلك من التخصصات التي تحتاج إليها القوات المسلحة... إنهم يحددون موعدها كلما تجمع لديهم عدد كاف من هؤلاء المتخصصين؛ ليصار إلى تدريبهم، وتأهيلهم للحياة العسكرية، وتوزيعهم من ثم على الوحدات حسب تخصصاتهم.

وتساءلت الأم بسذاجة وهي تستمع إلى كلام أخيها:

ـ يعني إيش راح يسوي في هاذي الدورة اللي تقول عنها؟

فقهقه الخال، وهو يجيب:

ـ يصير رجل عسكري... يتعلَّم كيف يمشي مشية عسكرية... كيف يؤدي التحية... يتعلَّم أنظمة الجيش... يتعلَّم على استعمال الأسلحة... وضرب النار.

وشهقت الأم، وهي تقول:

ـ وضرب النار؟.

وعاد الخال يضحك وهو يجيبها:

ـ أجل كيف يصير عسكري إذا ما تعلَّم الحاجات هذه؟.

وقالت الأم وهي تشعر بأنها لا تفهم كل ما تسمع:

ـ عسكري؟... ما قلتوا إنه راح يصير ظابط.

ـ إيوه يا ستي... ضابط... بس عسكري دي بيقولوها على كل اللي بيشتغلوا بالجيش والقوات المسلحة التانية... فهمتي.

وتمتمت المرأة:

ـ والله ما أنا فاهمة حاجة... بس بادعي ربنا أنه يوفقه... ويأخذ بيده ويهديه... ويجعل بنت الحلال اللي تريحه من نصيبه.

١٤

وقف هشام في الصف مع زملائه في الدورة ليستلم المهمات التي سيحتاجها خلال الدورة التدريبية في كلية الملك عبد العزيز الحربية.

وراح الجندي المكلف بتسليم العهدة، يكدِّس أمام هشام عهدته: بطانيات... خوذ... قبعة ميدان... بيريهات... خوذة ميدان... جعب... بسطار... ملابس رياضية... ملابس داخلية... بيجامات... أوفرهول.

وحمل هشام عهدته، وتوجَّه بها إلى العنبر، وهو لا يكاد يرى طريقه إلا بصعوبة، لضخامة الحمل الذي يحمله.

أجل... لقد بدأ هشام حياته العسكرية... استكمل إجراءات التعيين... والتحق بهذه الدورة التدريبية التي سوف تستمر أربعة أشهر، يتم خلالها إعداده للحياة العسكرية، وبذلك يستقبل حياة جديدة كل الجدة، وتختلف تمامًا عن حياته السابقة.

كان هشام بالأمس عند المهندس عبد الرحمن؛ الذي أبلغه بالجهة التي سيلتحق بها بعد تخرجه من الدورة:

ـ حائل.

هكذا قال له المهندس عبد الرحمن ببساطة تتفق مع السنوات الطويلة التي قضاها في الخدمة، فهو كعسكري لم يكن يشعر بأن أية بقعة من أرض الوطن تختلف في شيء عن أية بقعة أخرى.

ولاحظ المهندس عبد الرحمن أن هشام قد أجفل عندما سمع اسم المكان الذي سيعمل فيه، فابتسم قائلًا:

ـ ماذا بك؟... ألم يعجبك المكان؟!

وحار هشام كيف يجيب، ثم تمتم بصوت خافت:

ـ حائل؟... أعتقد أنها بعيدة.

ـ بعيدة عن ماذا؟.

ـ عن الرياض... عن مكة... عن...

ـ اسمع يا هشام... نحن العسكريون ليس عندنا قريب وبعيد... كل الأماكن سواسية لدينا... ولكل بقعة من أرض الوطن قوة مسلحة تحميها، وتذود عنها... برًا أو بحرًا أو جوًا.

ـ هذا ما أقوله أنا... بل لقد قلته لأهلي عندما تساءلوا عما إذا كان هناك احتمال بأن أعمل في مكة.

ـ لم بدت عليك الدهشة إذًا؟.

ـ لقد فوجئت... هذا كل شيء... ولكنني الآن... فقد عرفت أخيرًا في أي مكان سوف تكون خدمتي.

ـ قل لي... هل لديك فكرة عن حائل؟.

ـ ليس أكثر من معلومات بسيطة.

ـ ستعرفها جيدًا إذًا فيما بعد... اسمع... أستطيع أن أزودك الآن بمعلومات أولية إذا شئت... إنها تبعد عن الرياض حوالي ثمانمئة وسبعين كيلومترًا... وتقع وسط منطقة زراعية خصبة في سهل منبسط... تسقط فيها الأمطار بكثرة في الشتاء، وتحيط بها هضاب قليلة الارتفاع من الجهة الشمالية كما تحيط بها الأشجار والنخيل من كل جانب... ماذا تريد أن تعرف أيضًا؟... آه... جوها معتدل في الصيف، أي: أنك لن تحتاج إلى مكيف، وتشتهر بالزراعة، وتربية الماشية، ولذا فاللحوم، والخضار رخيصة جدًا فيها... وهناك برك وآثار من أيام السيدة زبيدة زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد... وفيها أيضًا آثار قديمة أخرى... ماذا تريد أن تعرف أيضًا.

ووجد هشام نفسه يجيب المهندس عبد الرحمن باسمًا:

ـ سوف أستكمل باقي المعلومات بنفسي عندما أذهب إليها.

وتوقفت أفكاره عند هذا الحد، فقد وصل إلى العنبر، وراح يرتب العهدة التي صرفت له في الدولاب الذي خصص له.

ولاحظ هشام أن الصمت يخيم على المكان، فكل من زملائه منشغل بنفسه، يرتب عهدته، ويبدأ في ارتداء «الأوفرهول» و«البسطار» وقد ارتسم الجد على وجوههم، ومع أن بعضهم كانوا أصدقاء وزملاء دراسة، إلا أن أحدًا ما لم يخاطب زميله، وإنما انشغلوا جميعًا في الاستعداد للسير شوطًا آخر على طريق الحياة العسكرية.

١٥

اصطف الطلبة في إحدى ساحات الكلية، وكان الارتباك يبدو في كل حركة من حركاتهم، فبعضهم يدير عنقه في ضيق، وآخرون يحاولون ضبط وقفتهم وهم يرتدون «البسطار» الثقيل، وبعضهم قد ثنى أكمام الأفرهول لأنها أطول من يديه، ولكن أيًا منهم لم يحاول أن يرى حال زميله؛ لأن همومه الخاصة كانت تكفيه.

وشد الشباب قاماتهم، ووقفوا في حالة «تأهب» حين سمعوا إيعازًا بذلك من الرقيب الذي توجَّه نحوهم في الساحة، وهو يمشي بخطوات عسكرية واسعة.

ودبت الرهبة في قلوب الشباب، فهذا الرقيب هو الذي سوف يدربهم على ما يسمى «تدريب المشاة»، ومع أنهم يعدون ضباطًا، فإنهم كانوا ملزمين بطاعته، وتنفيذ تعليماته.

ووقف الرقيب أمام الطلبة، وأدى التحية، ثم راح يجيل بصره فيهم واحدًا واحدًا، في الوقت الذي أخذوا فيه، هم، يتأملونه بدقة، ويستعرضون قامته العسكرية المنتصبة.

ـ هذا رجل عسكري من قمة رأسه إلى أخمص قدميه... إنه نموذج فريد للجندي المحترف.

هكذا حدَّث هشام نفسه وهو يتأمل الرقيب «حميدان» الذي كان متقدمًا في السن بعض الشيء، وقد عني بشاربيه ولحيته عناية واضحة، وأطلت عيناه الحادتان كعيني الصقر تتأملان الشباب واحدًا واحدًا، وتستعرضانهم، وقد ران على المكان صمت تام.

وكان الرقيب «حميدان» يفكِّر هو الآخر.

ـ هذه دورة جديدة من الشباب ذوي المؤهلات العالية، وعليّ أن أدربهم على تدريب المشاة؛ لأجعل منهم رجالًا عسكريين... إنهم بعد انتهاء الدورة سوف يحملون رتبة الضباط، لأستقبل سواهم وأدربهم.. إيه... كم مرّ على يدي من أمثال هؤلاء ممن يحملون اليوم في القوات المسلحة رتبًا عالية.

وتعلَّقت أبصار الشباب بالرجل العسكري الصارم، تريد أن تعرف الخطوة التالية... هل يبدأ التدريب في الحال؟... أم يلقي فيهم كلمة؟... هل سيأخذهم بالرفق واللين أم سيقسو عليهم؟.

صحيح أنهم ضباط، ولكنهم الآن ليسوا سوى جنود مستجدين.

وتنحنح الرقيب «حميدان»، ووضع يديه خلف ظهره، وراح يتمشى جيئة وذهابًا وهو يتكلم:

ـ اسمعوني جيدًا... أنتم الآن جنود مستجدون... وستظلون كذلك لمدة أربعة أسابيع، أعلِّمكم خلالها تدريب المشاة... ولكنكم في الحقيقة ضبَّاط... ومتعلِّمون تعليمًا عاليًا... يعني كل واحد فيكم عنده شهادة طولها من طوله فلا تحرجوني... لأنني أتوقع منكم أن تتجاوبوا معي، وتستوعبوا التدريبات بسرعة... وأود أن أقول لكم منذ الآن أنه لا شيء في العسكرية دون سبب... كل شيء... كل حركة... كل خطوة... لها سبب، ولها أصول وقواعد ودونها لا يمكن أن تصبحوا عسكريين... إنها أربعة أشهر ليس غير، تقضونها في كلية الملك

عبد العزيز الحربية، لتتعلَّموا أصول الجندية، ومبادئها، وأنظمتها، ولتلتحقوا بعد ذلك بوحداتكم، وليس بينكم وبين زملائكم الذين سبقوكم أي فارق.

وتمهَّل الرقيب حميدان، واكتست نبراته شيئًا من الحدة والصلابة وهو يختتم كلمته؛ التي اعتاد أن يكررها على مسامعه أفراد كل دورة جديدة بالكلمة والحرف:

ـ إنني أتمنى عليكم أن تكونوا عند حسن الظن بكم... وأن تستوعبوا ما سوف تتلقونه بعناية واهتمام؛ لأنه لا مجال في الحياة العسكرية لأي إهمال، وللإهمال عقوبات كثيرة... أرجو لكم ألّا تجربوها.

وهكذا بدأ هشام وزملاؤه حياتهم العسكرية، والتقوا وجهًا لوجه مع نموذج فذ للجندي المحترف، وكان لهم من مستواهم الثقافي المتقدم ما جعلهم يتحاشون الوقوع في الأخطاء، كما كانوا يستوعبون تدريباتهم ودروسهم بسرعة.

وشيئًا فشيئًا، كانت النفوس التي اعتادت على دعة العيش واللامبالاة، تكتسب رجولة فوق رجولتها، وصلابة فوق صلابتها، وصار للمسؤولية والنظام معناهما الدقيق؛ الذي لا مجال للخطأ فيه.

ومضت الأيام، والأسابيع، والشباب يكتسبون كل يوم أشياء جديدة، تقربهم من الجو العسكري البحت أكثر فأكثر.

لقد قسَّم الشباب كل عشرة في «حظيرة»، وبدؤوا يعتادون على الطراز الخاص للحياة العسكرية، ويتعلمون أشياء وأشياء.

تعلَّموا «تدريب المشاة»... السير... والتوقف... والتحية... والاستدارة... تعرَّفوا على جميع أنواع الأسلحة المتوسطة والخفيفة... مدافع... رشاشات... بنادق... مسدسات... وأتقنوا الرماية

بها. . . وتعلَّموا تفكيك الأسلحة الخفيفة وتركيبها وهم مغمضو الأعين.

تعلَّموا قواعد الإشارة. . . وعبارات المخاطبة. . . والرموز اللاسلكية.

تعلَّموا الطبوغرافيا. . . ومبادئ الاستخبارات والأمن. . . والثقافة الإسلامية، والنظم العسكرية.

وهكذا مضت أشهر الدورة الأربعة، وقد تحوّل الشباب من حال إلى حال: ثقافيًا، وجسديًا، وفكريًا. . . فلقد أصبحوا عسكريين بكل معنى الكلمة، وأصبحوا ـ من ثم ـ قادرين على الانسجام مع الحياة في وحداتهم.

والحق أن هذه الفترة قد حفرت في ذاكراتهم واحدة من أجمل فترات حياتهم، إذ كانوا يعيشون أسرة واحدة. . . ينامون معًا في وقت واحد. . . ويستيقظون معًا في وقت واحد. . . ويؤدون الصلاة جماعة في وقت واحد. . . ويدرسون معًا. . . ويأكلون معاً. . . وكانوا يقيمون حفلات للسمر، يشاركهم فيها بعض ضباط الكلية من الإداريين والمدرِّسين، حتى ألفوا الكلية وجوهًا، وتمنوا لو أن فترة بقائهم فيها تطول أكثر مما هو مقرر لها.

ولكن الدورة انتهت أو كادت، وبدؤوا الاستعدادات لحفل التخرُّج.

وجاءهم الرقيب حميدان في إحدى الليالي يخبرهم أن حفل التخرُّج سوف يكون برعاية سمو وزير الدفاع والطيران والمفتش العام.

قال لهم:

ـ لقد أبى سموه، على الرغم من مشاغله إلا أن يرعى حفل تخرجكم المقرر، تكريمًا منه لكم وأنتم من نخبة المتعلِّمين في البلاد.

وفرح الشباب بهذه اللفتة من سمو الوزير، وراحوا يوصون بعضهم

بأن يكونوا في مستوى الثقة بهم... ثم دعوا الرقيب حميدان إلى كوب من الشاهي بعد أن فرغوا من واجباتهم، وتهيؤوا للسهر والسمر.

وقبل الرقيب حميدان الدعوة شاكرًا، وجلس وسط الشباب يتبسط معهم في الحديث، وفجأة قال له هشام:

ـ ألا قل لي... منذ متى وأنت في الجيش؟.

فلوح الرقيب بيده وهو يقول:

ـ منذ أن وعيت على الدنيا تقريبًا.

وسأله طالب آخر بتشوف:

ـ تعني أنك قضيت حياتك كلها في العسكرية؟

ـ أجل... كلها... لقد التحقت بالجيش وأنا صغير السن... وحاربت في فلسطين مع المتطوعين السعوديين و...

وهنا قاطعه هشام باهتمام:

ـ حاربت في فلسطين؟

ـ نعم... في فوج المتطوعين السعوديين... كان ذلك في حرب فلسطين الأولى.

ـ وهل خضت كثيرًا من المعارك؟

ـ طبعًا.

ـ هلّا حدثتنا عن شيء من ذكرياتك هذه.

ـ هذا حديث يطول.

ـ ليكن... ليس وراءنا شيء.

ـ على رسلكم إذًا.

ورفع الرقيب حميدان رأسه ينظر إلى لا شيء، وكأنه يستقرئ ذكرياته العزيزة التي لا ينساها... هناك على أرض فلسطين.

وقال له هشام يستحثه على الكلام:

ـ هه. . . إننا نصغي.

وتحدث الرقيب حميدان:

١٦

عندما تأزمت الأحوال في فلسطين، وانتشرت الاضطرابات مع قرب موعد خروج الإنجليز منها، ونشاط العرب واليهود، كلاهما، في شن الهجمات على بعضهم، أمر جلالة الملك عبد العزيز، يرحمه الله، بفتح باب التطوع في الجهاد لمن يشاء من السعوديين، بما في ذلك رجال القوات المسلحة.

وكنت أنا ضمن الذين التحقوا بقوات المجاهدين السعوديين؛ الذين قاتلوا في عشرات المعارك مع إخوانهم من أبناء البلاد العربية والإسلامية الأخرى.

لقد ألحقوني بالسرية الأولى، بقيادة سعدون حسين، وكان مركز هذه السرية في «باب الواد» بالقدس، ولست أدري ما إذا كان بينكم من قرأ عن معارك باب الواد تلك الأيام. . . كانت معارك طاحنة بكل ما في الكلمة من معنى، استمرت ثلاثة أشهر. . . ثم جاءتنا الأوامر بالانتقال إلى «جنين» حيث بقينا فيها شهرين نقاتل اليهود، ثم نقلونا إلى سورية عن طريق عمان، وهناك استقبلنا أحسن استقبال، وأمضينا أربعة أيام في «كامب القابون»، وجاءنا السفير السعودي ابن زيد، وأقام لنا حفلة تكريم، ثم جاءنا الأمر بالتوجُّه إلى حدود فلسطين عن طريق لبنان، والهجوم على قرية «صالحة» التي كان اليهود قد احتلوها، فاستعدناها منهم، وتركنا بعض زملائنا لحمايتها، وتقدمنا نحو «الناصرة» واشتبكنا هناك مع اليهود، وبقينا نقاتل ما بين «الناصرة» و«النقب» جنوب بحيرة طبريا فترة ثلاثة أشهر، ثم انتقلنا إلى «المنارة» و«نجمة الصبح» واشتركنا في معاركهما،

وبقينا هناك شهرين، والواقع أننا لم نتوقف عن القتال، وبينما نحن فيها جاءنا شخص من طرف الوسيط الدولي، وطلب منا الانسحاب قائلًا: «إنكم خرقتم الهدنة»... ورفضنا الانسحاب، وظللنا في مواقعنا إلى أن جاءتنا الأوامر من قيادة الجامعة العربية في سورية بالانسحاب، فانسحبنا، وعدنا إلى «كامب القابون» في سورية، وبقينا هناك شهرين.

لقد اشترك المجاهدون السعوديون في معظم المعارك التي دارت في مختلف أنحاء فلسطين، منها على ما أذكر: معركة البروة، معركة النقب، معركة الزراعة، معركة زرعين، معركة السيروان، معركة الشيخ جراح، معركة يافا، معركة باب الواد، معركة رأس العين، معركة اللد، معركة كفر عنه، معركة الرملة، معركة تل الريش، معركة حيفا، معركة القدس، معركة عكا معركة علبون، معركة الحدبا، معركة صفد، معركة المالكية.

وبعد الهدنة الثانية، وما آلت إليه الأمور على النحو الذي تعرفونه، عدنا إلى بلادنا، حيث أمر جلالة الملك بتقرير معاشات تقاعدية لأهالي الشهداء، ولمن أصيب منهم إصابات تمنعه من كسب عيشه...».

وصمت الرقيب حميدان، وقد بدا عليه أن ذكريات تلك الأيام أثارت في نفسه شيئًا من الشجن.

وكان الشباب يرقبونه صامتين منتظرين أن يستأنف حديثه، ولكنه ظل صامتاً، وهو يحتسي الشاهي، وكأنه قد انشغل عما حوله في عالم آخر من الأفكار.

وقطع هشام حبل الصمت قائلًا للرقيب حميدان، وهو يبتسم:

ـ هكذا؟... توجز لنا جهاد أشهر طوال في بضع جمل، ثم تصمت؟... إنك لم تحدثنا بالتفاصيل... ولا يكفي أن تقول بقينا شهرين أو بقينا ثلاثة أشهر ونحن نقاتل دون أن تروي لنا، ولو قصة معركة واحدة على الأقل.

وابتسم الرجل الذي قلما يبتسم، وقال لهشام:

ـ يا حضرة الملازم أول مهندس، لو بدأت في رواية التفاصيل لما انتهيت في ساعات... وأنا لا أستطيع أن أفعل ذلك... فأشغلكم عن واجباتكم.

واشترك الشباب جميعهم في توجيه الرجاء إلى الرقيب حميدان كي يتحدث، فما زال الوقت أمامهم فسيحًا، وليس أمامهم شيء يذكر بعد أن أوشكوا على التخرج... وعاد الرجل الذي قلما يبتسم، يهش في وجوه أولئك الشباب الذين سيطرت عليهم الحماسة، وقال لهم وهو يتنهد:

ـ سأروي لكم قصة معركة... معركة واحدة ليس غير.

فقال هشام على الفور:

ـ ما يخالف... أحسن من بلاش.

وعاد الرقيب حميدان يتذكر:

ـ الحق أنني حائر... أية معركة أتحدث عنها، وأية معركة أدعها... فتلك المعارك التي خضناها لها في نفسي ذكريات لا تنسى... إقدام يفوق حد الوصف من قبل المجاهدين العرب، على قلة إمكاناتهم، وضآلة ما لديهم من سلاح وذخيرة... وهزائم نلحقها بالعدو الذي كان الإنجليز جاهزين دائمًا وأبدًا لنصرته وإنجاده كلما ساء موقفه، وما أكثر ما كان يسوء، والحجة في ذلك ـ أيضًا ـ جاهزة... فالانتداب الإنجليزي لم ينته بعد، والقوات الإنجليزية ما زالت مسؤولة عن حفظ الأمن... أما إذا كان اليهود هم الذين بدؤوا الهجوم، فاستطاعوا تحقيق شيء من خططهم العدوانية، فالإنجليز يتحولون، إذ ذاك، إلى صم وبكم وعمي، لا يسمعون، ولا يتكلمون، ولا يرون.

إنني أتذكر الآن المعركة التي نسميها معركة الشجرة.

وكان ذلك في الجبهة الشمالية الفلسطينية، حيث كانت للمجاهدين السعوديين صولات، وجولات.

في جنوبي بحيرة طبريا دارت تلك المعركة الضارية التي اشترك فيها «الفوج السعودي» كله، وأسفرت عن انتصارنا، واستيلائنا على أحد مراكز العدو المهمة، ولكن الصليب الأحمر الدولي تدخل في الأمر، إلا أننا لم نهتم لتدخله في بادئ الأمر، بل صببنا نيراننا بعنف وغزارة على مواقع العدو؛ إلى أن أبدنا الحامية اليهودية بأكملها تقريبًا، وعاد الصليب الأحمر الدولي يتدخل مرة أخرى، وحجته في ذلك أن الهدنة الأولى قد أعلنت، وإن علينا أن نوقف عملياتنا الحربية.

ماذا أروي لكم أيضًا؟... قصة معركة «البصة»؟... لقد طردنا العدو من هذا الموقع، واستولينا على إحدى عشرة مدرعة من مدرعاته... وقتلنا اثنين وتسعين فردًا من العدو، أما شهداؤنا ـ عليهم رحمة الله ـ فكانوا خمسة وعشرين من السعوديين إلى جانب تسعة جرحى.

أأحدثكم عن معركة «صحنين»؟... لقد جابهنا فيها خمسمئة من جنود العدو، هاجمونا ساعات كاملة في وضح النهار... لقد اضطررنا، في البداية إلى التراجع عن الخط الأمامي بسبب عنف الهجوم، ولكننا لم نلبث أن قمنا بهجوم مضاد ساندتنا فيه مدفعيتنا الثقيلة، وتحقق لنا، بعون الله، النصر، وأجبرنا العدو على الانسحاب تاركًا وراءه أشلاء جنوده ومعداته، وكميات كبيرة من الذخائر، والأسلحة.

وأدار الرقيب حميدان عينيه في سامعيه المشدودين إلى كلماته، ثم ختم كلامه قائلًا ببطء:

ـ أصغوا إلي واذكروني بهذه الكلمات... إن كل ما يدعيه العدو عن قوته الخارقة، هذه الأيام، وعن شجاعة جنوده وصلابتهم، ما هي

إلا أكاذيب. . . إن مجابهتهم لا تتطلب أكثر من الثبات والصمود، وبعدها ترون روحه قد انهارت، وخطوط هجومه قد تشتتت، فهو ما اعتاد أن يقاتل إلا غدرًا، وتسللًا، وطعنًا في الظلام، أما حين يكون القتال وجهًا لوجه، فالغلبة ـ عندها ـ للصابرين الصامدين المؤمنين، ونحن ـ بإذن الله ـ الصابرون، ونحن الصامدون، ونحن ـ من قبل ومن بعد بإذن الله ـ المؤمنون.

١٧

الآن أصبح هشام يدعى ـ رسميًا ـ الملازم الأول المهندس هشام. . . لقد بات، أخيرًا، في عداد منسوبي القوات المسلحة، وصدر المرسوم الملكي بتعيينه بهذه الرتبة بعد أن أنهى دورته التدريبية في كلية الملك عبد العزيز الحربية، وأقسم اليمين على كتاب الله، وتلقى أمر التحاقه بوحدته في حائل.

وحين صعد إلى طائرة النقل العسكرية، التي اصطلح على الإشارة إليها في أحاديث العسكريين جميعًا باسم «طائرة السلاح»، أي: القوات الجوية الملكية لاحظ هشام في نفسه انسجامًا لم يكن يتوقعه مع كل مظاهر الحياة العسكرية، وسبب هذه الملاحظة أنه لم يكن يفكر ـ إلى خمسة أشهر خلت ليس غير ـ في أنه قد يصبح في يوم من الأيام رجلًا عسكريًا، مع ما في الحياة العسكرية من نظام دقيق، ومن خشونة. ودهش إلى أقصى حدود الدهشة، كيف لم يخطر هذا الاتجاه بباله من قبل، وكيف حصر آماله وأحلامه في نطاق ضيق، وكيف لم يهيئ نفسه لمختلف الاحتمالات فيما لو أخفق ـ كما حدث فعلًا ـ في تحقيق آماله الأولى.

إنه يبتسم الآن وهو يتذكر الصدمة العنيفة التي أصابته حينما لم

يحصل على تقدير «جيد جدًا»، وكيف شعر إذ ذاك بأن الأبواب كلها قد سدت في وجهه، وكيف استغلقت مسالك تفكيره حتى لم يعد يفكر بالبديل، وكأنما الحياة عمل في مكة بالذات، أو معيد في الكلية ليس غير.

إنه يجلس الآن على أحد المقاعد الطويلة التي جهزت بها الطائرة الهائلة التي كانت تأخذ طريقها إلى الشمال، لتمر في حائل وفي سواها من المناطق، حاملة شحنات مختلفة تخص القوات المسلحة، إلى جانب العديد من العسكريين المتوجهين إلى أماكن مختلفة، بعضهم مكلف بمهمة، وبعضهم ـ مثل هشام ـ ذاهب للالتحاق بوحدته، وكلهم يعدون أنهم يمارسون حياتهم العادية، على الرغم من صلابة المقاعد التي جهزت بها الطائرة، والتي لا تقاس بها مقاعد الطائرات المدنية الوثيرة، والأجواء المترفة التي تحاول شركات الطيران إحاطة ركابها بها.

هنا، في هذه الطائرة العسكرية، لا مجال للترف، ونعومة العيش.

هنا رجولة، وصلابة، وشدة بأس.

هنا رجال قد عاهدوا الله، والمليك، والوطن على أن يبذلوا الأنفس رخيصة في سبيل مبادئهم السامية.

إن قصص البطولات، وملاحم الجهاد التي سمعها هشام من خاله، ومن الرقيب حميدان، ومن كتب التاريخ الإسلامي، لتتوثب في أضلعه، لتلهب إرادته بالحماسة والاندفاع لأداء الواجب الملقى على عاتقه، من خلال حياته الجديدة، حياته المتوثبة ـ كل يوم ـ بعوامل تجعله يطمئن إلى أنه قد قام بالاختيار الصحيح، وأن الله قد منّ عليه إذ يسَّر له الالتحاق بالقوات المسلحة، وإنه قد بات ـ منذ تخرجه ـ رجلًا عسكريًا، بكل ما تحمل الكلمة من معاني القوة، والرجولة، والفداء.

ولم يدهش إذ انتبه إلى أنه لم يسأل ـ ولم يتساءل ـ عن نوع الحياة التي سوف يعيشها في حائل، فهو قد اكتسب من المقدرة على مواجهة

الحياة، لا سيما من الناحية النفسية، ما يجعله مستعدًا للتكيف مع أي ظرف يمر به، فليس يهمه والحالة هذه، أن يحاول تخيل طراز الحياة ونوعيتها، تلك التي تنتظره في المكان الذي عين فيه.

وتوقفت أفكاره عند هذا الحد، فالطائرة قد بدأت بالهبوط، والمرئيات من خلال نوافذ الطائرة العريضة قد باتت أكثر وضوحًا.

وها هو، أخيرًا، قد وصل إلى حائل.

١٨

العمل كثير، وكثير جدًا، في حائل.

هذا أول انطباع واجهه هشام وهو يبدأ عمله في هذه المدينة، فالقوات المسلحة تعيش نهضة واسعة، وهي في حاجة إلى جهد وإمكانات كل منسوبيها من مختلف الوحدات، والرتب.

ولم يكن أحبَّ إلى هشام من العمل مهما كان مرهقًا ومضنيًا، فهو يجد متعة عميقة في الاستغراق بعمله حتى التفاني، فكان يبدأ في الصباح الباكر، وينتهي منه قبيل المغرب.

وكان لأخلاقه العالية، وطباعه الرضيّة، أثر كبير في نفوس زملائه، رؤساء ومرؤوسين، فأحبوه، وقدروا فيه صفاته تلك، وعاملوه بكثير من المحبة، والمودة، والاحترام.

وكان هشام راضيًا كل الرضى عن حياته الجديدة هذه، يحمد الله ويشكره باستمرار، فلقد أفاء الله عليه ـ من فضله ـ أن هداه إلى الاتجاه الذي يرضي طموحه، وفي الوقت نفسه أنعم عليه بذلك الجو الحميم من الصداقة والصفاء، يحيط به في أي مكان يحل فيه.

كذلك كانت صلته بأهله على قوتها وعمقها، فهو يراسلهم بانتظام، ويدخل السعادة والطمأنينة على قلوبهم، بما يذكره لهم من أخباره،

وارتياحه وسعادته بما هو فيه، وإنه إن كان ينقصه شيء، فهو أن يراهم، ويطمئن عليهم دائمًا.

وكانت أخته رجاء تتولى كتابة معظم رسائل أهله إليه، فتصف له في صفحات عديدة كل صغيرة وكبيرة من حياتهم اليومية، وتورد له أخبارهم بأدق تفاصيلها، فكانت الأوقات التي ينفرد فيها برسائل رجاء من أمتع أوقاته فهو يقرؤها بعناية وبطء، يبتسم تارة، ويضحك تارة أخرى، ويعبس في بعض الأحيان، وعيناه تتابعان أسطر الرسائل كلمة كلمة.

ولم تكن رجاء قد يئست بعد من إتمام مشروعها الخاص بتزويج أخيها من صديقتها «فاطمة»، ولكنها ـ وعلى ضوء التجربة السابقة ـ كانت تلمح للموضوع من بعيد، وكأنها تحاول أن تختبر مشاعره وأحاسيسه بعد أن استقرت حياته، واتخذت مسارها الطبيعي... فهي تقول له في إحدى رسائلها أنها شديدة القلق عليه، ولا تدري كيف يدبر أموره وهو يعيش وحيدًا في حائل... وتقول في رسالة أخرى، أنها ما زالت ترى أن هناك نقصًا في حياته، وإن هذا النقص لا يكتمل إلا إذا تزوج، واستكمل أسباب حياته كما يفعل جميع الناس... وتعرب له في رسالة ثالثة عن توقها لأن تصبح «عمة»، وأن تسمع أولاده ينادونها «عمتي... عمتي»، ثم تبدي له أسفها ـ بخبث محبب ـ لأنها لا ترى أي دليل يجعلها تأمل بتحقيق هذا الأمل في وقت قريب.

ولكنها في كل رسائلها، لم تذكر فاطمة على الإطلاق... ذلك أنها أدركت أنه لا يجوز لها أن تأتي على ذكرها ما دام هشام لم يبد تجاوبًا كافياً يوم أن صارحته بالأمر مع أمهما، وإن كانت قد ارتاحت بعض الشيء؛ لأن (هشام) لم يرفض فاطمة بالتحديد، وإنما أعرب ـ فقط ـ عن عدم تفكيره بالزواج في الوقت الحاضر.

ولكن رجاء لم تنثن قط عن تصميمها على أن تكون فاطمة زوجة لهشام، فهي معجبة بها، جمالًا، وأخلاقًا، وثقافة، وعائلة، وترى أنها ستكون خير زوجة لأخيها العزيز... إلا أنها كتمت عزمها هذا، فلا هي عادت للحديث عن هشام أمام فاطمة، ولا هي عادت للحديث عن فاطمة في رسائلها إلى هشام.

كانت ـ كما حدثت نفسها ـ ترقب «الموقف» بانتباه، وتترقب شارة البدء، منتظرة جملة واحدة من هشام تشعرها بأن فكرة الزواج قد بدأت تخطر له... وعندها سوف تقوم ـ كما كانت تقول لنفسها ـ بهجوم صاعق يحقق لها أملها؛ في أن ترى أخاها وصديقتها زوجين سعيدين.

ولكن انتظار رجاء طال، وطال أكثر مما كانت تتوقع.

فهشام كان يؤكد لها في رسائله بأن حياته تسير سيرًا طبيعيًا، وأنه لا يشعر بحاجته إلى شيء... وأن عمله يأخذ عليه كل مشاعره، وتفكيره، واهتمامه.

وكان هشام في ذلك صادقًا كل الصدق، ولم يخطر له أن يفهم تلميحات أخته، وإشاراتها العابرة بأكثر من القلق عليه، والرغبة في الاطمئنان إلى أن كل شيء في حياته على ما يرام.

١٩

وكما هي العادة في مثل ظروف هشام، كان قد اصطفى من بين زملائه، صديقًا في القسم الإداري، اسمه ناصر، ارتاحت إليه نفسه أكثر من سواه، وبادله ناصر هذا الارتياح بمثله، حتى بات الاثنان معروفين لدى الجميع بصداقتهما العميقة، وعلاقتهما الوثيقة.

كان ناصر من أبناء حائل نفسها، وكانت طبيعة عمله تقتضي أن يلتقي بهشام كثيرًا، الأمر الذي أوجد بين الاثنين شيئًا من الألفة

والتجاوب، تطور على مر الأيام إلى صداقة، ثم ما لبثت هذه الصداقة أن ازدادت مع الأيام حتى باتت مضرب المثل بين زملائهما في العمل.

وكان الاثنان يتبادلان الزيارات باستمرار، ناصر يزور هشام في مسكنه، وهشام يزور ناصر في بيت أبيه الذي يعيش فيه مع العائلة.

كان الأب من الشخصيات المرموقة في حائل، يتمتع باحترام الجميع، وتقديرهم، ويعودون إليه في مشكلاتهم الخاصة، ويحتكمون لديه عند الاختلاف فيما بينهم، وكان له من حسن التقدير، ورجاحة العقل ما يجعله مسموع الكلمة، ومقصدًا لكل طالب حاجة.

ولقد سعد هشام كثيرًا بلقاء هذا الأب، الشيخ عبد الله، وطالما أصغى بكثير من الاهتمام إلى حكاياته الكثيرة عن ذكرياته أيام شبابه، وعن الأحداث التي مرت به، وشهدها، أو كان طرفًا فيها، وكان الرجل راوية جذاب الحديث، جميل التعابير، وله أسلوبه الخاص في اجتذاب سامعيه الذين كانوا يصغون إليه حابسي الأنفاس، مبهورين، وهو يروي ذكرياته بأسلوبه المشوّق.

وكما هو الشأن لدى المتقدمين في السن، في مختلف أنحاء المملكة، كان الحديث عن الملك عبد العزيز، وذكريات جهاده وكفاحه من أجل توحيد المملكة، ومزاياه ومناقبه، هي الحديث المفضل الذي كان الشيخ عبد الله يرويه لجلسائه، فيأخذ عليهم ألبابهم، ويزيد في إعجابهم وتقديرهم للرجل العظيم الذي أقام هذا الملك الشامخ بإيمانه، وشجاعته، وحكمته.

وكان هشام، في معظم الأحيان، أحد مستمعي الشيخ عبد الله، وزواره، يرتاد داره بدعوة من صديقه ناصر الذي لم يكن يفترق عنه، في النهار والليل أكثر من ساعات معدودات.

٢٠

وذات يوم رآها.

كان ذلك مصادفة بحتة، وهو يجتاز الرواق الطويل الممتد ما بين باب البيت وباب المجلس الذي اعتاد زوار البيت أن يجلسوا فيه.

وكانت تمر من ساحة البيت الداخلية لتختفي وراء باب إحدى الغرف... ولم يكن قد رأى منها أكثر من قوامها الأهيف، ومشيتها السريعة، وجانب من وجهها، فأشاح بوجهه خجلًا وتأدبًا، وسارع إلى الدخول إلى قاعة المجلس.

وكان ذلك اليوم، هو اليوم الأول الذي يشعر فيه أنه وحيد، على الرغم من ازدحام المجلس، كالعادة، بالزوار، والضيوف.

فمع أن رؤيته لها لم تتعد بضع ثوان ليس غير، اختفت بعدها عن عينيه كالظبي النافر، إلا أنه لم يستطع أن يبعد صورتها عن خياله، فكان يستعيد هذه الصورة مرات ومرات، ولغط القوم يملأ القاعة، كعادتهم كل يوم، ولكنه لم يكن ـ في واقع الأمر ـ يسمع شيئًا.

كان شارد الذهن، يحس بأن شيئًا ما في داخله قد تغيّر، وإن شعوره هذا بالوحدة شعور جديد، لم يألفه من قبل.

من هي؟... ومن تكون؟...

أهي من أهل البيت...

أتراها تمت بصلة قرابة إلى صديقه ناصر؟... أهي ـ مثلًا ـ أخته؟... أهي قريبته؟... أم هي مجرد زائرة لعائلته؟.

أتراه يراها مرة أخرى... أم أن هذه هي المرة الأولى والأخيرة.

ثم هذا الشعور الذي انتابه وهزه حتى الأعماق... ما هو؟... هل هو الحب من أول نظرة كما يقولون في القصص، والروايات؟.

وهل هذا معقول؟.

هل يمكن أن تحدث نظرة خاطفة، لم تتجاوز بضع ثوان، كل هذا التأثير في نفسه؟.

وما هي نتيجة ذلك كله؟... وكيف يمكن أن يعرف إجابات تساؤلاته هذه؟.

وأدهشه أن تفاصيل ما رآه قد حفرت في ذاكرته وكأنها صورة فوتوغرافية يستطيع أن ينظر إليها ساعة يشاء.

وجهها البريء، وعيناها السوداوان، ووجنتاها الموردتان، ومشيتها السريعة التي يميس معها قدها برشاقة عجيبة.

وتذكر كلام أخته رجاء... عندما تساءلت بلهجة خاصة عما إذا كان يعتقد أن هناك شيئًا ما ينقصه.

الآن عرف جواب ذلك السؤال.

أجل... هناك شيء ينقصه... إن الذي ينقصه هو... هو ماذا؟... أهي تلك الظبية النافرة التي لم يرها سوى لحظات؟.

وحاول أن يقنع نفسه بأنه واهم في كل ما يفكر فيه... وإن من غير المعقول أن تحدث نظرة خاطفة كل هذا الذي يشعر به.

وراح يؤنب نفسه... كيف يسمح لأفكاره أن ترود هذه الآفاق جميعًا، وهو في البيت الذي يضم تلك الفتاة؟... أليس هذا خطأ في حق أهل البيت... ولكن ما ذنبه هو؟... لقد رآها مصادفة، وعلى غير تعمد... وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يحس بذلك الشعور الجارف بأنه يتمنى لو رآها مرة أخرى؟.

كل هذه الخواطر دارت في ذهنه وهو جالس، كعادته، في مجلس الشيخ عبد الله، يرى إلى الناس وهم يضحكون، ويفتحون أفواههم بالكلام، ويتناول القهوة والشاهي، ولكنه ـ وياللغرابة ـ لم يكن يسمعهم... لم يكن يسمع أصوات ضحكاتهم، ولا أصوات

كلامهم... كان في عالم آخر تمامًا... كان وحيدًا وسط مجموعة كبيرة من الناس... فكيف... كيف حدث ذلك؟.

وانتبه هشام، أخيرًا، على صوت الشيخ عبد الله، وهو يسأله بلطف، كعادته، كلما تحدث إليه:

ـ وأنت... يا باشمهندس... ما رأيك؟.

ورفع هشام رأسه، ونظر إلى الشيخ عبد الله حائرًا، فهو لا يعرف عمّ يسأله الشيخ، وليست لديه أدنى فكرة عن الحديث الدائر.

ووجد نفسه يهمهم بارتباك:

ـ أنا... أنا... الحق أنني كنت شاردًا قليلًا، فلم أنتبه إلى حديثكم...

وسأله الشيخ في قلق:

ـ سلامات... خيرًا إن شاء الله... عسى ما تكون مريضًا لا سمح الله...

ـ لا... لست مريضًا... ولكنني... ولكنني أشعر... أشعر بشيء من الصداع.

ونهض هشام على الفور، وهو يقول:

ـ لو تأذنون لي.

فقال الشيخ عبد الله:

ـ تذهب هكذا وأنت مصاب بالصداع... هل نأتيك بقرص من الأسبرو؟

فقال هشام:

ـ لا... شكرًا لك يا عماه... أعتقد أنني متعب.

فقال الشيخ عبد الله مسايرًا:

ـ على راحتك...

وودَّع القوم، وركب «الجيب» الذي يستخدمه في تنقلاته، وقفل عائدًا إلى مسكنه، وصورة الظبية النافرة ـ كما سماها ـ لا تفارق خياله.

٢١

كان أشد ما أدهش هشام أن تحدث «نظرة» خاطفة كل هذا التأثير في نفسه، وكان يعتقد أنه قد اكتسب، منذ تخرجه، خبرة بالحياة تجعله أكثر هدوءًا وواقعية، لا سيما في مسألة بسيطة كهذه المسألة.

ولكنه كان يشعر في قرارة نفسه أن المسألة ليست «بسيطة» كما يقول، وأن هناك شيئًا ما قد حدث... لقد شعر ـ فجأة ـ أن في حياته فراغًا هائلًا، وأنه ـ خلافًا لما قال لأخته وعائلته ذلك اليوم ـ في حاجة إلى شيء ينقصه.

الآن عرف هذا الشيء.

إنه في حاجة «إليها»... إلى نصفه الآخر... إلى شريكة لحياته... إلى رفيقة لعمره... ولكن... لماذا لم يشعر بهذا النقص، أو هذه الحاجة إلا اليوم، وعلى أثر تلك النظرة الخاطفة التي تمت مصادفة؟.

وهل يعقل أن يعدّ تلك «الظبية» هي ما يحتاج إليه، وهو لا يعرفها، ولا يعرف أي شيء عنها، وربما كانت متزوجة، وربما كانت مخطوبة... أفتراه يشعر بالحاجة إلى أية شريكة، أم إلى هذه الفتاة بالذات؟.

وانتقل بأفكاره إلى مكة، فهناك فتاة قد اختاروها لتكون زوجة له... فاطمة... صديقة أخته التي تمت إليهم بصلة قرابة بعيدة.

لقد بدت له أخته شديدة الثقة من نفسها وهي تحدثه عن فاطمة، وتصف له جمالها، وأدبها، وثقافتها، ومميزاتها التي جعلتها تختارها له

زوجة... فأين نصفه الآخر يا ترى؟... هنا في حائل... أم هناك في مكة.

وراح يوازن بين الحالتين، ليكتشف أن كفة فاطمة هي الراجحة إذا أخذ الأمور بالعقل والمنطق... وأن كفة تلك الفتاة المجهولة هي الراجحة إذا أخذ الأمور بالشعور والعاطفة... فأيهما التي ستسد النقص القائم في حياته... وأيهما ستكون من نصيبه؟.

لقد وجد نفسه عاجزًا كل العجز عن أن يقرر وأن يختار، ولكنه قرر ـ بينه وبين نفسه ـ شيئًا.

قرر أن يستدرج صديقه ناصر للحديث بشكل ما... وأن يحاول التوصل إلى شيء من المعلومات عن تلك الفتاة... فإذا ما بدا له أن هناك أملًا، سار في هذا الطريق، أما إذا تبين أن الفتاة لن تكون له، لسبب أو لآخر، فعليه أن يضرب صفحًا عن المسألة كلها، وأن يبحث أمر «فاطمة» بصورة جدية.

وشعر ـ إذ وصل بأفكاره إلى هذا الحد ـ بشيء من الراحة، فأطفأ النور القائم بجانب سريره، وسرعان ما غرق في سبات عميق.

٢٢

عندما وقع نظر هشام على ناصر في اليوم التالي، أحس بشيء من الرهبة والتخوف، فهو قد أعدَّ في ذهنه الطريقة التي سوف يسلكها لاستدراج ناصر للحديث، حيث يوحي إليه بما يريد من غير أن يصرح بذلك، ولكنه كان يخشى أن تكون تلك الفتاة، كما سبق أن حدَّث نفسه، متزوجة، أو مخطوبة، أو أن ناصر لا يعرفها، فقد تكون مجرد زائرة، وكان يقول لنفسه أنه سوف يتألم أشد الألم إذا ما تبين له أنه لا سبيل إلى تلك التي أسرت لبه وعقله بمجرد نظرة خاطفة، لم تدم إلا ثوان.

ولكنه فكر، من جهة أخرى، أنه لن يستطيع أن يظل مشغول البال بهذا الموضوع دون أن يحسمه بشكل أو بآخر، فإذا جاءت الأمور كما يشتهي، فهذا ما يريد وما يتمنى، وإن خابت آماله وأخفق فاليأس ـ على أية حال ـ إحدى الراحتين.

وبدأ هشام خطته بأن أخذ يبدي تذمره من حياته أمام ناصر، وهو يرقبه بانتباه شديد.

قال وهو يزفر في ضيق:

ـ تدري يا ناصر؟... لقد بدأت أضيق ذرعًا بالحياة التي أعيشها.

ـ غريب... هذه أول مرة أسمعك تقول فيها هذا القول... إذ كان يبدو لي أنك شديد الارتياح لها، وأنك سعيد... و...

وقاطعه هشام قائلًا بسرعة:

ـ إنني لا أتكلم عن العمل... فأنا سعيد جدًا في عملي، ولا أشكو من شيء منه.

ـ إذًا ما الذي يجعلك تشعر بالضيق كما تقول؟

ـ الوحدة... لقد بدأت أضيق بالوحدة... أنت تعلم أن أهلي في مكة... وأنني أعيش هنا وحيدًا... صحيح أن لي، ولله الحمد، كثيرًا من الأصدقاء ـ وأنت في مقدمتهم ـ وأن مشاغل العمل لا تكاد تترك لي شيئًا من الفراغ... ولكن... على الرغم من هذا فإن شعورًا غريبًا بالوحدة قد أخذ يتسلل إلى قلبي في الفترة الأخيرة.

وأطرق ناصر طويلًا وهو يعبث بقلم كان في يده، وهشام يرقبه بلهفة يحاول كتمانها، ثم رفع رأسه وقال بتردد:

ـ هل... هل أفهم أنك... تريد الزواج... مثلًا.

ـ أجل... هذا ما يخطر لي... لقد بدأت الفكرة تغزو فكري منذ فترة قصيرة.

ـ هـذا مـن حـقـك. . . شـبـاب. . . وتـعـلـيـم. . . ورتـبـة. . . ومستقبل. . . حقًا لا ينقصك إلا الزواج.

ـ ماذا تقترح عليّ أن أفعل في هذه الحالة؟.

ونهض ناصر، وراح يتمشى في الغرفة جيئة وذهابًا وهو يتكلم:

ـ أتريد الحق يا هشام؟. . . هذا الموضوع الذي تتحدث عنه قد خطر لي قبلك منذ شهور.

ـ تعني. . . زواجي أنا. . . أم زواجك أنت؟.

ـ زواجك أنت بالطبع. . . فأنا متزوج كما تعلم.

وضحك الاثنان، وعاد ناصر إلى الحديث:

ـ أنت تعلم أننا جميعًا نحبك ونحترمك. . . أنا شخصيًا أقول لك بكل صراحة أنني أعدّك في منزلة أخي.

ـ وأنا أيضًا يعلم الله.

ـ شكرًا. . . وأنت تعلم أيضًا عاداتنا وتقاليدنا. . . وخاصة هنا. . . في حائل.

ـ أعرف طبعًا. . . ولكن ماذا تريد أن تقول؟.

ـ أريد أن أقول أننا، لا سيما في عائلتنا، ما تعودنا قط على أن نعرض بناتنا على أحد.

وقفز قلب هشام إلى حلقه، فقد فهم من كلام زميله وكأنه يلمح له أنه لا أمل له في الزواج من إحدى بنات عائلته. . . فقال بصوت مضطرب:

ـ إنني لا أدري عما تتكلم يا ناصر. . . هل حصل شيء لا قدّر الله؟

ـ لا. . . ليس هناك شيء. . . ولكنني، فقط، أردت أن أوجِّه انتباهك إلى هذه النقطة، ولو سمعني أحد أخاطبك بما أخاطبك فيه لعدّ ذلك عارًا عليّ.

ـ أؤكّد لك يا ناصر أنني لا أفهمك... ألا توضح ما تريد أن تقول؟

ـ لقد أوضحته على ما أعتقد... فأنت، هنا، محبوب من الجميع، ومن جهتي أنا، لم أوثرك صديقًا وأخًا إلا بعد أن اختبرتك جيدًا، وتبيَّن لي طيب معدنك، وأصالة أخلاقك... ولقد كنت أتوقع اليوم الذي أسمعك فيه تعلن ضيقك من حياة الوحدة التي تعيش فيها... وفكرت، من ثم، ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك في هذه الحالة.

ـ بارك الله فيك يا أخي.

ـ ما كنت أتمنى لك إلا أن يوفقك الله إلى زوجة صالحة.

ـ وهذا عين ما أتمناه... بل وأتمنى أن يكون لي النصيب في... في مصاهرتك... ولكنك تقول الآن إنكم، في العائلة، لم...

ـ لقد فهمتني خطأ يا هشام... إنما أردت أن أقول أنه على الرغم من أننا لم نعتد على أن نعرض بناتنا على أحد، فإنني أعرض، أو أقترح، عليك أن تتزوج أختي هيا...

ـ هيا؟

ردد هشام الاسم بما يشبه الهمس، وفي عقله يضج السؤال الكبير... هل هي تلك التي لمحتها... أم...؟!

وقطع عليه ناصر أفكاره بقوله، وهو يستطرد في حديثه:

ـ إن عمرها ثماني عشرة سنة... وقد تخرجت هذا العام من الثانوية العامة، فإذا أردت أن تتقدم إلى الوالد، وأن تخطبها منه، فإنني سأساعدك بكل قواي... وأغلب ظني أنه لن يرفض... وأود أن أؤكد لك مرة أخرى أنني ما فعلت مثل هذا أبدًا... ولا حدث في عائلتنا... ولكنن، محبة مني لك، أقترح عليك هذا الاقتراح... فماذا تقول؟

ـ لقد فاجأتني تمامًا بما تقول يا ناصر... وأنا أعلم أنكم ما

اعتدتم، في حائل، أن تفعلوا ذلك... ولذا فإنني شديد التقدير لهذا التكريم الذي تحيطني به... ولكن... ولكنْ هناك أمور ربما لم تبحثها... هل تقبل هيا... أعني الآنسة هيا بي؟

ـ إنني أتوقع أن تقبل... ولولا ذلك ما فكرت في هذا الأمر... وما الذي يمنعها من القبول، وأنت، ولله الحمد، شاب مثالي من مختلف النواحي.

ـ وإذا افترضنا أن الله قدّر، وكان لي في هذا الزواج نصيب... كيف يكون الحال إذا أنا انتقلت من حائل... لا يخفاك أن العسكريين معرضون للتنقل باستمرار... فهل تقبل ذلك؟

ـ يا أخي... يا أخي... أنت تقفز إلى البعيد البعيد في أفكارك... ما دامت زوجتك، فهي ستصحبك إلى أي مكان تذهب إليه... هل نسيت أن هناك مئات من الزوجات السعوديات يرافقن أزواجهن المبتعثين، إلى أقاصي الأرض، على بعد آلاف الأميال من المملكة؟

ـ إنني أشكر لك هذا التشجيع يا ناصر... هذه هي الصداقة الحقيقية وإلا فلا... ولقد فاجأتني بكل ما ذكرت... وأريدك أن تترك لي فرصة قصيرة... إلى الغد فقط إن شاء الله... كي أفكِّر.

٢٣

انطلق هشام بسيارة «الجيب»، واتخذ طريقه إلى خارج المدينة، إلى مكان خلوي، اعتاد أن يقضي فيه بعض أوقات راحته، مختليًا بنفسه، مفكرًا في أموره، لا يرافقه سوى أفكاره التي زادها حديثه مع ناصر لهيبًا، وسعيرًا.

وإذ وصل إلى مكانه المعتاد، أوقف السيارة، وأنزل منها بعض

الأشياء التي اعتاد أن يأخذها معه إلى هذا المكان... كرسي من القماش، ترموس فيه شاهي ساخن، وكوب... واتخذ جلسة مريحة يستطيع معها أن يطلق العنان لأفكاره كما يشاء.

إنه لم يكن يتوقع أن تنجح خطته كما نجحت، وأن يجر حديث أعده بعناية لأن يعرض عليه ناصر تزويجه من أخته «هيا»... ولكن السؤال الذي كان يحيره، هل «هيا» هي تلك الفتاة التي لمحها اللمحة الخاطفة، والتي أخذت عليه ـ منذ ذلك الحين ـ لبه؟.

إذا كانت هي، قال لنفسه، فهذا أقصى ما يتمنى وما يرجو... أما إذا لم تكن هي، فما يكون العمل يا ترى؟

ووجد نفسه يبتسم على الرغم منه، وهو يفكر فيما سيكون عليه موقفه، سواء كانت «هيا» هي الفتاة التي لمحها أم لا... فإذا كانت هي، فيا لها من مصادفة غريبة، وإن لم تكن هي، فهل يكون عليه أن ينسى تلك «الظبية» ـ حسب تعبيره ـ التي أيقظت في أعماقه شعور الوحدة، والحاجة إلى من تشاركه حياته؟

هنا، تذكر ما سلف من مواقف حياته، لا سيما بعد ظهور نتيجته في الجامعة، وكيف كان قد عقد العزم على أن يتخذ قراراته الحاسمة دون تردد، ووجد أنه الآن يقف على مفترق طرق قريبًا جدًا من ذلك المفترق، وأن عليه أن يحسم الأمور، وأن يختار.

وتنهد بشيء من الارتياح... فلقد قرر واختار.

قرَّر أن يتقدَّم لخطبة «هيا»، وأن يكون عمليًا وواقعيًا، فإذا قبل به أبوها أمكنه أن يخبر أهله في مكة بقراره، أما إذا رفض الأب أو الفتاة ـ وهذا على أية حال ليس مستبعدًا ـ حفظ لنفسه خط الرجعة، فلا يحرج موقفه أمام أخته رجاء التي تريد تزويجه من صديقتها فاطمة.

وركب السيارة، وقفل عائدًا إلى المدينة، وقد شعر بمثل الراحة

التي شعر بها يوم حسم أموره، واختار الاتجاه للقوات المسلحة، بعد أن كانت الأفكار تتضارب في رأسه، حول اتجاهات أخرى.

٢٤

ـ لقد اخترت، وتوكَّلت على الله.

بهذا افتتح هشام حديثه وهو يلتقي بصديقه ناصر في اليوم التالي.

ونظر إليه ناصر متسائلًا، ولكنه استطاع أن يقرأ الجواب على وجهه قبل أن يستطرد قائلًا:

ـ لو تكرَّمت بأخذ موعد لي من الوالد.

ـ مبروك... ألف مبروك... وربنا يتمم بخير.

ـ هل... هل تتوقع أن يرفض؟

ـ لماذا التشاؤم يا أخي؟... ولماذا يرفض؟... إن فيك، ولله الحمد، كل الصفات التي لا يطمع أي أب في خير منها... وأظنني قلت لك ذلك من قبل، أم أنك تريدني أن أمدحك، وأشيد بك مرة أخرى؟.

وضحك هشام وهو يجيب:

ـ المسألة ليست مسألة مديح وإشادة... ولكنني أشعر بأنني سأقوم بخطوة مهمة... وأريد أن أطمئن.

ـ لو لم أكن على ثقة من أن الوالد سيوافق لما تحدثت إليك في الموضوع بهذه الثقة.

ـ ربنا يطمنك... تبقى ناحية أخرى.

ـ ماذا أيضًا؟

ـ والدي ووالدتي... أعني أهلي في مكة... إنهم كثيرًا ما تحدثوا عن عزمهم على أن يقيموا لي حفلة زواج كبيرة جدًا... هذا هو

تعبيرهم... وهم سيقيمونها في مكة طبعًا حيث أغلب الأهل، والأصدقاء، والمعارف.

ـ هل هذه هي المشكلة التي تحيرك؟... يا سيدي تستطيع أن تقيم الحفلة كما تشاء في مكة بعد عقد القران.

ـ اتكلنا على الله إذًا... وسأزور الوالد مساء هذا اليوم، إن شاء الله.

وقبل أن يجيبه ناصر، دخل عدد من زملاء هشام من المهندسين وهم يحملون معهم خرائط، وتصاميم للمطار الجديد في المدينة، وانهمك هشام في دراستها معهم، وقد نسي كل شيء سوى العمل الذي بين يديه.

٢٥

وفي المساء كان هشام يدخل إلى قاعة الاستقبال الخاصة في منزل الشيخ عبد الله، والد ناصر، وقبل أن يأتي الأب إلى القاعة للترحيب بضيفه، تبادل هشام مع ناصر حديثًا خاطفًا، أراد هشام به أن يطمئن إلى أن لدى الوالد فكرة عامة عن الموضوع.

ولكن ناصر ابتسم وهو يقوده إلى قاعة الاستقبال، ويشير له بالدخول، وهو يقول:

ـ أبدًا... لم أقل له سوى أنك تريد مقابلته في موضوع خاص.

ـ ولكن... أما كان يستحسن لو أنك أعطيته فكرة.

ـ هذه مهمتك أنت يا عم... وعلى كل حال اطمئن... الوالد لديه انطباع حسن عنك... وسوف أتدخل في الوقت المناسب لأتولى (إسنادك) إذا اقتضى الأمر.

وضحك الشابان للتعبير العسكري الذي استخدمه ناصر، وجلس هشام وحده في انتظار قدوم الشيخ عبد الله.

وكان مما أدهش هشام، أنه وجد في نفسه هدوءًا غريبًا، واطمئنانًا

عميقًا لم يشعر بمثلهما منذ أن طرأت فكرة الزواج على باله، وزال كل ما كان يشعر به من توتر، وانفعال.

وما هي إلا لحظات، حتى دخل الشيخ عبد الله بقامته المهيبة، ورحَّب بهشام في عطف أبوي أثلج صدره، ثم جلس الاثنان، وراح الشيخ عبد الله يردد عبارات الترحيب مرة أخرى، وهشام يجيب شاكرًا.

وساد صمت خلال قيام الصبي بتقديم الشاهي، حتى إذا خرج، نظر الشيخ عبد الله إلى هشام، وقال له:

ـ قال لي ناصر أنك تريدني في موضوع خاص... خيرًا إن شاء الله؟.

فأطرق هشام لحظة، ثم رفع رأسه وقال:

ـ لن أطيل عليك يا عمي... وإنني لأشعر مما ألمسه منك باستمرار من عطف أن حاجتي إليك مقضية إن شاء الله.

فردد الشيخ، وهو يعبث بحبات سبحته:

ـ إن شاء الله... إن شاء الله... تكلَّم يا ولدي.

ـ لقد جئتك يا عمي طالبًا القرب منك... في كريمتك هيا.

وبدا وكأن الشيخ عبد الله لم يفاجأ بهذا الطلب، فسكت بعض الوقت ثم قال ببطء:

ـ هذا يسرني كثيرًا يا ولدي... وإنني أرحِّب بك... فأنا شديد الإعجاب بك... وبأخلاقك... بل إنني أعدّك في منزلة ولدي ناصر... وأكاد لا أفرِّق بينكما.

ـ أشكرك... أشكرك كثيرًا يا عمي... وأرجو أن أكون عند حسن ظنك دائمًا إن شاء الله.

ـ إن لنا، يا ولدي، في أمور الزواج عادات وتقاليد كما تعلم... وإنني سأعاملك وفق ما أمر به ديننا الحنيف.

ونهض الشيخ عبد الله وهو يقول:

ـ عن إذنك... لحظة.

ثم غادر الغرفة، وهشام واقف يتساءل فيما بينه وبين نفسه عن سبب خروج الشيخ، ثم عاد للجلوس وهو يقول في سره؛ لا شك في أنه يريد أن يسألها عن رأيها.

ودخل ناصر القاعة وهو يقول:

ـ هيه يا عم؟... ما الأخبار؟

وأعاد هشام عليه الحديث الذي دار بينه وبين والده، وابتسامة ناصر تتسع كلما ذكر هشام جملة من ذلك الحديث، ثم ضرب ناصر بيده على فخذ هشام بخفة، وهو يقول:

ـ مبروك يا عم... كل شيء تمام.

ـ كيف؟.

ـ سوف ترى.

وقفزت إلى ذهن هشام في الحال صورة الفتاة التي لمحها، وعاد السؤال يلح على خاطره من جديد... هل تلك الظبية هيا هيا... أم أنها أخرى... هل هي أجمل منها؟.. هل هي أقل جمالًا... هل هي...؟

وتوقف بخواطره، وأسئلته، فلقد عاد الشيخ عبد الله، ووراءه فتاة ملتفة في عباءة سوداء، ولا يبدو منها سوى وجهها الوضاء.

ـ يا لله... إنها هي... ما أكرمك يا رب.

هكذا هتف هشام في داخله، وهو ينهض احترامًا للشيخ عبد الله الذي قال وهو يجلس:

ـ هذه هي ابنتي هيا يا ولدي.

واحمرَّ وجه الفتاة التي جلست على كنبة قصية، بينما أطرق هشام

خجلًا وقلبه يرقص بين ضلوعه، فيا له من كرم إلٰهي أن تكون الفتاة التي هفا إليها قلبه، وأيقظت فيه مشاعر الحب، وهو الذي لم يرها أكثر من لمحة خاطفة، هي نفسها الجالسة على مسافة بضع خطوات منه، وهي لا تقل خجلًا وارتباكًا منه.

وانتبه هشام من خواطره على صوت الشيخ عبد الله، وهو يستطرد في كلامه:

ـ إن لك يا ولدي الحق في أن تراها وفق ما أمر به الشرع الحنيف، مقبلة مدبرة، وأن تقول رأيك النهائي بعد ذلك بصراحة... وأن تراك هي كذلك وتقول رأيها... فإذا تزوجتما من ثم، كان ذلك عن رغبة مشتركة... أما الباقي فهو لله وعلى الله... وما التوفيق، أولًا وآخرًا، إلا من عند الله.

وصمت الشيخ عبد الله برهة، لم يتكلم خلالها أحد، ثم استأنف كلامه قائلًا:

ـ هذا ما أمر به الشرع الحنيف كما قلت... فإذا وقعتما من بعضكما موقعًا حسنًا فهذا ما أتمنى... وإن لم يحصل النصيب فأنا لا أحب أن يعلم أحد بما جرى... هذا هو طلبي الوحيد منك يا ولدي.

ونظر هشام نظرة سريعة إلى هيا، ففاجأها تختلس ـ هي الأخرى ـ إليه نظرة، وتلاقت عيناه بعينيها السوداوين اللتين اخترقت نظراتهما الخاطفة ـ من قبل ـ صميم فؤاده، فحوَّل نظره بسرعة، والتفت إلى الشيخ عبد الله قائلًا:

ـ لقد قلت يا عماه كل شيء حيث لا أكاد أجد ما أزيده على ما قلت... فقط أريد أن أقول لك بأنني شديد الاعتزاز بثقتك، وتقديرك... وإنني إذ أتقدم لخطبة كريمتك المصون، فإنني أتقدم في الوقت ذاته إلى الأسرة كلها... إليك وإلى السيدة أم ناصر... والأخ ناصر... لكي

تعدّوني فردًا منكم، وتعاملوني على هذا الأساس... والكلمة لكم، وللآنسة، فإذا كنتم ترون فيّ الكفاءة لهذا، فليس عندي ما أضيفه إلى ما قلت حين أزجيت لك، يا عماه، بطلبي عند مجيئي.

وبدا السرور على وجه الشيخ عبد الله، وهو يستمع إلى هذه الكلمات النابضة بالصدق والإخلاص، وهي تتدافع من فهم المهندس الشاب، فقال باسمًا:

ـ على خيرة الله إذًا... هه... ما رأيك يا هيا؟.

واضطرم وجه الفتاة بمزيد من الحمرة، وهي تطرق إلى الأرض، ثم نهضت فجأة، وانفلتت خارجة من القاعة بخطواتها الرشيقة التي جعلت هشام ـ يوم لمحها ـ يشبهها بالظبية النافرة.

وضحك الشيخ عبد الله ضحكة هادئة، وهو يقول:

ـ مبروك يا ولدي... اعتقدت أنها قد أجابت على سؤالي.

وتصافح الرجلان، وتعانقا، ثم عانق ناصر صديقه هشام مباركًا، ومهنئًا، ثم قال هشام:

ـ تأذن لي يا عماه؟

ـ مع ألف سلامة... أرجو أن نراك غدًا... إن شاء الله على العشاء.

ـ ما يحتاج يا عماه... أنني، كما تعلم، عندكم دائمًا.

ـ صحيح، ولكن عشاء الغد ـ إن شاء الله ـ سيكون عشاء خاصًا... وربما أعدته «هيا» لك بنفسها...

وضرب ناصر جبهته بحركة مرحة، وقال مخاطبًا أباه:

ـ ياه... يا بوي... هذا إنذار لي كي أتعشى غدًا خارج المنزل.

وضحك الشيخ وهو يقول:

ـ أنت تعرف طبخ «هيا» يا ناصر... وإذا كان هشام سيتناول طعامًا من طبخها، فهذا ما سيحكم عليه بنفسه.

فرد ناصر باللهجة المرحة نفسها:

ـ هشام لا يعرف، بعد، طبخ هيا... ولكنني أعرفه... فما ذنبي؟

فهز الشيخ عبد الله رأسه يمنة ويسرة في حركة عتاب، وقال لولده:

ـ يا ناصر يا ولدي اشكر الله... أنت تعرف مقدار خدمة هيا لك، ولكن الحقيقة أنك دائمًا نكَّار... وسوف يحكم هشام بنفسه فيما بعد.

وابتسم هشام، ولم يعلِّق بشيء، ولكن قلبه كان يركض بين ضلوعه، فغدًا، غدًا إذ أراد الله وشاء، سيأكل من طهو هيا، التي ستصبح زوجته...

فما أكرمك يا رب...

٣٦

لم يصدق هشام أن يتم الأمر بهذه السرعة الخاطفة، والسهولة الفائقة، فقد كان يتوقع أن تكون دون ذلك صعوبات كثيرة، ووقت طويل.

كذلك لم يصدق أن تصبح الفتاة التي لم يكن قبلها يؤمن بما يسمى «الحب من أول نظرة» هي نفسها زوجته، وأن تكون هي «هيا» ابنة الشيخ عبد الله، المعروفة بأدبها، وتعليمها، ومثاليتها.

وتوجَّه بذهنه إلى مكة، حيث أهله الذين لا يتوقعون منه مثل هذه الخطوة بتلك السرعة والطريقة، ولكنه كان واثقًا من أنهم سيوافقون لأسباب عديدة.

فوالده قد عوده ـ وعلَّمه ـ أن يتخذ قراراته الحاسمة بنفسه، وهو الذي أباح له حق اختيار الاتجاهات الفاصلة في حياته، وكان فخورًا بذلك، بل إنه نوه عن تركه حرية اختيار هشام لزوجته؛ لأن الحياة حياته، والقرار قراره، وما على الأب إلا إبداء الرأي ضمن الحدود التي يراها في مصلحة ولده.

وأمه لا يهمها سوى أن يكون ولدها سعيدًا، وما دام هو راضيًا عن اختياره، فهي ستوافق، وقد لا تخلو موافقتها من شيء من عدم الارتياح؛ لأن الزواج لم يتم على يديها، وبمساعيها... ولكنها لن تلبث أن ترضى متى رأت الفتاة التي اختارها.

تبقى رجاء، التي عدّت زواج أخيها مسؤولية تهمها هي بالدرجة الأولى، والتي حاولت - من أجلها - أن تختار له عروسه بنفسها، ولم تيأس عندما وجدت لديه عزوفًا عن اختيارها، ولكن غايتها الأساسية سوف تتحقق بإذن الله، وما غايتها الأساسية - كما قالت، وكما تذكَّر هشام وهو يبتسم - إلا أن تصبح عمّة... ولسوف تصبح عمَّة، سواء كانت أم أولاده صديقتها فاطمة، أو أخت صديقه ناصر، فهو حين هفت هيا بقلبه، وأخذت عليه مجامع تفكيره، إنما كان ذلك على الرغم عنه، وبما يسمونه «الحب» هذه العاطفة التي لم يكن يعرفها هشام قبلًا، ولا خطرت له في السابق على بال.

وتنهَّد هشام بارتياح، فالصعوبات المتوقعة ليست بذات شأن، وما دام أهله جميعًا، لا سيما أبوه وخاله، يريدون منه أن يكون حاسمًا في اتخاذ قراراته، وأن يكون هو - وقبل سواه - مطمئنًا إلى تلك القرارات، فهو قد قرر واختار، وهو يشعر، في داخله، بارتياح عميق لهذا الاختيار.

وفي اليوم التالي... شعر هشام أنه أصبح إنسانًا جديدًا، فقد أقبل على عمله بهمة أكثر، ونشاط أكبر، وأحسَّ أن المسؤولية التي اختارها، تفرض عليه أن يسعى بكل قواه لكي يكون أفضل مما هو عليه، وأن يسعى باستمرار للتقدم والارتقاء؛ ليكون جديرًا بهذه المسؤولية.

كان يحس بطيف «هيا» وهو يدفعه إلى الأمام، ولما يمض على لقائه بها - إن صح أن يسمى ذلك لقاء - سوى ساعات معدودات.

وأيقن أن صفحة جديدة قد فتحت في حياته، وأن عهدًا جديدًا من هذه الحياة يفتح له ذراعيه.

وأدهشه أنه حينما التقى بناصر، أثناء العمل، لم يشيرا إلى الموضوع، كلاهما، بحرف واحد، وجرى تعاملهما الرسمي كعادته، ومن غير أن يذكر أحدهما للآخر أن هذا اليوم سيكون كذلك، صفحة جديدة في علاقتهما معًا، إذ يرتبطان برباط المصاهرة، بعد أن ارتبطا برباط الصداقة، والزمالة.

وكان هناك شيء من القلق يخالج نفس هشام، فهو لم يتحدث مع الشيخ عبد الله، ولا مع ناصر، في مسألة المهر، وعهده بالناس يبالغون في هذه الناحية، ويشترطون شروطًا تفوق طاقة من كان مثله، في مطلع حياته العملية، ولم يكن يرغب في أن يحمل أبوه هذا العبء، فهو منذ أن تخرَّج، وبدأ عمله، قد بات مسؤولًا عن نفسه، وكان بوده ألا يطلب من أبيه مساعدته في هذا الشأن، وتمنى أن يتمكن من تدبر هذا الأمر بإمكاناته الخاصة، ودونما حاجة إلى اللجوء لمساعدة أبيه، لا سيما وأنه قد ادَّخر من رواتبه وتعويضاته مبلغًا غير ضئيل؛ لأن طبيعة حياته في حائل لا تكاد تتطلب منه شيئًا يذكر من المصاريف.

وقرَّر أن يترك موضوع المهر إلى حينه، وأن يتعرَّف إلى رغبات الشيخ عبد الله، ومن ثم يرى ما يمكنه أن يفعل.

ومضى يتعجَّل مرور الوقت بانتظار موعده في بيت الشيخ عبد الله هذا المساء.

٢٧

عندما دخل هشام قاعة الاستقبال في بيت الشيخ عبد الله، وبرفقته ناصر الذي فتح له الباب، وجد مع الشيخ أخاه، وخال ناصر، فسلَّم

على الجميع وجلس، دون أن يدهشه وجود هذين الرجلين، فهو يعرفهما من قبل، وكثيرًا ما التقى بهما خلال تردده على منزل الشيخ عبد الله.

وبعد أن أديرت القهوة والشاهي، انضم إلى القوم قادم جديد، هو الشيخ حمود، قاضي المحكمة، الذي سلَّم على الجميع، وجلس وكأنه يقوم بزيارة عادية... وبعد أن شرب الشيخ حمود القهوة والشاهي، التفت إليه أبو ناصر قائلًا:

- اسمع يا شيخ حمود... أنت تعرف طبعًا المهندس هشام.

- طبعًا... طبعًا... كثيرًا ما التقيت به هنا من قبل... أنعم وأكرم.

- لا أريد أن أطيل عليك... وإنما أخبرك بأنه قد تقدَّم إلي طالبًا يد ابنتي هيا، وقد قبلت أن أزوجها له على سُنَّة الله ورسوله.

- ونعم القبول يا شيخ عبد الله... وربنا يتمم بخير.

- ولقد طلبت منك الحضور هذه الليلة، ومعك أوراقك؛ لكي تعقد القران الآن.

فضحك الشيخ حمود وقال:

- إيه... ألا تصبر إلى أن نتعشى، أصلحنا الله.

فردَّ عليه الشيخ عبد الله ضاحكًا:

- عشاء هذه الليلة هو بمناسبة القران... ولن نتعشى قبل أن يتم ذلك... وخير البر عاجله.

- على خيرة الله يا شيخ عبد الله.

والتفت الشيخ حمود إلى هشام يسأله بعض الأسئلة، ليدونها في سجل كان يحمله معه حين قدومه، ثم التفت إلى الشيخ عبد الله يسأله أسئلة أخرى، وبعدها تناول بإحدى يديه يد الشيخ عبد الله، وبالأخرى يد هشام، وراح يتلو آيات من القرآن الكريم، وعقد له قرانه قائلًا:

ـ زوجتك وأنكحتك مخطوبتك المصونة هيا بنت الشيخ عبد الله على ما تراضيتما عليه من المهر، وعلى سُنَّة الله ورسوله.

وبعد أن انتهى القاضي من إجراءات القران، صافح هشام مهنئًا، كما هنأه والد الفتاة، وعمها، وخالها، وأخوها...، ثم توجَّه الجميع إلى العشاء الذي أعدته هيا بيديها، ولم يتمالك هشام، مع أول لقمة دخلت فمه من طهو زوجته أن ابتسم، وقال لناصر مداعبًا:

ـ سامحك الله يا أخ ناصر... لقد أخفتني بالأمس وأنت تتحدث عن طهو هيا، وإذا بي أكتشف الآن أنك ظلمتها.

وضحك الأب وقال:

ـ ألم أقل لك؟... ولكن ناصر هكذا... ناكر للجميل.

وقال ناصر باسمًا:

ـ أردت أن أجعلها مفاجأة لك... والواقع أنني سأفتقد هذا الطعام، كما سأفتقد الأخت التي كانت لي أمًّا ثانية.

ولم يفهم الشيخ حمود شيئًا من هذا الحديث الدائر بين الثلاثة.

وكانت هيا تصغي من وراء الباب بلهفة، تريد أن تعرف رأي هشام في طهوها، خاصة وأن أباها قد أخبرها، أمس، بما قاله ناصر، وكأية أنثى يهمها رضى زوجها، كانت شديدة الرغبة في معرفة ذوقه، ومدى انسجامه مع ذوقها، وأسلوبها في الطهو.

وبعد هذا الحفل المتواضع، غادر الشيخ حمود المكان مكررًا دعواته وتمنياته للعروسين، والتأم جمع العائلة بأكملها مع صهرها الجديد... وأقبلت هيا على استحياء تصحبها أمها التي تعرَّف هشام عليها لأول مرة، وجلس الجميع في سهرة عائلية حميمة، كان الارتياح خلالها سائدًا جو المكان.

ولم يكن يشغل هشام، إذ ذاك، سوى أمرين... أولهما شعوره أنه

كان من الواجب أن يكون أهله حاضرين هذه الليلة؛ لتكتمل بوجودهم سعادته، وثانيهما مسألة المهر الذي نوَّه عنه قاضي المحكمة وهو يعقد القران، مع أن أمره لم يبحث على الإطلاق بينه وبين أهل الفتاة.

ولاحظ الشيخ عبد الله، ما يبدو على هشام بين الحين والآخر من سهوم ووجوم، فسأله بلطف:

ـ إيه يا هشام... تبدو وكأن شيئًا يشغل فكرك.

فقال هشام بلهجة فيها رنة الأسف:

ـ أجل والله يا عمي.

ـ خيرًا إن شاء الله.

ـ كنت أفكِّر في الوالد، والوالدة، والأخوات في مكة... وكم كنت أتمنى لو أنهم كانوا حاضرين هنا الآن... وأقمنا حفلة... كبيرة.

فابتسم الشيخ عبد الله في لطف، وقال:

ـ أهذا ما يشغل فكرك؟... هيّن... من جهتي أنا لا أريد حفلات... وقد أردت أن أضرب المثل بنفسي في هذا الشأن... إنك لتعلم يا ولدي كم يتكلَّف الناس على أمثال هذه الحفلات... وبعضهم يستدين هذه التكاليف ليقضي بعد ذلك سنوات طويلة وهو يسددها... في رأيي أنا إنَّ مثل هذه الأمور يجب أن يوضع لها حد... وأن ينفق العريس ماله على بيته بدل أن يذبح الذبائح، ويقيم الحفلات التي لا تلبث أن تنقضي، وينساها الناس.

ـ كلامك صحيح يا عماه... أنا أعرف أن أحد زملائنا باع قطعة الأرض الوحيدة التي يمتلكها... بمئة وخمسين ألف ريال أنفقها كلها في ليلة واحدة على حفلة زواجه.

ـ هذا لا يجوز... هذا تبذير وإسراف ليس له معنى... والله تعالى لا يحب المسرفين.

وهكذا قضى هشام بضع ساعات في منزل الشيخ عبد الله، ثم ما لبث أن نهض مستأذنًا، وهو يقول لناصر:

ـ لا أدري إذا كنت مستعدًا لإيصالي بسيارتك... إن «الجيب» في ورشة الصيانة اليوم.

وخرج هشام مع ناصر، وركب معه في سيارته، وكان هشام يتحرق رغبة في الإفصاح عما في باله، فقال لصديقه:

ـ هناك مسألة تشغل بالي يا ناصر... وأردت أن أخاطبك فيها.

ـ ألم تنته بعد من المسائل التي تشغل بالك؟

ـ بقيت هذه المسألة.

ـ هات لنشوف.

ـ مسألة المهر... إنني، كما لعلك تعلم، لا أملك الكثير... ولا أريد أن أطلب مساعدة أحد.

ـ يا شيخ... هذه مسألة بسيطة... ألم تسمع الوالد ماذا قال؟... إن ما يهمنا هو الأخلاق، والسمعة الحسنة... أما المظاهر الفارغة فهي أشياء زائلة، ولا قيمة لها... لقد سمعت الوالد وهو يقول أنه أراد أن يضرب المثل بنفسه... وأنت تعلم مكانته في حائل... ولذا فالمهر مسألة تافهة... لا تشغل بالك بها أبدًا.

ـ الحق يا ناصر أنني لا أدري ما أقول... لقد غمرتموني بعطفكم، ولطفكم.

ـ ليس بين الأهل تكليف... وأكرر لك تمنياتي بحياة زوجية سعيدة، إن شاء الله.

ـ بقيت مسألة.

ـ ماذا أيضًا... ألم تقل أنها واحدة فقط؟.

ـ مسألة أهلي... إنني أشعر بشيء من تأنيب الضمير على أنني لم أستشرهم، أو لم أخبرهم على الأقل.

ـ وأيضًا هذه مسألة لا تستحق الانزعاج... فلقد فهمت من أحاديثك السابقة معي أن هناك تفاهمًا بينك وبين والدك على أن يترك لك حرية اتخاذ قراراتك بنفسك.

ـ صحيح...

ـ انتهينا إذًا... فما دمت أنت مطمئنًا إلى أنك قد اتخذت القرار المناسب فإن أمامك مجالًا واسعًا كي تخبر أهلك، وتقيم فرحك في مكة كما تشاء... المهم هو أنه أصبح بوسعك الآن أن تأتي إلى بيتنا واحدًا من العائلة دون أن يعرضك ذلك، أو يعرضنا، لأي كلام، أو انتقاد... وأمامك الأيام تستطيع أن تخطط فيها أمورك ومستقبلك أنت وهيا على النحو الذي يروق لكما.

وبدا على هشام أنه قد اقتنع بكلام ناصر، فصمت، وأطلق لخواطره العنان يفكّر في الكيفية التي سيبلغ بها أهله النبأ، وماذا سيكون موقف أخته رجاء.

٢٨

لم يكن هشام يظن أن إبلاغ أهله بنبأ قرانه سيكون صعبًا على عكس ما كان القران بنفسه سهلًا.

وغادر إلى مكة، بعد أن حصل على إجازة لمدة أسبوع، واستقبله أهله استقبالًا حارًا على عادتهم، حتى بدأ يشعر أنه كان من المستحسن لو لم يتعجل، وحصل على موافقتهم على الرغم من ثقته أنهم سوف يقرون اختياره، ويباركونه.

وذهل عندما استقبلته رجاء بالترحاب، وهي تقول في مودة واضحة:

ـ أهلًا بك يا باشمهندس. . . أهلًا بك يا عريسنا.

وتبادر إلى ذهنه في الحال أن النبأ قد وصل إليهم بطريقة ما، وأن رجاء إنما تهنئه على عقد قرانه على هيا ابنة الشيخ عبد الله، وقبل أن يسألها جلية الأمر، جاءه التفسير من والدته التي قالت له ضاحكة:

ـ أصل رجاء مصممة أنها ستزوجك على الرغم من أنفك في أول مرة تزور فيها مكة. . . وها قد جئت.

وضحك الجميع، وجاراهم هشام في الضحك بافتعال، إذ تبدت له ـ إذ ذاك ـ صعوبة إبلاغهم بالنبأ بعد أن قرَّر، ونفَّذ قراره من غير أن يكون لديهم علم بشيء.

وهكذا رأى إرجاء الموضوع إلى أن يجد الفرصة المناسبة.

وقضى ليلته تلك مع أبيه، وأمه، وأخواته، يسامرهم، ويحدثهم عن حياته الجديدة، ويلمِّح ـ عامدًا ـ بين الحين والآخر إلى زميله ناصر، وأبيه الشيخ عبد الله، وعن عائلتهم الأصيلة، ومنزلتها المرموقة في حائل.

وقالت له رجاء:

ـ كل هذا الذي تقوله، يجعلني أزداد اقتناعًا بأنه لم يبق عليك سوى أن تتزوج، وبهذا تكتمل حياتك، وتتخلَّص من حياة العزوبة.

وشعر هشام بالحرج، فردَّ عليها بكلمات غامضة، ولكن رجاء لم تيأس بل عادت تقول:

ـ العروس جاهزة. . . وبكلمة واحدة منك أستطيع أن أنهي لك الموضوع في أربع وعشرين ساعة.

فقال لها أبوها ضاحكًا:

ـ ألا تتركين هذه السيرة أبدًا؟. . . الولد دوبه واصل مكة، وإنتي تبغي تجوزيه بالعافية؟.

وضحك الجميع، وردت رجاء:

ـ أصلي خايفة تضيع فاطمة من أيدينا . . . دي بنت زي السكرة.

وحار هشام كيف يرد، لولا أن أنقذه في تلك اللحظة صوت المؤذن يدعو للصلاة، فهبَّ واقفًا على الفور، وقال:

ـ ياه. . . حلَّ وقت الصلاة، ونحن منهمكون في الحديث.

وكعادته، كلما جاء إلى مكة، توجَّه إلى الحرم الشريف ليؤدي الصلاة فيه، برفقة والده، ولاحظ الأب أن ولده لم ينطق بكلمة واحدة، سواء في الذهاب أو الإياب، ولكنه لم يعلِّق على ذلك بشيء.

٢٩

مضى يومان بعد أن وصل هشام إلى مكة، وهو لما يجد الفرصة لكي يفاتح أهله فيما جاء من أجله، وكان أشد ما يضايقه ـ في داخله ـ أن رجاء كانت تفوِّت عليه فرصة الحديث، بإصرارها على الإشارة باستمرار إلى «فاطمة»، وإلى نيتها الأكيدة على أن تزوجهما قبل أن يعود هشام إلى مقر عمله في حائل.

ووجد هشام أن من الضروري أن يضع حدًّا لذلك كله، وأن يتخذ الخطوة اللازمة، وأن الإرجاء لن تكون نتيجته أكثر من زيادة الأمور تعقيدًا.

ودخل على والده عصرًا، وكان مختليًا بنفسه في مكتبته، وهو يقول:

ـ هل تسمح لي، يا أبي، بحديث خاص بضع دقائق؟.

فرفع الأب رأسه عن الكتاب الذي بين يديه، وخلع نظارته ببطء، وقال له بهدوء:

ـ إلَّا!. . . كنت أنتظر ذلك منذ وصولك.

ولم يفهم هشام ما قصده أبوه، ولكنه خطا بضع خطوات داخل الغرفة، فقال له أبوه باللهجة الهادئة نفسها:

ـ ألا ترى أن من المستحسن أن تقفل الباب كيلا يقطع علينا حديثنا أحد؟.

وتوقف هشام مترددًا، ثم تذكر أن من المحتمل أن تأتي رجاء في أية لحظة، فتحول، مرة أخرى، بينه وبين غرضه، فاستدار، وأدار المفتاح في القفل، ثم جلس قرب أبيه مطرقًا.

وطال الصمت، وأبوه لا يسأله عن شيء منتظرًا منه أن يبدأ الحديث، إلى أن تكلَّم هشام قائلًا بارتباك:

ـ الواقع يا أبي أنني جئتك في موضوع... أحببت أن أخاطبك فيه بصراحة كما عودتني، ولا أريد أن يتدخل أحد فيه قبل أن تبدي رأيك، وتعطيني قرارك.

فقال الأب بهدوء:

ـ إنني مصغ.

ـ الأمر يتعلق بالزواج.

ولم يعلِّق الأب، بل ظلَّ ينظر إلى ولده مصغيًا، الأمر الذي دهش له هشام، ولكنه ارتاح ـ بعض الشيء ـ إذ وجد أن أباه لم يبد أية ملاحظة سلبية.

وعاد هشام يبحث عن مدخل للحديث، ولكنه عجز، فابتسم أبوه، وقال له:

ـ أراك تجد حرجًا في أن تبلغني بما في نفسك... فهل تريد أن أبلغك أنا؟.

ونظر هشام إلى أبيه بدهشة، واستطرد الأب يقول:

ـ إنك قد وجدت الفتاة المناسبة هناك في حائل... و...

فقال هشام بسرعة وقد اتسعت عيناه:

ـ كيف عرفتم؟.

فقال الأب:

ـ تخميني إذًا في محله... اسمع يا ولدي... لا أحسبك تظن أن هذا الأمر قد خفي عليّ... لقد لاحظته عليك منذ قدومك... هل تذكر ليلة ذهبنا لصلاة الفجر في الحرم الشريف، وكنت صامتًا طوال الطريق على غير عادتك؟... لقد أدركت، إذ ذاك، أن هناك ما يشغلك وأنه لا يمكن أن يكون هذا الشاغل غير موضوع كهذا الموضوع.

وشعر هشام وكأن جبلًا قد انزاح عن كاهله، وسأل أباه:

ـ ولكن... كيف عرفت أنني وجدت الفتاة المناسبة في حائل؟.

فضحك الأب ضحكة هادئة، وقال:

ـ آه... هذه لا تحتاج إلى براعة خاصة... لقد لاحظت ضيقك بحديث أختك كلما أتت على ذكر فاطمة... فتأكدت من أنك قد اتخذت قرارك، وأن فاطمة ليست هي الفتاة التي تريدها.

فقال هشام بتأثُّر:

ـ الواقع أنك، يا أبتاه، قد أرحتني راحة عظيمة... كنت مهمومًا لا أدري كيف أزجي إليك النبأ... فإذا بك تسبقني وتبلغني بنفسك... وأود أن أقول لك أن الفتاة تدعى «هيا» وهي أخت زميلي ناصر، وابنة الشيخ عبد الله الذي حدثتكم عنه من قبل.

فقال الأب:

ـ المهم، يا ولدي، هو الأخلاق... والسمعة الحسنة، وبعد ذلك كل شيء يهون.

ـ إنها فوق ذلك متعلِّمة، وقد حصلت على الثانوية العامة.

ـ خير على خير... اتكل إذًا على الله يا ولدي.

وتنهَّد هشام بارتياح، فهو ـ إلى الآن ـ قد كسب نصف المعركة، وبقيت أمه «معركة الشكليات». ووجد نفسه، مرة أخرى، حائرًا في الكيفية التي يزجي بها بقية النبأ إلى والده، ولاحظ عليه الوالد أنه ما زال لديه ما يقوله، فقال له ليساعده على الكلام:

ـ هه... هل بقي شيء أيضًا؟... إذا أردت فإنني على استعداد لأن أسافر والوالدة إلى حائل لنخطب لك الفتاة.

وشعر هشام بالحرج، فقال بتردد:

ـ الحق، يا أبي، أن هذه أهم نقطة في الموضوع... لقد كنت على ثقة من أنك ستترك لي حرية الاختيار كما عودتني، والواقع أنني قد خطبت الفتاة فعلًا.

وبدا على الوالد وكأنه فوجئ بهذا النبأ، وأنه قد تأثَّر له، ولكنه تمالك نفسه، وقال بلطف:

ـ ولم يا ولدي... أليس لك أهل يخطبون لك كما يفعل كل الناس؟.

ـ أدام الله بقاءك يا أبي... حاشاي أن أغفل عن ذلك... ولكن الشيخ عبد الله والد هيا، أراد أن يثبت أنه ليس ممن يقيمون وزنًا للشكليات التي اعتاد الناس على الالتزام بها؛ بصورة طالما تسببت في إخفاق كثير من الخطوبات، والزيجات، فهو بعد أن اطمأن إليّ، وإلى أخلاقي، وسمعتي، تجاوز كل ما تعارف الناس عليه من تلك الأمور، وعقد قراني عليها في اليوم التالي مباشرة.

ـ وعقد لك عليها أيضًا؟

قالها الأب بكثير من الدهشة، ولمس هشام في لهجة أبيه رنة أسى، أو عتاب، فشعر بالألم، وأمسك بيد والده يقبلها بحرارة وهو يقول:

ـ سألتك بالله يا أبي أن تصفح عني... فوالله ما غاب عن ذهني أن عليّ أن أدع لكم تدبير هذا الأمر، ولكن الأمور جرت بشكل لم أكن أتوقعه.

وشعر الأب بأن تأثره قد تلاشى، ورأى في هشام ـ كما اعتاد أن يرى دائمًا ـ الابن المطيع الذي طالما رعاه، وتعهده منذ أن كان طفلًا، وإلى أن بلغ مبلغ الشباب، فضمه إليه، وقبله من خديه، وقال له والدموع تسيل على خديه:

ـ لا عليك يا ولدي... لا عليك... قد فعلت خيرًا إن شاء الله... وهي على أية حال شكليات كما قلت.

وهنا، فقط، أحسَّ هشام بأن الحمل الذي كان يوقر كاهليه قد انزاح، وأن أباه كفيل، بما له من كلمة حاسمة في البيت، بأن يضع الأمور في مواضعها، وأن يقنع الوالدة بالموافقة.

ويبدو أن أفكار الأب والابن قد التقت عند هذه النقطة، فقد قال له أبوه، وهو يربت على كتفه في حنان:

ـ دع لي مهمة إبلاغ والدتك وأختك... ولا تحمل هذا الهم... ولسوف تسير الأمور على ما نتمناه، إن شاء الله.

وعاد هشام يغمر يدي والده بقبلاته، وقد أخذ منه التأثر كل مأخذ، وشعر بأنه مهما كبر، ومهما حقق من تقدُّم في الحياة، فهو لا يعدو أن يظل طفلًا صغيرًا أمام أبيه، وأنه من ثم في حاجة إليه، وإلى معونته، وعطفه، وتوجيهه، وإرشاده.

٣٠

في المساء اجتمع شمل الأسرة، كالعادة، للسهرة... وأعدت لأبي هشام شيشته، واحتل مكانه في صدر الغرفة الواسعة، وارتفعت

الأصوات بالحديث تثرثر كالمعتاد في مختلف الأمور، بينما كانت رجاء منهمكة في شغل الإبرة وهي تشارك في الحديث دون أن ترفع رأسها، إذ كانت عيناها مركزتين على ما بين يديها.

وتنحنح الأب عدة مرات، فاتجهت أبصار الجميع إليه؛ لأن مثل هذه النحنحة المتواصلة تدل على أن لدى الأب شيئًا مهمًا يريد أن يزجيه إلى العائلة.

وسكتت الأصوات، وتعلقت الأنظار بسيد الأسرة، واضطرم وجه هشام بحمرة شديدة، إذ كان على علم بما سوف يدلي به الأب.

وقال الأب باسمًا، وهو يجيل بصره في أسرته؛ ليتوقف به على رجاء:

- عجيبة يا جماعة... الليلة دي ما سمعتكم جبتم سيرة زواج هشام... إيش الحكاية؟. هوَّنتوا وإلا إيش.

وتوقفت يدا رجاء عن الحركة، وأجابت أباها على الفور:

- هوّنا؟... كيف؟... أبدًا... أنا منتظرة الإشارة منكم.

فضحك الأب ضحكة هادئة، وقال لها بلهجة مداعبة وعتاب في آن واحد:

- وهو كان حد كلفك إنك تخطبيله، وتزوجيه؟

وردت رجاء ببساطة:

- أمال... كيف... طبعًا أنا متولية الموضوع ده من بدايته لغاية... لغاية المهر... المهر بس أنا مالي شغل فيه.

وضحك الجميع، وأحس هشام بالاختناق، إذ بدأ يترقب الصدمة التي سوف تصاب بها رجاء متى استرسل الوالد في الحديث، فأطرق وهو يدعو الله في سرّه أن تمر الأزمة على خير.

وقال الوالد:

ـ وإيش عرّفك أنه هشام يبغي يتزوج فاطمة... فاطمة بالذات؟... إيش عرّفك؟

ودون تردد أجابت رجاء:

ـ وهو راح يلاقي أحسن منها؟

ـ وإذا لقي؟... البنات قديش كثرهم.

وكأنما أحست رجاء ـ بغريزتها ـ بهدف الحديث، فقالت متسائلة بقلب واجف:

ـ يعني هشام يبغي فاطمة؟

وظل هشام صامتًا، وراحت الأم تدير وجهها بين المتخاطبين دون أن تنطق بكلمة واحدة.

وقال الأب:

ـ يا بنتي الزواج قسمة ونصيب.

ـ ماني فاهمة حاجة يا بوي.

ـ بصراحة كده... هشام يبغي واحدة ثانية.

وامتقع وجه رجاء فجأة، وظهرت عليها آثار الصدمة، بينما اتجهت أبصار الأم والأخوات إلى هشام؛ الذي أحس بأذنيه تكادان تلتهبان نارًا، وقد علت الحمرة وجهه.

وقالت رجاء بصوت واجف:

إيش الحكاية؟... ومين هي البنت التانية دي؟

فابتسم الأب في عطف، وقال:

ـ يا بنتي يا رجاء... كلنا مقدرين رغبتك في أنك تزوجي أخوك... ومقتنعين بالبنت اللي اخترتيها له... لكن إيش نسوي؟... هو يبغي واحدة تانية.

ـ مين هي؟... مين هيّ؟... أبغي أعرف.

ـ بصراحة يا جماعة... هشام خاطب واحدة تانية... خطب فتاة من حائل.

ـ فتاة من حائل!!

ردَّد الجميع الجملة مبهوتين، إذ بدت لهم الأمور أكثر جدية، بكثير، مما كانوا يقدرون.

ـ أي نعم... من حائل... بنت طيبة... ومتعلِّمة... ومن عيلة كريمة، وأهلها وافقوا خلاص.

وساد الغرفة صمت تام، حتى رجاء لم تجد جملة واحدة تعلِّق بها على هذا النبأ؛ الذي هزَّها، وصدمها، أمَّا الأم فقد اعتادت على أن توافق زوجها في كل ما يقوله، ومن غير أن تبذل أي عناء في التفكير، وما دام زوجها راضيًا عن هذه الخطبة المفاجئة كما يبدو من رنة صوته، فهي ـ إذًا ـ موافقة، ولتدع إلى وقت آخر شعور التأثر الذي أحسَّت به، إذ فهمت أن ولدها قد خطب الفتاة فعلًا، ولم يترك لها ـ من بعد أبيه ـ إتمام هذه المهمة التي تسعد لها أية أم كل السعادة، وتقبل على إجراءاتها ومقتضياتها بهناء، وجذل.

وأدار الأب وجهه في الحاضرات المبهوتات، وقال بدهشة:

ـ عجيبة... الود ما سمع منكم كلمة مبروك... يصح كده؟

وانهالت دموع الأم على خديها تأثرًا، وأقبلت على ولدها تقبله بحرارة في خديه وجبينه، وهي تقول بصوت باك:

ـ مبروك يا ولدي... ألف مبروك... ألف مبروك.

وشكر هشام لأمه عاطفتها النبيلة، ورد لها تمنياتها بأحسن منها، وشعرت رجاء بأن عليها أن تغالب شعور الأسف الذي خالجها، وأن من حق أخيها عليها ـ في كل الأحوال ـ أن تهنئه، وتبارك له.

وقامت إليه، وقبلته وهي تقول بتأثر:

ـ مبروك يا خوي. . . مبروك.

فقال لها هشام مداعبًا:

ـ من قلبك؟

ـ من كل قلبي!

وأقبلت الأختان الصغيرتان مهنئتين كذلك، وارتفع اللغط فجأة كما كان الصمت قد ساد فجأة، فالكل يريد أن يعلِّق على هذا النبأ، والكل يريد أن يبدي أعمق ما في صدره من مشاعر السعادة والارتياح لهذا الحدث المهم في حياة الأسرة، وأحست رجاء بأن العيون والأفكار مسلَّطة عليها، وأن الجميع يرقبون حركاتها، ويترقبون تصرفاتها، فهذه الخطبة غير المتوقعة تعدّ هزيمة لها ولا ريب. . . ولكن هذا يجب ألا يمنعها من أن تسمو على هذا الشعور، وأن تتمنى لأخيها السعادة والتوفيق مع الفتاة التي اختارها قلبه.

وتمتمت رجاء بصوت خافت:

ـ لو كنت قلت لنا بس.

فقال هشام بسرعة:

ـ هادي مسألة بسيطة. . . بعد يومين ثلاثة تنتهي إجازتي، ونروح كلنا إلى حائل. . . وأنا متأكد من أنه البنت راح تعجبك.

ـ إيش اسمها؟

ـ هيا.

ـ هيا؟

تساءلت الأم بسذاجة فقالت:

ـ مدري إيش يعني «هيا» بس والله اسم حلو.

وتنفَّس هشام الصعداء، وتبادل مع أبيه نظرة سعيدة، فقد زالت

صعوبة أخرى من الصعوبات التي كان يخشاها، ويتخوَّف منها.

٣١

ضحك الأب وهو يقول لهشام بعد أن انفردا، في اليوم التالي، في غرفة المكتبة:

ـ ها قد اجتزنا الأزمة الأولى بخير، والحمد لله... وأصبح الجميع، وخاصة رجاء، أمام الأمر الواقع.

وشعر هشام بكثير من التأثر، وهو يستمع إلى كلام والده، فهو يخاطبه كندّ، وكشريك في موضوع يهمه، وكان هذا الأسلوب الذي يتبعه الوالد في معاملة ولده، هو السبب الذي كان يدعوه ـ مذ وعى على الدنيا ـ لأن يبذل جهده كي يكون في مستوى هذه المعاملة التي كان الوالد يهدف منها إلى إيقاظ روح الرجولة فيه باستمرار؛ إذ كان يعامله كرجل، وليس كطفل أو فتى، وإن هشام ليذكر أنه ما كان يزعج أباه شيء قدر أن يراه يتصرف كطفل، وكثيرًا ما قال له أبوه في حزم إذ يراه يبكي لأي سبب من الأسباب:

ـ ما هذا الذي أراه يا هشام؟... ألا تخجل من نفسك إذ تبكي وأنت رجل؟... الرجال لا يبكون يا ولدي.

وعندما بلغ هشام مرحلة الدراسة الثانوية، كان أبوه يحرص على إشعار ولده بأنه قد بات رجلًا مثله، وأن عليه أن يعدّ نفسه باستمرار لتحمل مسؤوليات الحياة... فكان يتحدث إليه حول بعض المشكلات التي تواجهه، ويأخذ رأيه فيها، كما كان يشركه في القيام بأعباء إدارة البيت، والإشراف عليه، بل لقد عهد إليه بتولي أمور المصروف اليومي للبيت، وكان كثيرًا ما يبعث به لأداء بعض المهمات في جدة والرياض، ويصحبه معه في زياراته لبعض الشخصيات المهمة، كما كان يطلب منه

أن يقرأ له ـ في أوقات فراغه ـ في كتاب من الكتب الكثيرة التي تحفل به مكتبته.

كان هذا الأسلوب في المعاملة هو الذي جعل هشام ينظر إلى التفوق في دراسته دليلًا يقدِّمه على أنه جدير بهذه الثقة التي وضعها فيه أبوه، والأمل الذي يعقده عليه؛ ولهذا كان انزعاجه شديدًا حين لم يحصل على التقدير الذي كان يأمل فيه عند تخرجه من الجامعة.

وكان حديث الأب الآن، عن ارتياحه لاجتيازهما ـ معًا ـ أزمة إبلاغ العائلة بنبأ الخطبة، داعيًا لشعور الابن بالارتياح، والتأثر، فهو يرى في أبيه سنده الكبير، من بعد الله، إليه يركن، وفي رحاب عطفه ومحبته يجد الطمأنينة والأمان.

واستطرد الأب يقول:

ـ بقيت أمامنا الآن أزمة أخرى، وهي أزمة إبلاغهن أن العقد قد تم، ولا ندري كيف يكون رد الفعل.

وابتسم هشام في سعادة، وأحس أن كل شيء سيكون، بإذن الله، على ما يرام، ما دام الأمر قد بات بين يدي والده، وأنه سيعالجه بحكمته وأسلوبه الخاص، وأجاب على كلام والده بقوله:

ـ البركة فيك يا سيدي الوالد... والواقع أنني لم أكن قلقًا إلا من ناحية رجاء... فأنا لا أريد أن ينهار أملها في تزويجي من فاطمة.

ـ كله قسمة ونصيب يا ولدي... والتدابير، من قبل وبعد، لله سبحانه.

وفتح الباب، ودخلت الأم، فتوقفت لحظة وكأنها تخشى أن تكون قد جاءت في وقت غير مناسب، لولا أنها لاحظت جو الارتياح الذي يسود الغرفة، فتقدمت إلى الإمام، واتخذت مجلسها في مواجهة ولدها:

ـ تعرف يا هشام؟... إنني لم أنم الليلة البارحة.

ـ خيرًا إن شاء الله يا أماه... لم؟

لم تسألني بعد أن أنهيت لنا ذلك النبأ؟... منذ صغرك وأنا أحلم باليوم الذي أتولى فيه بنفسي أمر زواجك... أخطب لك... وأختار... وأنت ترفض هذه... وتأبى تلك... إلى أن توفق إلى من فيها النصيب.

وضحك الرجلان وقال الأب:

ـ يا ستي احمدي ربك... لقد وفّر عليك هذا العناء.

ـ عناء؟

تمتمت الأم في حيرة، فهي قد عاشت حياتها كلها من أجل أسرتها، ولم يخطر ببالها أن يكون في أي جهد تبذله في سبيل زوجها، أو أولادها أي عناء.

ولاحظ هشام حيرتها فقال لها:

ـ لقد قالها سيدي الوالد قبل دخولك بلحظات... كله قسمة ونصيب يا أماه.

وعلَّقت الأم:

ـ لا إله إلا الله.

وبدا وكأن على لسان الأم سؤالًا حائرًا لا تدري كيف تدلي به، ولاحظ هشام حيرتها؛ فقال لها بسرعة:

ـ إنني على ثقة من أنها ستعجبك... إنها بنت طيبة... من عائلة طيبة... وفيها كل الصفات التي تأملين فيها لزوجة ولدك.

وأشرق وجه الأم، إذ كان هذا هو ـ بالضبط ـ السؤال الحائر على شفتيها؛ فقد كانت تريد أن تعرف المزيد عن زوجة ولدها:

ـ ولكن يا ولدي... أخشى أن يكون هناك شيء من الاختلاف بين حياتنا وحياتهم... وتقاليدنا وتقاليدهم.

ـ ما هذا الكلام يا أماه؟ . . . حياتهم مثل حياتنا . . . وتقاليدنا مثل تقاليدهم، إننا، جميعًا، أبناء وطن واحد.

ـ آسفة يا ولدي. . . ولكنني لم أغادر مكة في حياتي. . . وليس لي معرفة بسواها من المدن.

ـ يسعدني، يا أماه، أن تسافري خارج مكة لأول مرة بسببي. . . لكي تزوري أهل زوجتي، وتتعرفي عليهم وعليها.

ـ زوجتك؟ . . . تقصد. . . خطيبتك؟

تساءلت الأم باهتمام، فعاجلها زوجها بالجواب:

ـ لا يا ستي. . . ليست خطيبته. . . وإنما زوجته.

وشهقت الأم بدهشة، وضربت صدرها بيدها، وهي تردد بدهشة:

ـ زوجته؟

وضحك الأب، وغمز بعينه لهشام، فهما الآن يجتازان الأزمة الثانية.

وتولى هشام الشرح، والإيضاح.

ـ والدها، يا أماه، رجل له مركزه في حائل. . . وهو رجل حكيم، واسع الأفق، أراد أن يضرب للآخرين مثلًا بنفسه، كي يتركوا المظاهر الجوفاء التي اعتادوا عليها في إقامة حفلات الزواج، ويوفروا المصاريف الباهظة التي تنفق لمجرد التباهي بتلك المظاهر التي لا يلبث أن ينساها الناس بعد فترة قصيرة. . . فالمهم هو الأخلاق، والسمعة الطيبة، والجدارة، أما الحفلات والمهور الكبيرة والولائم فهي كلها أشياء ليست بذات بال.

ونظرت الأم إلى هشام بدهشة شديدة، ونقلت بصرها بينه وبين أبيه، فرأت على وجه الأب تأييدًا وارتياحًا لما قاله الابن، ولكنها ـ هي ـ لم تقتنع، فقالت بلهجة فيها من الاستنكار أكثر مما فيها من الدهشة:

ـ تعني أننا لن نقيم حفلة عظيمة مثل، أو أحسن، من حفلة ابن عمتك الذي تزوج في العام الماضي.

وأجابها الأب:

ـ لا يا ستي... لقد بت مقتنعًا بأن تلك الحفلات المبالغ فيها هي، فعلًا، مظاهر جوفاء... وأن علينا أن نبدأ بأنفسنا... سواء هنا في مكة... أو هناك في حائل.

ومع أن الأم لم تقتنع، وأن خيبة أمل مريرة قد استقرت في أعماق قلبها، إلا أنها قد اعتادت على أن توافق زوجها على كل ما يقول، فهو أكثر خبرة، وعلمًا، وحكمة، وما دام يقول: إن هذا هو الصواب، فهو ـ إذًا ـ صواب، وما كانت لتخالف له رأيًا، أو تعترض على موقف.

وختم الأب هذا الحديث قائلًا:

ـ عليك الآن، يا ست أم هشام، أن تفهمي رجاء ذلك كله بطريقتك الخاصة... وإنني على ثقة من أنها ستفهمه، فهي واعية، ومثقفة، وأن تستعدوا جميعًا للسفر إلى حائل؛ لكي نرى زوجة ابننا العزيز.

٣٢

عندما أقلت الطائرة العائلة بأكملها في طريقها إلى حائل، كان هشام يشعر بالارتياح الشديد، فهو قد اجتاز الأزمة، التي كان يتخوف منها، بنجاح تام، ولم يبق سوى أن تلتقي العائلة بهيا وأهلها، لتشاركه اطمئنانه إلى حسن اختياره، وصواب قراره؛ ليبدأ ـ من ثم ـ صفحة جديدة في حياته، بعد أن اكتملت هذه الحياة، وباتت له شريكة ـ وأية شريكة ـ تقاسمه السراء والضراء.

وكان هشام يختلس بين الفينة والفينة نظرة إلى أخته رجاء، يريد أن

يستشف من وجهها ما في داخل صدرها تجاه المفاجآت التي واجهها بها، والتي أحبطت خطتها التي كانت تعتز بها كل الاعتزاز لتزويجه من «فاطمة».

والواقع أن رجاء تقبلت النبأ بهدوء غير متوقع، وكانت دهشتها أكثر من انزعاجها، صحيح أنها وجمت بادئ الأمر، عندما أنهت إليها والدتها النبأ، ولكنه كان وجوم المفاجأة أكثر منه وجوم الانزعاج... ولم تزد عن أن قالت:

ـ بالله عليكِ يا أمي؟... إذًا فقد فعلها هشام من ورايا؟

ونهضت على الفور متجهة إلى غرفة هشام، الذي قرأ في عينيها سعادة وعطفًا لم ير مثلهما من قبل، فأقبلت عليه، تقبل وجنتيه، وهي تردد عبارات التهنئة، دون أن تقول كلمة عتاب واحدة.

وحين أراد هشام، إزاء هذا الموقف الذي لم يكن يتوقعه، أن يشرح لها الأمر، وضعت أصبعها على فمها، وقالت له:

ـ هس... ولا كلمة... الأمور قسمة ونصيب... والحمد لله على كل حال... إن كل ما يهمني هو أن تكون سعيدًا يا أخي.

ـ ربنا يخليكِ لنا يا رجاء... ونفرح بك قريبًا كما فرحت بي.

وتولت رجاء بنفسها شراء الهدايا التي ستأخذها العائلة معها إلى حائل، وأبدت من الحماسة والاهتمام بالرحلة، وكأنها هي التي اختارت هيا لأخيها، وأنها هي المسؤولة عن كل ما يتعلق بالتعبير عن فرحة العائلة بهذا الحدث السعيد.

ولم يعد ذكر فاطمة يرد على لسانها قط، بل كان كل حديثها ـ وهم في مكة ـ يدور حول هيا، شكلها، جمالها، تعليمها، أهلها، وكانت تختتم هذا الحديث باستمرار عن التساؤل متى ينتقل هشام وعروسه إلى مكة؛ لكي يلتئم شمل العائلة، وتكتمل ـ بذلك ـ سعادتها.

وفي المطار كان الشيخ عبد الله، وولده، وبعض رجال العائلة في انتظار صهرهم وعائلته، حيث انتقلوا جميعًا إلى المنزل؛ ليتم اللقاء بين العائلتين اللتين ربطت بينهما صلة المصاهرة، واللتين سرعان ما شعرتا بالارتياح المتبادل، وتبدد ـ من ثم ـ كل ما كان يقلق هشام، فلقد وقعت زوجته من أمه وأخواته موقعًا حسنًا، وبادلتهن هيا شعور الطيب بمثله، فرحن ـ إذ اجتمعن إلى هشام وأبيه في الجناح الذي خصص لهم من بيت الشيخ عبد الله ـ يثنين على جمال هيا، ولطفها، وأدبها، وكانت رجاء هي الأكثر حماسة في الإشادة بمزايا هيا، ومناقبها، الأمر الذي كان يزيد من سعادة هشام، وشعوره بأنه قد أحسن الاختيار.

وانقضت الأمور على خير ما يرام، وأقيم حفل بسيط دعي إليه أعيان المدينة ووجهاؤها، وبعض زملاء هشام، وظلت العائلة في حائل أسبوعًا كاملًا خفقت خلاله قلوبها بالفرح، والبهجة، والسعادة، واطمأنت إلى أن هشام قد بات في خير حال، وأن له في هيا نعم الزوجة، وشريكة الحياة.

٣٣

عاد هشام من المطار بعد أن ودَّع أباه، وأمه، وأخواته، وتوجَّه مباشرة إلى مكتبه، ليقول له أحد زملائه أن قائد المنطقة يطلب منه أن يراجعه فور وصوله.

وتوجَّه هشام إلى مكتب قائد المنطقة وهو خالي الذهن تمامًا مما يريده منه، وفي ظنه أن هذه المقابلة هي مثل غيرها من المقابلات التي كانت تتطلبها مصلحة العمل في بعض الأحيان.

ورحَّب قائد المنطقة به أجمل ترحيب، وأذن له بالجلوس، وكرر له تهانيه بالزواج، ثم صمت بعض الوقت وهشام ينظر إليه منتظرًا أن يعرف

الغاية من هذه المقابلة. . . وارتسمت على وجه قائد المنطقة ابتسامة، وهو يتناول من بين الأوراق برقية، ويقدمها لهشام وهو يقول:

ـ منذ الآن سوف تقيم في إحدى فلل الضباط، لقد استأذنت سمو الوزير، وجاءتني برقية بالموافقة على ذلك.

وشعر هشام بالتأثر، فهو لم يكن يتوقع أن يهتم قائد المنطقة بأمره إلى هذا الحد، وأن يتخذ هذا الإجراء الذي يدل على التقدير، والرعاية، وقبل أن يجد الكلمات المناسبة للتعبير عن شكره، وامتنانه، قال قائد المنطقة:

ـ إنني أقدِّر فيك إخلاصك، وجهدك، ومثابرتك في أداء عملك، وواجبك. . . ولهذا حرصت على أن أقدِّم لك ما يعبِّر عن هذا التقدير بصورة عملية.

وازدادت ابتسامة قائد المنطقة اتساعًا، وهو يتناول ورقة أخرى كانت أمامه، ويقدِّمها لهشام هو يقول:

ـ وهذا تكريم آخر من سمو وزير الدفاع والطيران للمجدِّين العاملين. . . إنه هدية زواجك. . . أمر بسيارة جديدة.

ووجد هشام نفسه عاجزًا عن الكلام، فهو ـ مع يقينه أنه إنما يؤدي واجبه في عمله ـ قد شعر بأنه قد نال من التكريم، ماديًا ومعنويًا، أكثر مما يأمل، وأكثر مما يخطر له ببال.

واستطاع أن يجد نفسه أخيرًا، بعد وقع مفاجآت هذه المقابلة السارة، فراح يبدي لرئيسه شكره وامتنانه على ما أحيط به من عطف ورعاية، وطلب الإذن بأن يرفع لسمو الوزير هذا الشكر، وذلك الامتنان.

وخرج من مكتب قائد المنطقة، وقد التهب حماسة ورغبة في أن يتفانى في عمله إلى أقصى حد يستطيعه؛ ليكون في مستوى ما نال من ثقة، وتكريم.

ـ تدرين يا هيا؟... إنني في أشد الدهشة، كيف كنت أعيش قبل أن أراك، وأن أكمل حياتي بك... إنني، ولله الحمد، أشعر بأنه لم يعد ينقصني شيء.

قال هشام لزوجته «هيا»، وهما جالسان في مجلس الفيلا التي أعطيت له في حي الضباط، وكانت هيا قد أضفت على الفيلا لمسات تنم عن ذوقها الرفيع، وأنوثتها الرقيقة، الأمر الذي جعل هشام يشعر بسعادة لا حدَّ لها وهو يلج الباب كلما عاد من عمله.

كان قد مضى على زواجهما شهر واحد، اكتشف هشام خلاله، أن الله قد رزقه بالزوجة الصالحة التي يتمناها كل إنسان، وأن تلك المصادفة العابرة التي جعلته يراها، ويتعلق بها، كانت نقطة تحول في حياته، أسفرت عما هو فيه الآن من سعادة وهناء، يجالس زوجته، وأمامهما أطباق من الفواكه والمكسرات، وهي تقشر له التفاح وتقدِّمه إليه.

وأطرقت هيا عندما سمعت شريك حياتها يعرب عن سعادته بتلك الحرارة، وقالت له بخجل:

ـ إنني أبادلك هذا الشعور بمثله... وأرجو أن يديم الله علينا هذه النعمة.

وصمتت هيا، وكأنها كانت تهم بأن تقول شيئًا ثم عدلت عنه، ولاحظ هشام ذلك فسألها:

ـ يبدو لي أن في فمك كلامًا تريدين أن تقوليه.

فافتر ثغرها عن ابتسامة سعيدة وهي تقول:

ـ الحمد لله... يسعدني جدًا أن تكون العلاقة بيننا قد وصلت إلى حد يجعل أحدنا يحس بما يشعر به الآخر.

ـ هل تشكين في ذلك؟

ـ أبدًا بالطبع.
ـ هه... ما الذي كنت تريدين أن تقوليه إذًا؟
فتشاغلت هيا بتقشير تفاحة، وقطعها إلى أجزاء صغيرة وهي تتكلم:
ـ الواقع أنني أحسد نفسي على ما أنا فيه... وإنني لشديدة الفخر بك... ولكنني أريد أن أسألك... عن مشاريعك بالنسبة للمستقبل.
ـ المستقبل؟... المستقبل بيد الله... وأعتقد أنك تعرفين شيئًا عن نظام الخدمة في القوات المسلحة... كل كذا سنة أضيف نجمة جديدة إلى كتفي... إلى أن أصبح لواء... وربما فريقًا.
قال هذا، وأردفه بضحكة، فهو قد حسب أن زوجته إنما تتكلم كلامًا عامًا، ولا تقصد شيئًا معينًا.
وعلَّقت هيا بقولها:
ـ كلام جميل... ولكنني أريد أن تحمل أرقى الشهادات... وأن تتقدم في حياتك بسرعة، وثبات.
ـ عندي بكالوريوس في الهندسة.
ـ هذا لا يكفي.
ـ ماذا تعنين؟
ـ إنني أتساءل... لماذا لا تسعى إلى الابتعاث، والحصول على شهادات أعلى، تفتح أمامك أبواب المستقبل، وتتيح لك فرصة التقدم بشكل أفضل.
وقطب هشام حاجبيه، فقد فوجئ بكلام هيا، وتذكر في الوقت نفسه أمنيته القديمة في الابتعاث... للحصول على شهادات أعلى من جهة... والتمكن من اللغة الإنجليزية من جهة أخرى... ولكنه نسي هذا الأمل، أو تناساه، بعد التحول الذي تم في حياته، والسرعة الخاطفة التي أصبح معها رب بيت ومسؤولًا عن عائلة.
ونظر إليها، فوجدها تنظر إليه بلهفة وكأنها تنتظر جوابه، فابتسم وقال:

ـ الحق أنك قد ضربت على الوتر الحساس في نفسي... قبل الزواج كانت البعثة هي أملي، ومبتغاي... ولكنني نسيتها تقريبًا منذ أن خطفت قلبي في ذلك اليوم المشهود.

فقالت باسمة:

ـ من فضلك... لسنا الآن في موقف غزل... دعني من «خطفت قلبي» و«أسرت فؤادي»... وتكلَّم كلامًا عمليًا.

ـ ألا تختصرين الطريق فتقولين لي ماذا تريدين أن تقولي؟

ـ لم لا؟... إنني، كما قلت، أريد لك التقدّم المستمر، والعلم هو سبيل التقدُّم، وأعتقد أن رضى رؤسائك عنك سوف يجعلهم يساعدونك في الحصول على بعثة... وسوف تجدني إلى جانبك، أهيئ لك كل الأسباب كي تستأنف دراستك في أفضل الأجواء.

وشعر هشام بإحساس طاغ بالمحبة والتقدير لهذه الزوجة الطموح، فأمسك بيديها في يديه، وقال لها بحماسة:

ـ إنني لا أدري كيف أعبر لك عن شعوري... حقًا لقد أكملت حياتي أكثر مما كنت أتوقع... ليكن يا حبيبتي... غدًا إن شاء الله أبدأ مساعيّ من أجل البعثة.

ـ عظيم... هذا هو أملي فيك... ولكن ليكن معلومًا لديك منذ الآن أنني لا أقبل أقل من الدكتوراه.

ـ بإذن الله يا حياتي... بإذن الله.

٣٥

هش قائد المنطقة في وجه هشام عندما استأذن في الدخول عليه، صباح اليوم التالي، ورحَّب به بحرارة، ثم طلب منه أن يجلس، وأن يتكلم فيما جاء فيه.

ووجد هشام شيئًا من الحرج في أن يفضي بما جاء من أجله، ولكن طيف هيا مر في خاطره كالبرق الخاطف، فاستمد من هذه الذكرى شجاعة جعلته يعزم على الكلام، ذلك أنه خجل أن يعود إلى زوجته من غير أن يأتيها بنتيجة بعد أن وعدها وعدًا قاطعًا بأن يعرض الأمر على قائد المنطقة في الغد، وكان سبب شعوره بالحرج من الإفضاء لقائد المنطقة هو حسن المعاملة الفائق الذي يعامله به، ورغبته في ألا يظن القائد بأن هشام يستغل هذه المعاملة.

- هه... خيرًا؟

تساءل قائد المنطقة، وهو ينظر إلى هشام باهتمام...

وتحاشى هشام النظر في عيني القائد، وهو يقول له بشيء من الارتباك:

- الواقع... الواقع يا سيدي... أنني جئت في موضوع... موضوع شخصي... وأود أن أبدي لك، قبل أن أعرضه، أنني شاكر ومقدر لكل ما تحيطني به ورؤسائي من رعاية، وحسن معاملة.

- هذا هو أقل ما تستحق يا بني... ولكل مجتهد نصيب كما هو معروف... تكلم على راحتك، وقل ما شئت.

- لقد جئت أسأل... ما إذا كان ممكنًا أن أحصل على بعثة دراسية للخارج... لأرفع من مستواي الفني والثقافي... وأحصل على شهادات أعلى تؤهلني لأداء واجبي على وجه أفضل.

وابتسم قائد المنطقة في عطف وتفهم، وقرأ هشام في ابتسامته هذه معنى الموافقة والتأييد، فشعر بارتياح عميق، ثم أصغى إلى رئيسه وهو يقول:

- هذا من حقك يا هشام... هذا من حقك... ما دمت قد أثبت كفاءة وتفانيًا في عملك، وأمضيت أكثر من سنتين في الخدمة بعد

تخرجك من كلية الهندسة. . . فإن من حقك أن تبتعث أسوة بالمئات من زملائك.

وقال هشام بصوت يخنقه التأثر:

ـ إنني عاجز عن الشكر يا سيدي.

ـ بالعكس. . . فلا شيء يستحق الشكر. . . والحقيقة أن هذا الموضوع لم يكن غائبًا عن بالي، وكنت أريد أن أفاتحك به قبل زواجك. . . ثم قلت في نفسي: إنه إذا كانت لديك رغبة فيه فسوف تتقدم بها في الوقت الذي يلائمك.

ونهض هشام، وأدى التحية العسكرية للقائد، وهو يقول:

ـ ألف شكر. . . ألف شكر يا سيدي.

ومدَّ قائد المنطقة يده مصافحًا وهو يقول:

ـ راجعني بعد أسبوع بإذن الله. . . وآمل أن أبلغك أطيب الأنباء.

ـ ألف شكر يا سيدي.

واستدار نحو الباب، والفرحة تتوثَّب في ضلوعه.

وحين وصل إلى مكتبه، همَّ أن يتصل بزوجته تلفونيًا ليبشرها بنتيجة مقابلته لقائد المنطقة، ولكن خاطرًا مضحكًا خطر بباله، جعله يبعد يده عن سماعة التلفون، وقد قرَّر في نفسه شيئًا.

فبعد نهاية الدوام، وعودته إلى بيته، فوجئت هيا بوجهه المكفهر وهو يدخل البيت، ثم الزفرة الحرّى التي أطلقها وهو يتهالك على أقرب مقعد، والنظرة الحزينة التي أطلت من عينيه.

وانقبض قلب الزوجة، وتساءلت في قلق:

ـ خيرًا يا هشام. . . ماذا هناك؟

ولم يجبها، واكتفى بأن أطلق زفرة أخرى.

فاقتربت منه، وسألته بلهفة:

ـ بالله عليك تكلَّم... هل حدث شيء؟.. هل رفضوا البعثة؟

فهز رأسه إيجابًا في أسى، وظلَّ على إطراقه.

واحمر وجه هيا، وبدا عليها أنها قد صدمت للنبأ، فضغطت بأسنانها على شفتها السفلى في عصبية، ثم راحت تتمشى في الغرفة، جيئة وذهابًا بانفعال، وكان هشام يبذل مجهودًا خارقًا لكي يحتفظ بمعالم وجهه الحزينة المصطنعة، وآلمه أن يسبب لها هذا الانزعاج بدل أن ينهي إليها النبأ السعيد، ولكنه قرَّر السير في اللعبة إلى النهاية ليرى ما يكون منها.

وتوقفت هيا أخيرًا عن السير، وجلست على طرف الكرسي، وضمت رأس هشام إليها كالأم الرؤوم، وقالت له بصوت جهدت في أن تمنع ارتجافه:

ـ لا بأس... لا بأس يا حبيبي... لن نيأس... سوف نحاول مرة ثانية وثالثة ورابعة... فلنؤجل البحث في هذا الموضوع الآن... وتقوم بعد فترة بمحاولة أخرى.

وهزته كلماتها في أعماقه هزًا عنيفًا، فهذا الإهاب الأهيف الذي يضم هذه المرأة الجميلة، إنما يضم كذلك إنسانة ذات إرادة وتصميم، لا تيأس من العقبات، ولا توهن من عزمها الصعوبات.

وشعر هذه المرة بأسف حقيقي لقيامه بهذه المزحة التي رآها الآن سخيفة، وتساءل عمّ ستفعله عندما تعرف أنه إنما كان يمازحها.

ورد عليها بصدق، وتأثر:

ـ هيا... يا زوجتي المحبوبة... إنني لأحسد نفسي على أن الله قد منَّ علي بزوجة مثلك... لم أكن أظنك قوية الإرادة والأعصاب بهذا المقدار.

ـ إنني حريصة جدًا على ألا تشعر بالأسف... ويهمني أن تظل سعيدًا دائمًا.

ـ إنني سعيد ما دمت بجانبك.

ـ والآن، دع الأسف جانبًا، وقل لي ماذا دار بينك وبين قائد المنطقة ولماذا، وكيف رفض ابتعاثك؟

ومط هشام شفتيه بحركة مرحة، وقال بصوت خافت مسموع:

ـ آه... دخلنا في الجد.

ـ تكلَّم.

ـ سأتكلَّم... ولكن بشرط أن تجلسي هناك... بعيدًا عني.

ـ لماذا؟

ـ ستعرفين عندما تسمعين.

ونهضت هيا لتجلس على المقعد البعيد الذي أشار إليه هشام، واتجهت إليه بكليتها وهي تقول:

ـ ها قد ابتعدت... ما أغرب أطوارك... قل يا سيدي ولا تخف.

فقال هشام بسرعة:

ـ قلت لقائد المنطقة كيت وكيت... فأجابني بأن من حقي الابتعاث بعد أن أثبت جدارة وكفاءة في عملي، وأنه بالتالي سيرفع للجهات المختصة عني لابتعاثي.

وظلَّت هيا صامتة فترة، فهي قد فوجئت بما يقول، وبدا عليها وكأنها لم تفهم، أو أنها تستوعبه شيئًا فشيئًا، حتى إذا تبينت فحوى النبأ السعيد، أشرق وجهها بالفرح الشديد، ثم قفزت نحوه وهي تقول بمرح وسعادة:

ـ آه... الآن عرفت لماذا طلبت مني أن أجلس بعيدًا عنك... خفت أن أخنقك بعد أن أتبين أنك لم تقل الحق حين زعمت أن طلبك قد رفض.

فقال لها ضاحكًا وهو يطوق خصرها بذراعه:

ـ أجل... هذا هو الصحيح... وصدقيني أنني ندمت في أعماقي أشد الندم حين رأيت انزعاجك... أردت، في الحقيقة، أن أمازحك، ولكن الجدية التي أخذت بها الموضوع جعلتني أخجل، وأندم.

ومدت يديها الاثنتين على عنقه، وهي تقول له بمرح:

ـ ماذا أفعل بك؟... ماذا أفعل بك؟... خضيتني يا شيخ... الله لا يسامح عدوك.

ثم اتخذت ملامحها سمة جدية، وهي تقول:

ـ المفروض أن أعاقبك بحرمانك من الغداء... ولكن نفسي لا تطاوعني، فهيا إلى المائدة... وبعد الطعام نعقد جلسة لبحث الموضوع واتخاذ المقررات اللازمة.

٣٦

لم تمض غير شهور قليلة حتى كان هشام وهيا في طريقهما إلى مكة، حيث ستقيم هيا مع أهله ريثما يستكمل إجراءات ابتعاثه في الرياض.

وكانت فرحة العائلة بلقائهما غامرة، فقد استقبلهما الجميع بالتحيات والقبلات، وإن لم تخل وجوههم من الدهشة لهذا القدوم المفاجئ.

وحين شرح لهم هشام الأمر، سرّ الوالد سرورًا عظيمًا، ولكنه قال لهشام معاتبًا:

ـ متى يا ولدي تكف عن أسلوب المفاجآت هذا؟... كان عليك أن تخبرنا ولو تليفونيًا على الأقل.

وعلقت رجاء على كلام أبيها قائلة بلهجة ذات مغزى:

ـ أصله هشام دايمًا كده... يخلينا نفتكر حاجة... ويروح هوّ عامل حاجة تانية.

وقالت لهم هيا ضاحكة:

ـ لو تعلمون ماذا فعلي بي عندما جاءني في اليوم الذي فاتح رئيسه في موضوع البعثة... لقد خضني خضة... الله لا يوريكم.

وارتفعت الضحكات من الجميع، وراحت هيا تروي لهم ما حدث، وتقلَّد صوت هشام وحركاته عندما أبلغها بفشل مسعاه، وتصف لهم شعور الصدمة الذي انتابها، ثم انقلابه إلى فرح غامر، وختمت هيا كلامها بقولها:

ـ بس الحمد لله... هوّ خد درس من تلك المزحة... فعندما جاءت برقية وزارة الدفاع بالموافقة، وبانتقاله للرياض لاستكمال الإجراءات أعطاني صورة البرقية ببساطة... ولم يحاول أن يعيد معي تلك المزحة.

وأقبلت العائلة على هشام تسأله تفاصيل هذه البعثة، وأين ستكون، وما هي الشهادة التي سيحصل عليها، وكم تستغرق مدة الدراسة، وهل سيرونه خلال مدة الابتعاث و... و...

وقاطعهم هشام قائلًا:

ـ حيلكم... حيلكم... واحدة واحدة... الشهادة التي سأحصل عليها هي الماجستير... ومدة الدراسة متوقفة على الجامعة التي سألتحق بها... ولكنها في حدود أربع سنوات. أما مكان الدراسة فأغلب ظني أنه سيكون الولايات المتحدة... وسوف أراكم وترونني، بإذن الله، خلال العطل الدراسية الطويلة هه... هل هناك أسئلة أخرى؟

ومسحت الأم دمعة سالت على خدها على الرغم عنها، وقالت بصوت باك:

ـ ربنا يكون معاك يا ولدي. . . راح توحشنا مره.

ـ ما تشوفي وحش يا أمي. . . إن قلبي سيظل معكم دائمًا كما تعلمين.

وبينما هم في حديثهم، رن التلفون، ورفع الأب السماعة، وأصغى قليلًا، ثم قال:

ـ لحظة واحدة.

ـ تليفون لك. . . من الرياض.

ـ من الرياض؟. . . غريبة.

وأخذ السماعة ليأتيه صوت صديقه صلاح عبر أسلاك التلفون وهو يحييه، ويسأله عن صحته، ورد هشام بابتهاج على صديقه، فهو لم يره منذ أن تخرجا من الجامعة، ولم يعد يعرف عنه شيئًا، وفوجئ عندما قال له صلاح أنه قد التحق بعد التخرج بوزارة الدفاع والطيران، وإن التحاقه هذا كان بسبب اختيار هشام نفسه لهذا الاتجاه، إذ اقتنع بوجهة نظره حين تحدثا ـ مع باقي الزملاء ـ في هذا الموضوع، وأضاف صلاح أنه لم يكد يقرأ اسم هشام بين المقرر ابتعاثهم إلى الخارج حتى اتصل به في حائل، فقيل له أنه قد ترك الخدمة هناك، وأنه في طريقه إلى مكة، ومنها إلى الرياض.

وتبادل الزميلان التهاني، وتواعدا على لقاء قريب في الرياض، وزمالة دائمة ـ إذا أمكن ـ خلال البعثة.

٣٧

والواقع أن هشام قد لاحظ تغييرًا ملحوظًا في شخصية زميل الدراسة القديم عندما التقاه في الرياض، بعد تلك المدة التي فرقت بينهما عقب التخرج.

فلقد تخلى صلاح ـ كما لاحظ هشام ـ عن كبريائه، وعنجهيته اللتين عرف بهما بين زملائه من قبل في الكلية، وغدا إنسانًا ودودًا وطبيعيًا في تصرفاته، وإن كان يحتفظ بجديته وعقله المنظم الذي لا يهمل أدق التفاصيل، فقد فاجأ هشام بإبلاغه أنه قد دعا من استطاع الاتصال به من زملائهم القدامى في الكلية، ممن كانوا في الرياض، ليحتفلوا جميعًا بلقائهم بعد أن فرقت الأيام بينهم، واتخذ كل منهم في الحياة مسارًا يتفق مع ميوله، وظروفه.

وفي المساء كان اللقاء الحميم بين زملاء الدراسة.

فقد حضر، بالإضافة إلى هشام وصلاح، الزملاء عبد العزيز وعمر وتركي وعلاء، فكان هذا اللقاء صورة حلوة من صور الأخوة التي تغرسها الزمالة الطويلة وراء مقاعد الدرس، فتبادلوا العناق والقبلات، وبدا عليهم وكأنهم قد افترقوا بالأمس فقط، إذ سقطت حواجز الزمن، وتلاشت السنوات التي أبعدتهم عن بعضهم، واختفى من تصرفاتهم التحفظ الذي اكتسبوه بعد التحاقهم بالحياة العملية، فعادوا ـ كما كانوا ـ زملاء دراسة للمرح والمزاح من أقوالهم وتصرفاتهم أوفى نصيب، فارتفعت ضحكاتهم، وتناثرت نكاتهم، وكثرت ثرثرتهم، وهم يستعيدون ذكريات تلك الأيام التي لا تنسى، ويذكِّرون بعضهم البعض بما مر بهم في حياتهم الجامعية من مواقف، فيها المضحك وفيها المؤسف، ولكنها ـ الآن ـ تعدّ كلها ذكريات غالية عليهم، يسترجعون تفاصيلها بكثير من الشوق، ويتمنون لو أنها عادت بحلوها ومرها على السواء.

كان عبد العزيز قد اختار الأعمال الحرة طريقًا له في الحياة، وحقق في ذلك نجاحًا ملحوظًا، بينما التحق الآخرون بوزارات مختلفة في الدولة، وكان هشام وصلاح وحدهما من منسوبي وزارة الدفاع.

وبعد العشاء الحافل الذي كان صلاح قد أعدَّه لهم، جلس الزملاء

القدامى يحتسون الشاهي، ويتحدثون عما جرى معهم منذ اليوم الذي تخرَّجوا فيه وحتى هذا اليوم.

وأشار بعضهم إلى التطور العظيم الذي حققته جامعات المملكة خلال السنوات التي انقضت على تخرجهم، فقال تركي معلقًا على ذلك بلهجته المرحة المعتادة:

ـ هل تذكرون يا إخواني ذلك اليوم الذي حدثنا فيه بعض أساتذتنا عن ذكرياتهم الأولى عن نشوء جامعة الرياض، وتطورها؟... لقد كان حظنا، ولا ريب، أوفر من حظ من سبقونا... ولكن يبدو لي أن حظ من تلونا في الجامعة كان أوفر.

وأجابه صلاح وكأنه يقرر أمرًا بديهيًا:

ـ هذا طبيعي... لأنها سُنَّة الحياة... فنحن، ولله الحمد، نسير من حسن إلى أحسن... ويقينًا أن الأجيال الجامعية التالية سوف تكون أوفر حظًا، حسب تعبيرك يا أخ تركي، من الجيل الحالي.

ففتح تركي فمه بطريقة تمثيلية مصطنعة، وقال ساخرًا:

ـ ياه... ما هذا الاكتشاف يا باشمهندس صلاح؟... إنني، بصراحة، لا أحسدك على نظرتك إلى الأمور وكأنها معادلة حسابية يكون فيها ناتج جمع الواحد إلى الواحد هو اثنين دائمًا... لقد كنت أعلّق تعليقًا عابرًا، ولم أكن أطرح نظرية رياضية.

وصفق عبد العزيز بيديه في سرور، وهو يعلِّق على الحوار الدائر بين الاثنين:

ـ الله أكبر... ها قد عدنا إلى أيام الدراسة بالضبط... وكنت أظن أنها قد مضت، وانقضت... فالأخ تركي عاد إلى تعليقاته الساخرة... والأخ صلاح عاد إلى جديته، وطريقته العقلانية في محاكمة الأمور... وكل شيء على ما يرام، والحمد لله.

وقال هشام باسمًا:

ـ إذا كان الأمر كذلك فدعونا، إذًا، نكتفي بهذا القدر أيها الإخوان، فنحن الآن نتطلع إلى المستقبل... لا إلى الماضي.

وقال صلاح:

ـ جلستنا هذه فيها شيء من الماضي... وشيء من المستقبل... ولولا أيامنا الماضية زملاء في الجامعة؛ لما أمكننا أن نلتقي اليوم إخوانًا يتطلعون إلى الغد.

وزم تركي شفتيه بحركة فكهة، وكأنه يريد أن يمنع نفسه من الكلام، ثم تنهّد قائلًا:

ـ لو تكلمت الآن لانبرى لي الأخ صلاح بإحدى معادلاته الرياضية... ولكنني أيضًا لا أستطيع أن أصمت... فالكلام وقف في حلقي... ولو ظللت ساكتًا لاختنقت به.

فابتسم صلاح وقال له ببساطة:

ـ قل ما تشاء... لقد تعودت، وتعود الزملاء، على تعليقاتك المضحكة، أعني... الساخرة.

فاكتفى تركي بأن رد بسرعة:

ـ فقط كنت أريد أن أبدي إعجابي باكتشافاتك الرائعة... فها أنت قد اكتشفت أنه لولا أيامنا الماضية زملاء في الجامعة لما التقينا اليوم... معادلة فريدة... لم يسبقك إليها أحد.

وضجَّ الأصدقاء بالضحك، وشاركهم صلاح نفسه فيه؛ مما دل على التغيير الكبير الذي طرأ على سلوكه، وتفكيره... وتخلصه من ذلك الطابع الجدي الجاف؛ الذي كان يسم تصرفاته أيام الجامعة.

وخلع عبد العزيز نظارته، وراح يمسحها بطرف غترته، وهو يقول ببطء:

ـ بالنسبة إليّ. . . أنا أحمد الله ألف ألف مرة. . . لقد اخترت طريقي، وسرت فيه. . . وأنا، ولله الحمد، راض كل الرضى عما أنا فيه.

فقال له هشام ضاحكًا:

ـ هل نسيت أنك قلت لي قبلًا أنه لولا هذه النظارة لالتحقت بوزارة الدفاع؟

وأعاد عبد العزيز نظارته إلى عينيه بعناية، وأجاب:

ـ هذا صحيح. . . ولكن. . . ما كل ما يتمنى المرء يدركه.

وتكلَّم تركي فجأة موجّهًا كلامه للجميع:

ـ على فكرة يا جماعة. . . هناك مسألة أريد أن أستشيركم بها. . . فأنا موعود بالابتعاث للحصول على الماجستير في العام المقبل بإذن الله. . . فما رأيكم؟

فقال له علاء ضاحكًا:

ـ مقبول. . . مقبول إن شاء الله.

وعاد الأصدقاء للضحك فهم قد فهموا إيماءة علاء إلى ما كان يبدو من تركي، في السابق، من قناعة بالحصول على درجة مقبول. . . ويعدّها استجابة لدعاء أمه.

ولكن تركي قطع عليهم ضحكهم قائلًا بجدية تامة:

ـ إنني لا أمزح الآن. . . ولكنني أسألكم سؤالًا جديًا. . . فأنا أعتزم الزواج، بإذن الله، ولكنني حائر ما بين أن أؤجله إلى ما بعد البعثة، أو أن أتزوج وأصطحب زوجتي معي.

وبدا على الجميع الاهتمام بهذا السؤال؛ لأنه كان ـ في واقع الأمر ـ يدور في أذهان معظمهم.

وتطلعوا إلى بعضهم البعض، وكأنهم يأملون أن يجدوا الجواب لدى واحد منهم.

وتكلَّم عبد العزيز محاولًا أن يجيب على السؤال:

ـ أنا أعتقد أن المسألة تعتمد بالدرجة الأولى على الشخص نفسه، وعلى ظروفه العائلية من ناحية... كما تعتمد على إمكانات الشخص وقدرته على التحصيل... أنا أعرف أشخاصًا حرصوا على الذهاب إلى المرحلة الأولى من الدراسة منفردين... أي دون عوائلهم... لكي يتفرغوا لدراسة اللغة... وهناك آخرون على العكس من ذلك... لا تنتظم حياتهم إلا إلى جانب زوجاتهم... وربما أولادهم أيضًا.

وقال علاء على الفور، وكأنه يريد أن يعلن رأيه المخالف قبل أن يستقر رأي عبد العزيز في أذهان الزملاء:

ـ يا أخ عبد العزيز... يبدو لي أنك تفكر تفكيرًا غريبًا جدًا... فأنا أعتقد أن من أسباب إخفاق بعض الزملاء في الدراسة، أعني دراسة اللغة، أنهم قد اصطحبوا عائلاتهم معهم في المرحلة الأولى... بينما كان يتوجب عليهم أن يتفرغوا تفرغًا كليًا لدراسة اللغة... مع ما يتطلبه ذلك من انهماك مستمر، ودراسة متواصلة... واحتكاك بالآخرين... لاكتساب اللغة الأجنبية بسهولة؛ لأنهم في هذه الحالة سيضطرون للحديث بها أغلب الأوقات... هذه هي الطريقة السليمة لتعلُّم اللغة الأجنبية... أما إذا كانت عائلة المبتعث، من زوجة وأولاد معه، فهو سيضطر للحديث في البيت بالعربية، وبذلك يضيع في المساء ما اكتسبه في الصباح.

وتدخل هشام في الحديث قائلًا، وكأنه يعبر عما سوف يقوم به شخصيًا:

ـ مع احترامي لرأيك يا أخ علاء... أنا أعتقد أنك تبالغ في هذه الناحية أكثر من اللزوم... وإن كنت لا أنكر أهمية التفرغ الكلي والانصراف التام للدراسة... ولكن ليس معنى هذا أن اصطحاب العائلة يؤدي إلى تعطيل الطالب عن دراسته.

وقال عبد العزيز، وقد استمد من تأييد هشام لرأيه مزيدًا من القناعة به:

ـ ألا قل لي يا أخ علاء... بمن ستحتك في بلاد الغربة؟... ومن سيكون أقرب الناس إليك؟... أليسوا هم أنفسهم زملاءك وإخوانك من مواطنيك؟... وهل ستخاطبهم هناك باللغة الإنجليزية وأنت لست متمكنًا منها بعد؟... أم ستتخاطب معهم بالعربية، وبهذا يسقط ركن أساسي من حجتك في تبرير عدم اصطحاب العائلة؟

وارتفعت همهمة الزملاء بالتأييد لهذا المنطق المحكم، وعاد هشام إلى تأييد رأي عبد العزيز:

ـ الواقع أنني كنت عازمًا على اصطحاب زوجتي معي... وعلى أن تتعلَّم اللغة الإنجليزية معي.

فقال علاء باسمًا:

ـ يا سيدي تستطيع أن تؤخر تعليم زوجتك اللغة سنة... لأن الهدف الأساسي هو أنت... فإذا أنت، لا قدَّر الله، أخفقت فسيكون ذلك مؤلمًا بالنسبة لك ولها على السواء... وبعد أن تنتهي من دراسة اللغة لمدة سنة واحدة تستطيع، عندها، أن تصطحب زوجتك.

وقال تركي الذي كان هو الذي أثار هذا الجدل:

ـ أقول لكم يا جماعة... خلاص... أنا عدلت عن البعثة، وعن الزواج أيضًا... فدعونا من هذا الحديث، وتعالوا نلعب ونتسلى، كما كنا نفعل في الماضي.

فقال له هشام باسمًا:

ـ تشعل فتيل المناقشة، ثم تنسحب منها بهذه البساطة؟

وضحك الزملاء، وطووا موضوع البعثات وما يتعلَّق به من حديثهم، وقضوا ليلتهم في الحديث بمواضيع أخرى، وفي لعب

«البلوت»، وكان ذهن هشام موزعًا بين ما هم فيه، وبين الفكرة الجديدة التي احتلت تفكيره.

لقد فكَّر في أن يذهب إلى البعثة، في سنته الأولى، وحده، وأن يترك هيا في المملكة.

٣٨

ولم ينم هشام ليلته تلك إلا مع الخيوط الأولى لفجر اليوم التالي، فهو ـ كعادته في الاستغراق الكلي بالتفكير فيما يشغله ـ قد راح يوازن بين مختلف الحالات والاحتمالات، ويستعيد الحجج التي أدلى زملاؤه بها ما بين مؤيدين ومعارضين، محاولًا أن يختار الأفضل بين تلك الأفكار.

ولاحظ، مع شيء من الاستغراب، أنه قد بدأ يميل إلى الرأي القائل بعدم اصطحاب الزوجة، فهو بطبيعته في الاندفاع نحو أهدافه بقوة، وتصميم، قد وجد أن تفرغه الكلي لدراسة اللغة الإنجليزية أجدى عليه من التوزع ما بين البيت والمعهد.

وشعر، إذ ذاك، بشيء من الارتياح لقراره، فأوى إلى فراشه، ولم يلبث أن استغرق في نوم عميق.

وكان أول ما فعله حين استيقظ في الصباح هو الاتصال هاتفيًا بهيا؛ ليزجي إليها قراره، ويعرف رأيها فيه.

وبدا في صوت هيا شيء من التأثر والألم، وهي تبلغه موافقتها على قراره، ولم يفت هشام أن يلاحظ ذلك، فقال لها مداعبًا:

ـ إنتي زعلتي وإلا إيه؟... إذا كان الأمر كذلك فإنني على استعداد لإلغاء البعثة كلها.

وأتاه صوتها عبر الهاتف، وهي تحاول أن تكسبه رنة مغتصبة من المرح:

ـ أبدًا . . . ولكن إذا كان السبب هو مجرد رغبتك في عدم الحديث معي باللغة العربية؛ فإنني أعدك بأن أرعاك في بلاد الغربة من غير أن أفتح فمي بكلمة واحدة.

وأعقبت كلامها بضحكة مرحة، ولكنها بادية الافتعال.

وشعر هشام بقلبه يكاد يتمزق، وازداد إكبارًا لهذه المرأة الشجاعة التي منّ الله عليه بها، إذ كان يدرك كل الإدراك مشاعرها في تلك اللحظة، ويعرف أن حبها العميق هو الذي يدعوها للموافقة على رأيه ما دامت هذه رغبته، وهو نفسه ـ هذا الحب العميق ـ قد أملى عليها عبارتها الضاحكة الباكية تلك: أن تسافر معه، وألا تفتح فمها بالحديث معه، ولو بكلمة واحدة.

وعاد إليه شعوره بالتردد، ولكنه حسمه حين تذكر أنه إنما يذهب إلى تلك البلاد البعيدة من أجلها، ومن أجل مستقبلهما ومستقبل أولادهما، وإن عليهما أن يتحملا ـ معًا ـ ألم الفراق تلك المدة الوجيزة؛ ليكونا أقرب إلى ضمان النتائج، وتحقيق آمالهما المشتركة.

وتنبَّه من خواطره على صوتها، وهي تقول له بلهجة بين الجد والمزاح:

ـ هه . . . إيش قلت؟

فأجابها بسرعة:

ـ سأشرح لك الأمر عندما أعود إلى مكة إن شاء الله . . . أبلغي الوالد والوالدة والجميع تحياتي، وسلامي.

٣٩

وفي إدارة البعثات صادف هشام زميله القديم عبد الحميد؛ الذي كان أحد أعضاء فريق كرة القدم في المدرسة الثانوية.

وتعانق الصديقان، وتبادلا عبارات الشوق والسعادة في هذا اللقاء

بعد سنوات طويلة من الفراق لم يريا بعضهما، وتساءل هشام عما يفعله عبد الحميد في إدارة البعثات، فأخبره أنه يتابع معاملة ابتعاثه، ويستكمل الترتيبات اللازمة بشأن عائلته، زوجته وابنه، خلال غيابه.

وسأله هشام باهتمام:

ـ تعني... أنك سوف تترك عائلتك هنا؟

ـ نعم.

ـ لم لا تأخذها معك؟

وأجاب عبد الحميد وكأنه كان حاضرًا مناقشة الزملاء تلك الليلة؛ ليعيد عليه الكلام نفسه الذي قيل:

ـ هذا غير معقول... أنا ذاهب لدراسة اللغة في السنة الأولى... وعليّ أن أحتك بالأجانب، وأن أجبر نفسي، طائعًا أو مرغمًا، على فهمهم، والحديث إليهم... ولو اصطحبت زوجتي معي لاضطررت إلى الحديث باللغة العربية، وبالتالي أخسر الفرصة في التفكير الدائم باللغة الإنجليزية.

وكان هشام يستمع إليه، وهو يهز رأسه مؤمنًا على كل كلمة يقولها زميله القديم، ويزداد قناعة بأنه قد اتخذ القرار الصحيح، على قسوته، وإن هذه هي الطريقة السليمة للاستفادة من فترة دراسة اللغة الإنجليزية إلى أقصى حد.

وانتبه هشام من خواطره على عبد الحميد وهو يسأله:

ـ وأنت؟... ماذا ستفعل؟

فابتسم هشام وهو يجيب:

ـ مثلك تمامًا... سأترك زوجتي في المملكة، ما بين مكة وحائل؛ لأنني اقتنعت أمس بهذه الفكرة بعد حديثي مع بعض الزملاء.

وافترق الصديقان ليتابعا معاملاتهما، ويستكملا إجراءات السفر، وهما يتبادلان الأمنيات الطيبة.

٤٠

حين التقى هشام بأسرته في مكة، فوجئ بالجميع وهم يبدون استغرابهم لقراره المفاجئ ذاك، بترك زوجته والسفر وحده، وكانت هيا هي الوحيدة التي لم تدل بحرف واحد يشير إلى المعارضة، أو الاستغراب.

وقال أبوه أنه ذهل لهذا القرار، عندما أبلغته هيا به، بعد حديثها الهاتفي مع هشام.

وتساءلت أمه بسذاجة مشوبة بالأسف، كيف سيستطيع الحياة وحده، وعمن سيدبر له أموره في بلاد الغربة، ومن الذي سيعد له طعامه... ومن يغسل ثيابه... ومن يعنى به إذا مرض، لا سمح الله... ومن يؤنس وحشته... ومن يسلي وحدته... ومن... ومن...

كانت الأم تتحدث من منطلق الفكرة التي عاشتها طوال حياتها، ونشأت عليها، وهي أن الزوجة هي المسؤولة، أولًا وآخرًا، عن تدبير أمور زوجها، والعناية به، والسهر على راحته، وتهيئة الأسباب له؛ كي يعمل في جو من الاطمئنان، والراحة، والسعادة.

ورد هشام على تساؤلات والدته قائلًا:

- وهل نسيت، يا أمي، أنني قضيت في الرياض عددًا من السنوات في الظروف نفسها التي ستواجهني في أمريكا؟

وأجابت الأم بسرعة:

- صحيح... ولكنك كنت في بلدك... وبين أهلك وإخوانك... تخاطبنا ونخاطبك تليفونيًا كل أسبوع عددًا من المرات... وتزورنا ونزورك في السنة بضع مرات... أما في بلاد الأميركان هذه فأين أنت وأين نحن؟... وأين زوجتك وبيتك وأهلك؟

وقالت أخته رجاء:

ـ اسمع يا باشمهندس. . . أنت تأخذ الأمور ببساطة تدهشني. . . وتنسى أنك ستذهب إلى مجتمع مختلف كل الاختلاف عن مجتمعنا. . . تقاليدهم غير تقاليدنا. . . وعاداتهم غير عاداتنا. . . وما يعدّ عندما عيبًا يعدّ عندهم شيئًا عاديًا. . . والعكس بالعكس. . . وأنت. . . يا أخي، لم تغادر المملكة قبل الآن. . . ولم تحتك بالأجانب. وعندي كثير من القصص التي سمعتها من زملائي ممن سافر بعضهن مع أزواجهن. . . وممن سافر أزواجهن دونهن وحدهم. . . وأرى من مغزى هذه القصص أن من الأفضل لك أن تأخذ زوجتك معك. . . ولا أريد أن أزيد على كلامي هذا شيئًا.

كان الحديث يدور في غرفة الجلوس بحماسة، وقناعة، من كل المتحدثين، وقد اشترك فيه الجميع إلا صاحبة الشأن الأول، وهي هيا، فقد اكتفت بأن راحت تنقل بصرها بين المتحدثين، فتشعر بالارتياح إذ تسمع كلام الأب، والأم، والأخت، وينقبض صدرها حين تسمع دفاع هشام وآراءه؛ التي تدل على أنه قد اتخذ قراره عن سابق قناعة، وتصميم.

ولم يفت هشام أن يلاحظ صمت هيا، وانفعالاتها المتباينة وهي ترقب تطور الحديث، فازداد إكبارًا وإعجابًا بهذه الزوجة الوفية التي تملك من العقل والحكمة ما يجعلها تسيطر على أعصابها سيطرة كلية، فتمنع نفسها من الإدلاء برأيها المعارض كل المعارضة لقرار هشام، والموافق كل الموافقة في الوقت ذاته ما دام زوجها مقتنعًا به، وراغبًا فيه.

وكأنما لاحظت رجاء ما لاحظه هشام نفسه إذ التفتت إلى هيا وقالت لها:

ـ وأنتي. . . ما تتكلمي يا ست هيا. . . شايفانا نازلين هرج. . . وأخذ وردّ وأنت ساكتة، مع أن الموضوع يخصك أنت بالدرجة الأولى. . . وإن البعثة هي، أصلًا، فكرتك، كما قال هشام. . . ما تتكلمي. . . وتقولي رأيك؟

وساد الغرفة صمت مطبق، واتجهت الأبصار نحو هيا، تنتظر كلمتها، وكان هشام مطمئنًا إلى أنه لن يسمع من زوجته إلا ما يرضيه، فهو يعرفها، ويعرف روحها العظيمة، وشجاعتها الفائقة في مواجهة أحداث الحياة، وأطرقت هيا ولم تجب عن السؤال بشيء.

وقالت الأم بلهجتها العفوية:

ـ صحيح والله يا بنتي... إنت إيش رأيك؟... تبغي زوجك يسافر ويتركك هنا... وإلا تحبي تروحي معاه لبلاد الأميركان؟

وظلت هيا على صمتها، ولكن ارتجافًا يسيرًا في شفتيها دل هشام على الصراع؛ الذي يعتمل في داخلها، وهي تتهيأ للجواب الذي لم تنطق به بعد.

وأزاح الأب طرف الشيشة عن فمه، وقال لها في عطف:

ـ قولي لنا رأيك يا بنتي... وإذا كنتِ ما أنتِ موافقة... فأقسم بالله العظيم أنه هشام ما يسافر في هذي البعثة إلا وأنتِ معه... أو... بلاش من البعثة كلها.

والتقت عينا هشام بعيني هيا حين التقطت نفسًا عميقًا قبل أن تتكلم، فاستطاع هشام أن يعرف بغريزة الزوج المحب ما سوف تنطق به سلفًا:

ـ إذا كانت المسألة علي أنا... فأنا... طبعًا موافقة.

وارتفعت همهمة الاستغراب من الجميع إلا هشام، قبل أن تستطرد هيا:

ـ أجل... أنا موافقة طبعًا... لقد قال لكم هشام أن البعثة هي فكرتي... وهذا صحيح... ولكن الصحيح أيضًا أن هشام يحمل في روحه وقلبه إمكانات النجاح.

وقلبت الأم شفتها السفلى معبرة عما في نفسها:

ـ والله ما أنا فاهمة حاجة يا بنتي... قصر الكلام... تبغيه يروح وحده وإلا لأ؟

واستطردت هيا وكأنها توجِّه حديثها إلى هشام وحده:

ـ لقد كانت مهمتي أن أساعد هشام على أن يكتشف إمكاناته، ومواهبه... وأن أهيئ له الجو والمجال لكي يستفيد منها بما يعود عليه، وعلى أسرته بالنفع... ولو لم يكن جديرًا بهذه الفرصة التي أتيحت له من خلال هذه البعثة، فإنه ما كان لينالها أبدًا... إذًا... فالفضل الأول والأخير هو لله الذي أودع هشام هذه المواهب، والإمكانات.

وشعر الأب ورجاء بالتأثر، فهما قد عرفا ما أرادت هيا أن تقوله، بل وعرفا أيضًا بقية الكلام الذي ستدلي به... أما الأم فهي الوحيدة التي كانت تريد أن تعرف الجواب بكل بساطة، ودون هذه المقدمة التي لم تفهم منها شيئًا:

ـ يا بنتي... الله يهديك... كلمة ورد غطاها... إنتِ موافقة على إنه يسافر وحده ويسيبك هنا وإلا لأ؟... هي كلمة واحدة بس.

واغتصبت هيا ابتسامة، وأجابت:

ـ جاياكي بالكلام يا أمي... أيوه أنا موافقة... وهذا هو اللي لازم يصير لازم يتعلم لغة بالأول... وتعلُّم اللغة ما هو هين.

وضربت الأم كفًا بكف، وقالت وكأنها تنفض يديها من المسألة:

ـ خلاص... موافقة... على راحتك.

وقال هشام بصوت يكاد يختنق من التأثر:

ـ شفتي يا أمي؟... هيّ عارفة مصلحتي... وعلشان كده هيّ موافقة... يعني فاكرين أني حاكون مبسوط لما أسيب أهلي وبلدي؟... طبعًا لا... ولكن ماذا أفعل إذا كانت هذه هي وسيلتنا إلى المستقبل الأفضل؟.

«حبايبنا عاملين إليه. . .

في الغربة. . . وأخباركم إيه. . .

فرحانين وإلا . . . زعلانين. . .

مرتاحين وإلا . . . تعبانين. . .

وبعتنا مع الطير المسافر سلام. . .».

ومدَّت هيا يدها إلى زر الراديو تطفئه بعد أن وصلت الأغنية إلى هذا الحد، وقد سالت الدموع على خديها غزيرة متوالية، تنبئ عن البكاء الأليم الذي يعتمل في صدرها.

ونظر إليها هشام صامتًا، والحزن يعتصر قلبه اعتصارًا.

وغطت هيا وجهها بيديها، وراح جسمها يهتز بنشيج صامت، فلقد فجرت الأغنية آلامها كلها، وجعلتها تشعر بالفراغ الهائل الذي يفتح شدقيه؛ ليبتلعها في أعماقه بعد أن يسافر هشام.

كان الاثنان في منزلهما حيث توجها ليسلم هشام عمله إلى سواه، وينهي إجراءات انفكاكه عن وحدته، ويتخذ ما يلزم من ترتيبات لإقامة هيا عند أهلها في حائل.

وسار هشام إليها، وهو يمد ذراعيه الاثنتين؛ ليحتويها بهما، ويقول في لوعة:

ـ هيا. . . ماذا بك؟

ورفعت إليه عينيها المخضلتين بالدموع؛ ليقرأ أعمق ما يمكن أن تعبر به عينان من الحب والتفاني، وقالت بصوت خافت:

ـ آسفة. . . كان هذا على الرغم عني.

ـ ولكن.

فجذبته نحوها ليجلس إلى جانبها على المقعد الطويل، وأمسكت

يديه بيديها اللتين كانت ترتعدان مع ارتعاد جسمها في بكائها الصامت، وهمست:

ـ آسفة... لقد هزّتني الأغنية... الآن نحن معًا... في بيت واحد... تحت سقف واحد... وها هما يداي تتشابكان مع يديك... وغدًا.

واختنق صوتها بالبكاء، وأردفت وهي تشهق:

ـ غدًا يصبح حالي كحال هذه التي كانت تغني... سأتساءل عما تفعل في الغربة... سأتساءل في كل لحظة عن أخبارك... أنت سعيد أم غير سعيد... أنت مرتاح أم غير مرتاح... سأبعث لك سلامي مع الطائر المسافر وأنت الآن... أنت الآن بجانبي.

عادت هيا إلى نشيجها ونحيبها اللذين كانت تحس معهما أنهما يخففان عنها الكثير؛ مما تشعر به من آلام الفراق المنتظر.

وضمها هشام إلى صدره، فألقت برأسها عليه في استكانة، وراح يمسح على شعرها بكفه في حنان، وهو يتحدث إليها:

ـ هيا... أرجوك... ساعديني... أجل... ساعديني على اجتياز الأيام القليلة التي تفصلني عن يوم السفر... إنني أعلم ما بك... وأشعر به... ولئن كان في قلبك من الألم واللوعة شيء كثير؛ فإن في قلبي مثله... بل أكثر منه... فلا تظني أنني فرح لهذا السفر... بل لست أكتمك... أكثر من مرة خطر ببالي أن أصرف النظر عن البعثة... وأبقى بجوارك، وجوار أهلي وأهلك... ولكنك أنت نفسك لا ترضين بهذا... لا تنسي أنك أنت التي دفعتني إلى هذا الطريق لأرضي طموحي وطموحك... وإن دموعك الغالية هذه تنزل على قلبي كالجمر المتقد... فماذا تريدين أن أفعل؟

وتمالكت هيا نفسها، ومسحت دموعها بظهر كفها، وأشرق وجهها

بابتسامة من تلك الابتسامات الحلوة التي طالما أحبها منها، وقالت له بصوت جهدت قدر إمكانها أن يكون ثابتًا، وطبيعيًا:

ـ لست أريدك أن تفعل إلا ما تفعل... فهو الصواب... وإنني آسفة... فقد كانت تلك لحظة ضعف أثارتها الأغنية في نفسي ليس إلا.

ـ آه... يا شريكة حياتي.

وعادت هيا لتلقي برأسها على صدره، وتغمض عينيها في شبه إغفاءة، بينما كان هشام يلصق خده بشعرها، وهو يحدث نفسه بما أنعم الله عليه بزواجه من هذه الزوجة الفريدة في شجاعتها، ووفائها.

٤٢

كانت تلك أول مرة يسافر فيها هشام إلى خارج المملكة.

وكان رأسه مسرحًا لشتى الانفعالات، والأحاسيس، والتساؤلات التي تصطخب، فتتجاذبه إلى مختلف الاتجاهات، والطائرة تحلق به في الجو، مغادرة جدة في طريقها إلى لندن، ليستأنف منها المسافرون إلى الولايات المتحدة رحلتهم على طائرة أخرى.

كان هشام قد أغمض عينيه، واسترخى في جلسته خلال هذه الرحلة الطويلة، وراح يحاول أن يجد نفسه بين ذلك الخضم المتلاطم من الأفكار، ويستعيد في ذهنه أيام حياته كلها ليطل عليه ـ وسط هذه الأفكار ـ وجه هيا الحبيب في آخر مرة رآها فيها، وهو يصعد الطائرة التي أقلته من حائل إلى جدة.

لقد خرجت أسرة زوجته كلها لوداعه، لم تتخلف سوى الأم التي ودعها قبل ليلة من سفره.

وعانقه حموه، وشد على يده بقوة، وهو يقول له:

ـ تروح وترجع بالسلامة يا ولدي.

وقال له ناصر، وهو يحاول أن يتظاهر بالمرح:

ـ مبروك عليك يا عم... وإن شاء الله تعود لنا وفي يدك الماجستير.

وردَّ هشام بسرعة، وهو يختلس نظرة إلى هيا:

ـ ستراني قبل الماجستير بإذن الله... لا تنس أنني سأعود بعد بضعة أشهر لكي آخذ هيا معي.

وابتسمت هيا في سعادة، وهي تسمعه يقول ذلك، وهمست له وهو يودعها متجهًا إلى بوابة ساحة المطار:

ـ أنا في انتظارك... كان الله معك.

وألقى هشام نظرة من النافذة، ليرى السحب الكثيفة وهي تتدافع تحت الطائرة؛ التي كانت تشق طريقها نحو العاصمة البريطانية على ارتفاع شاهق، ورأى بين تلك السحب وجه هيا يطل عليه ثانية بتلك الابتسامة الشجاعة التي كانت آخر ما رآه منها، ورن صوتها العذب في أذنيه:

ـ أنا في انتظارك... كان الله معك.

وانتبه هشام من خواطره إلى المضيفة، وهي تقدم له الطعام، ولكنه أشار لها بيده، في حركة دلت على زهده في الطعام، فهو ما زال يعيش لحظات الفراق الصعبة، سواء في حائل، أو في جدة، فلقد أصر أبوه على أن يودعه بنفسه في المطار حين جاء يودع أهله في مكة، وبرر الأب إصراره بقوله:

ـ هذه أول مرة تتركنا فيها على هذا الشكل... أعني إلى مكان بعيد خارج المملكة... وأريد أن أراك وأنت تصعد إلى الطائرة على أمل لقاء قريب إن شاء الله... ولكي أقول لك كم نحن فخورون بك، وبزوجتك، وكم نتمنى أن نرى منك همة ونشاطًا يتفقان مع حسن ظننا فيك.

وعادت إلى هشام صورة أبيه، وهو يلوّح له بيده، ويضم قبضته، ويهزها دلالة على القوة، وشدّة البأس، فاغرورقت عيناه بالدموع، وتنهَّد في ألم محدِّثًا نفسه بأن أعظم سعادة في الدنيا هي أن يكون للإنسان من يحبه، ومن يبادله المحبة، فهذا المحب ـ المحبوب في الوقت ذاته ـ يشعر بأنه قوي في مواجهة الحياة، بقدر ما له ممن يحبهم، وبقدر ما له ممن يحبونه.

ونظر هشام إلى ساعته، فتبين له أنه قد مضت حتى الآن أربع ساعات وهو ما زال في طائرته المعلَّقة في الجو، والتي كانت تشق طريقها كالسهم وسط السحب الكثيفة، وتلاعبت على شفتيه ابتسامة، وقال محدثًا نفسه:

ـ هه يا باشمهندس... هذه أول الأشياء الجديدة التي تواجهها، وأنت في طريقك إلى عالم لم تره من قبل قط... في المملكة كانت تقطع المسافة ما بين جدة والظهران في ساعتين... وها أنت قد أمضيت أربع ساعات في الجو، وما زال أمامك مثلها تقريبًا قبل أن تصل إلى لندن.

واتجه ذهنه إلى لندن.

إنه لم يرها قبل الآن، وليست لديه أية فكرة عنها سوى ما قرأه أثناء الدراسة، وما مر تحت يديه من الكتب، أو المقالات، إلى جانب ما زوده به زملاؤه؛ الذين زاروها من معلومات، حفظها عن ظهر قلب.

وفتح حقيبة أوراقه، وراح يستعرض العناوين، وأرقام التليفونات التي زوده بها زملاؤه لفنادق مناسبة، سواء في لندن، أو في نيويورك... محطته التالية.

وقال في نفسه وهو يقرأ أرقام التلفونات، ورموزها:

ـ بدأنا في مواجهة تعقيدات المدنية الزائدة عن الحد... هل يعقل

أن يكون هذا الصف الطويل من الأرقام والحروف كله رقم تليفون واحد؟. . . إيه.

وأغمض عينيه، واستسلم للإغفاء بعد أن شعر بالتعب، وبأن ذهنه لم يعد قادرًا على التفكير بعد الأيام القليلة الماضية التي قضاها ما بين حائل، ومكة، وجدة، مستعدًا للسفر، مودعًا الأهل والأصدقاء، حيث لم يظفر بأكثر من ساعات معدودة للنوم.

وساعده على الإغفاء أن معظم ركاب الطائرة كانوا قد ناموا، وبات صوت محركات الطائرة الرتيب وكأنه صوت أم تهدهد طفلها.

وغابت المرئيات عن ناظريه بعد أن بدأ نور النهار في الانحسار.

٤٣

ـ انتبهوا من فضلكم. . . إننا نقترب من مطار «هيثرو» في لندن. . . الرجاء ربط أحزمة المقاعد استعدادًا للهبوط.

وكأنما كان كلام المضيفة هذا شارة سحرية، أفاق معظم الركاب على أثرها من نومهم، وما عاد يسمع سوى صوت إغلاق أقفال أحزمة المقاعد، وتعديل الكراسي استعدادًا للهبوط.

ونظر هشام مرة أخرى إلى ساعته، فإذا بها تشير إلى أنه قد أمضى أكثر من سبع ساعات، منذ أن غادر بلاده صبيحة هذا اليوم.

وحين وقف في الصف الطويل من الركاب الذين أخذوا يغادرون الطائرة شعر بشيء من التخوف، فها هو ـ الآن ـ يقف أمام التجربة التي سافر من أجلها وجهًا لوجه.

إنه، أغلب الظن، لن يسمع اللغة العربية بعد الآن، ولن يرى المعالم العربية التي عاش حياته كلها وهو يراها.

وأحس بغصة وهو يستمع إلى مضيف الطائرة يقول له بلغة بلاده، ولهجتها:

ـ الحمد لله على السلامة.

وأجاب هشام في تأثر:

ـ الله يسلمك.

وراح يهبط الدرج المتحرك، ويتبع جموع المسافرين إلى صالة الدخول، ووجد نفسه يدير رأسه بسرعة نحو الطائرة السعودية الضخمة التي أقلته، والتي كانت صفوف الركاب ما تزال تهبط منها.

وتركز نظره على علم بلاده المرسوم على جانب الطائرة، فشعر بحنين هائل إليه، وتمنى لو يستطيع أن يلثمه، وأن يمرغ وجهه على صفحته.

واختلس نظرة أخرى إلى شعار الخطوط السعودية الذي اعتاد أن يراه في كل مكان من المملكة، فأحس أنه أشبه ما يكون بسمكة تخرج من مائها الأليف ليلقى بها في ماء آخر، لم تألف طعمه، ولا جوه، ولا حرارته.

وضم هشام أطراف سترته على عنقه، فالجو بارد بصورة مزعجة، مع أن الشهر كان آب (أغسطس) الذي يعدّ قمة فصل الصيف في المملكة، وها هو يضطر لأن يحمي نفسه من الهواء البارد، والمطر الذي كان يتساقط رذاذًا.

وتذكَّر شمس بلاده الساطعة، وحرَّها القوي، فشعر أنه لا يبادل على ذلك الجو ـ على الرغم من شدته ـ أية أجواء في أي بلد من بلاد العالم.

وخلال دقائق معدودة كان قد أنهى إجراءات الدخول إلى لندن، وتبادل مع موظفي الصحة، والجوازات، والجمارك عبارات موجزة باللغة الإنجليزية، وكان شديد الاهتمام بمتابعة طريقة لفظ أولئك «الإنجليز»

للغتهم، فلاحظ أن هناك فارقًا كبيرًا بين ما تعلمه في المدرسة والجامعة، وبين الطريقة الفعلية في اللفظ، وعول على متابعة هذا الاهتمام والاستفادة ـ على الطبيعة ـ من كل كلمة يسمعها.

وإذ خرج من المطار، بعد أن استلم حقائبه، أشار إلى سيارة تاكسي ما لبث أن استقلها، وألقى على سمع سائقها اسم الفندق الذي يقصده.

٤٤

كانت تلك أول مرة في حياته ينزل فيها بفندق، ناهيك أن يكون هذا الفندق في بلد أجنبي عنه تمامًا، وبأسلوب حياة، ولغة، وأشخاص، وجو، كلها تختلف اختلافًا عظيمًا عما ألفه واعتاده من قبل، ولكنه كان قد هيَّأ نفسه لتقبل الأشياء الجديدة، التي كان يعلم سلفًا أنه سيواجهها، وعلى تعلمها، والانسجام معها، فهو منذ اليوم سينام تحت سقف لم يعتد عليه، في فراش غير فراشه، وبلد غير بلده.

وكان أول ما وجَّه إليه اهتمامه بعد أن وضع حقائبه في الفندق الذي أعطاه أحد أصدقائه عنوانه، هو شراء معطف يقيه قسوة البرد الذي لذع جلده بصورة لا تطاق، فركب سيارة تاكسي دله سائقها على أحد المتاجر المتخصصة في بيع ملابس الرجال، وبعد دقائق كان يتدثر بالمعطف الأنيق الذي اشتراه، فدسَّ يديه في جيبه، وقد شعر بأنه قد بات أحسن حالًا، ومضى يتجوَّل في الشوارع على غير هدى، ويده تقبض بقوة ـ داخل جيب المعطف ـ على بطاقة الفندق التي تحمل عنوانه، ورقم تليفونه.

لقد كان من أهم ما خرج به من تجربته في الكلام باللغة الإنجليزية خلال الزمن القصير الذي انقضى عليه، وهو في لندن، أن لغته في حاجة

إلى كثير من الصقل، والمران، والإتقان، فقد وجد صعوبة في التفاهم مع موظف الفندق، وبائع الألبسة، ولكنه حدّث نفسه بأن مثل هذه التجارب، على ما تحتوي عليه عادة من مفارقات طريفة، هي ـ بالذات ـ هدفه من مغادرة بلاده، والانتقال إلى بلاد غريبة عنه، بعيدًا عن أهله وزوجته.

واتجه ذهنه، في الحال، إلى هيا.

فدون أدنى ريب، كان يمكن أن يكون سعيدًا، ومرتاح البال أكثر مما هو عليه الآن لو أنها كانت معه.

ومع أنه أعجب بالعاصمة البريطانية، وبهرته شوارعها ومبانيها العريقة الضخمة، وحدائقها المنسقة أبدع تنسيق، إلا أنه كان يجبر نفسه على ألا «يستمتع» بهذه المشاهد، وفاء منه لذكرى زوجته، فما كان يشعر بسعادة أو متعة لا يتقاسمانها معًا، ولعلهما يزوران هذه المدينة معًا بعد أشهر قليلة، وعندها يحق له ـ كما حدث نفسه ـ أن يستمتع بهذه الرحلة، وأن يجتلي محاسن المدينة الجميلة.

والواقع أنه كان متلهفًا على الوصول إلى هدفه بأسرع وقت ممكن، بصورة جعلته يحرص على أن يحجز مكانًا في إحدى الطائرات المتجهة إلى نيويورك، وهي عديدة يوميًا، فلا يمكث في لندن أكثر من يومين اثنين... وهكذا، انتهت زيارته لمدينة الضباب سريعًا، وما لبث أن وجد نفسه داخل إحدى الطائرات الضخمة من نوع «الجامبو»؛ التي كان يركبها لأول مرة.

٤٥

عندما جاءته المضيفة بالطعام لم يتمالك نفسه من الابتسام، ذلك أنه منذ أن وطئت قدماه الأراضي الأجنبية، كان حريصًا على ألا يدخل جوفه أي نوع من اللحوم، فكان طعامه خلال إقامته القصيرة في لندن

مقتصرًا على البيض، والكعك، والجبن، وما أشبه؛ لأنه كان يخشى أن يتناول لحم الخنزير، ما دام غير مستطيع تمييزه عن سواه من اللحوم... حتى الخضار لم يقربها؛ لأنه قدَّر أنه لن يستسيغها ما دامت تقدم، في الغالب، مسلوقة.

وعاد ذهنه يتَّجه إلى زوجته التي تركها في أرض الوطن، فتذكر طهوها اللذيذ، وعنايتها الفائقة بإعداد المائدة، وكأن ضيوفًا سوف يشاركونها الطعام، وعندما كان يقترح عليها أن توفر على نفسها هذا العناء كانت تضع أصبعها على شفتيها، إشارة الصمت، ثم تقول له بجدية تامة:

ـ هذا ليس من اختصاصك... وما دام إعداد المائدة هو من مسؤولياتي؛ فإنني حرة في أن أتعب نفسي، كما تقول، في إعداد المائدة.

ـ إن ما يهمني هو راحتك.

ـ وأنا راحتي في أن تكون مرتاحًا في بيتك... وأعتقد أنك توافقني على أن إعداد المائدة بهذه الطريقة هو أفضل من طرح الصحون على الطاولة كيفما اتفق.

وترك هشام طعامه، وأغمض عينيه، وراح يتذكر كيف كانت هيا توجه عنايتها إلى كل كبيرة وصغيرة من شؤون المنزل، معللة ذلك بأنها تعدّ «الإهمال» عدوها الأول، فهي ـ والحالة هذه ـ تعدّ أن توجيه الاهتمام اللازم لكل شؤون المنزل بدرجة متساوية يجعل الحياة متجددة باستمرار، وأن هذه النتيجة تستحق كل جهد تبذله من أجلها.

وتنهد هشام بقوة، وشعر أن كل ما مرّ به منذ فراقه عن هيا إنما هو مجرد أشياء عابرة، يكاد ينساها على قرب العهد بها، فهي غير ذات طعم ولا مذاق؛ لأن حياته ينقصها شيء مهم... إنها تفتقد نصفها الآخر.

وحين فتح عينيه تبين له أنه قد أخلد إلى إغفاءة قصيرة تسللت إليه على الرغم عنه، فأجال بصره فيما حوله، فإذا به يرى المشهد نفسه الذي رآه وهو في رحلته من جدة إلى لندن، فمعظم الركاب قد غرقوا في النوم، وقلائل منهم قد أمسكوا بصحف أو كتب يطالعونها، وآخرون يتابعون العرض السينمائي الذي يقدم على شاشة الطائرة؛ التي كانت تواصل طريقها ـ بذلك الصوت الرتيب ـ عابرة المحيط الأطلسي نحو الجانب الآخر من الكرة الأرضية.

ودقق هشام النظر في وجوه رفاق الرحلة الذين كانت عيناه تطالهم، وكأنه يبحث عن شخص معين بينهم، والواقع أن هذه كانت غايته فعلًا، فالوحدة قد ملأت قلبه، والوحشة تملك عليه فؤاده، فهو لم يسمع كلمة عربية واحدة منذ أن نزل من الطائرة السعودية، كما أنه لم يلتق أبدًا بأي عربي، ولم ير أي وجه عربي، الأمر الذي جعله يشعر بشوق عظيم لأن يخاطب أي إنسان بلغة بلاده، وأن يرى أية سحنة عربية.

وحدَّث نفسه في عجب:

ـ هل يعقل أن أكون أنا الراكب العربي الوحيد على هذه الطائرة؛ التي تحمل أكثر من ثلاثمئة إنسان؟

وبدا له أن هذه هي الحقيقة للأسف.

وإذ كان يدير بصره ليعود به من أنحاء الطائرة، التقت عيناه بعيني الراكب الجالس إلى جانبه... وابتسم له الراكب بمودة، وقال:

ـ هاي.

وحدس هشام من هذه التحية أن الرجل أمريكي، فرد على تحيته، وسرعان ما انهمكا في حديث طويل.

وخلال دقائق كان الأمريكي قد حدَّثه عن كل شيء في حياته: ولايته، ومدينته، وعمله، وأهله، وكأنهما صديقان منذ زمن طويل.

وختم الرجل حديثه متسائلًا عن أحوال هشام، وغايته من السفر إلى الولايات المتحدة الأميركية، وإلى أية ولاية يقصد.

ولم ينس هشام أنه رجل عسكري قبل كل شيء، وأنه يجب أن يكون حذرًا مع الغرباء، وفق ما تقضي به قواعد الأمن العسكري، فاكتفى بالقول أنه طالب سعودي، وأنه متجه إلى مدينة نيويورك، حيث يوجد «المكتب السعودي» المسؤول عن البعثات الدراسية السعودية في الولايات المتحدة، ولم يتطرق ـ بطبيعة الحال ـ إلى أموره العائلية مثلما فعل الرجل، فهذه شؤون خاصة لا يجوز الخوض فيها أمام الغرباء أياً كانوا.

وحدث نفسه قائلًا:

ـ هذه مسألة أخرى نختلف فيها عن هؤلاء الناس... ما شأني أنا بعائلته، وزوجته، وأولاده؟... وما شأنه هو بعائلتي؟.

وإذ ورد ذكر «العائلة» على خاطره، عادت أفكاره تطير به إلى أرض الوطن ما بين مكة وحائل، وقد بدا عليه وكأنه قد غفل تمامًا عن جاره؛ الذي كان ما يزال يثرثر بحديث متواصل.

وكان مما فرح له هشام، واستبشر به، أنه كان يفهم معظم حديث الرجل، كما أنه استطاع ـ بدوره ـ أن يعبر عن خواطره باللغة الإنجليزية بصورة فهمها الرجل على ما يبدو.

وعاد يركز عنايته على استيعاب مخارج الألفاظ لدى هذا الرجل الأميركي القح، ويكتشف نقاط الاختلاف الكثيرة ما بين اللغة المدرسية الإنجليزية التي تعلمها، وبين اللغة المحكية التي تختلف عنها وخاصة اللهجة الأميركية؛ التي عجز عن فهم بعض كلماتها، واصطلاحاتها، ورموزها، فيما كان جاره الثرثار يواصل حديثه.

واستطال الحديث بين الاثنين حول أمور شتى، تحاشى فيه هشام

تمامًا أن تتناول أموره الشخصية والعائلية، فقد كان يرى أن هذا الحديث مفيد له من ناحية الغاية التي يذهب إلى الولايات المتحدة من أجلها في سنته الأولى هذه، وهي تعلُّم اللغة الإنجليزية.

وسارت المضيفات بين صفوف المقاعد يلفتن انتباه الركاب إلى شارة «اربطوا الأحزمة» التي أضيئت في الطائرة، والتي لم ينتبه إليها هشام وجاره لانهماكهما في الحديث؛ مما دل على أنهم قد وصلوا إلى نيويورك، أو كادوا.

وربط هشام حزامه واستأنف حديثه مع الأميركي وهو يشعر بكثير من الارتياح إلى أن أذنه قد أخذت تألف هذه اللهجة، وأن رصيده من اللغة الإنجليزية سوف يسمح له باستيعاب دوراتها الدراسية بسرعة.

ومدَّ الأميركي يده، وضغط بها بقوة على ذراع هشام، وقال بلهجة متوفزة:

ـ ألم تلاحظ، يا صديقي، شيئًا؟

ولم يفهم هشام ما يقصده الرجل من سؤاله؛ فتساءل باستغراب:

ـ شيء؟... مثل ماذا؟

ـ لقد مضى أكثر من ثلث ساعة منذ أن أضيئت شارة ربط الأحزمة... وها نحن ما زلنا في الجو... إنني ألاحظ أن الطائرة تدور في سماء المطار دون أن تهبط... إذا صدق ظني فإن عجلات الطائرة، يا صديقي، لم تنزل... هناك عطل بكل تأكيد.

ومع أن قلب هشام قد غاص بين جنبيه عندما سمع كلام جاره الأميركي، إلا أنه تقبل النبأ بكل هدوء، بينما كانت علامات العصبية والتوفز تتزايد على وجه جاره، الذي امتقع، ويديه اللتين أخذتا بالارتجاف بشكل واضح.

ـ غريب... يبدو لي أنك غير مكترث.

قالها الأميركي بانفعال، وهو ينظر إلى وجه هشام الهادئ؛ الذي كان يتمتم في سره بما حضره من آيات قرآنية، وأدعية.

وابتسم هشام على الرغم منه وقال باللغة العربية، وهو واثق ـ بطبيعة الحال ـ من أن الرجل لن يفهم ما قال:

ـ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

ـ ماذا قلت؟

لا شيء. . . لا شيء.

أجابه هشام بالإنجليزية وهو يمد بصره من النافذة؛ محاولًا أن يرى ما تحت الطائرة التي كانت تواصل طيرانها في دائرة واسعة، دون أن يبدو عليها أنها تقترب من الأرض.

وأجال هشام بصره في الركاب، فوجدهم في حالة عادية؛ مما دله على أنهم لم يدركوا ـ حتى الآن ـ حقيقة ما حدث، وكان جاره الأميركي هو الوحيد الذي بلغت عصبيته وانفعاله أقصى الدرجات.

وضغط الأميركي على ذراع هشام، وقال له بلهجته المنفعلة:

ـ ألا . . . ألا تفعل شيئًا؟

ـ وماذا نستطيع أن نفعل؟

ـ نتفاهم مع الطيار.

ـ اهدأ يا صديقي. . . يبدو لي أنك قد فقدت أعصابك. . . علام تتفاهم مع الطيار؟. . . هل ستقنعه بإنزال عجلات الطائرة؟. . . إنه ليس بحاجة إلى إقناع. . . ولندع الأمور تجري كما أرادها الله.

ولاحظ هشام وجاره أن مضيفات الطائرة قد علمن بما حدث، وأنهن يبذلن جهدًا خارقًا للسيطرة على أعصابهن؛ كيلا ينتبه الركاب إلى الورطة التي تعانيها الطائرة؛ لأن ذلك من شأنه ـ دون ريب ـ أن يدب الذعر في نفوس الركاب؛ مما يزيد الموقف سوءًا.

وفجأة سمع صوت سقوط أطباق وكؤوس على الأرض، فالتفت الأميركي بسرعة إلى هشام، وقال له:

ـ أرأيت؟... يبدو لي أن الموقف صعب جدًا... تلك المضيفة قد فقدت أعصابها، فسقطت الأطباق والكؤوس من بين يديها.

كل هذا، والطائرة ما زالت تدور دون أن تهبط عن مستوى طيرانها شبرًا واحدًا.

وأغمض هشام عينيه، واسترخى في مقعده وكأن الأمر لا يعنيه.

لقد قفز، في ثوان، بخواطره إلى أرض الوطن، متنقلًا ما بين مكة وحائل... ترى ماذا تفعل هيا الآن؟... لعلها نائمة... أو لعلها تعبث، كعادتها، بأزرار الراديو متنقلة من محطة إلى أخرى؛ لتستمع إلى أغانيها المفضلة، وهي لا تعلم أن زوجها ـ في هذه اللحظة بالذات ـ معلق ما بين السماء والأرض في طائرة تأبى عجلاتها النزول، وليس يدري إلا الله ما يكون من مصيرها، ومصير ركابها.

وأهله في مكة... ماذا يفعلون الآن يا ترى؟... إنه يراهم بعين الخيال في جلستهم المعتادة... الأب يدخن الشيشة... والأم تطوي الغسيل، أو تكويه... وتلقي بين الحين والآخر نظرة على شاشة التلفزيون... والبنتان مشدودتان إلى الشاشة الصغيرة... وكلهم على أتم ما ينبغي أمانًا واطمئنانًا، بينما هو ـ ولدهم الوحيد ـ يكاد يرى الموت بعينه، وطائرته تدور وتدور في الأعالي، بينما يبذل قائدها جهده لإنزال عجلاتها دون جدوى.

ـ اصغوا إليّ من فضلكم... طياركم يخاطبكم.

وانتبه الركاب جميعًا، وأصغوا إلى صوت الطيار باهتمام، وهو يتحدث إليهم من كابينة القيادة بوساطة الميكروفون:

ـ أرجو قبل كل شيء أن تحافظوا على هدوئكم، وقوة أعصابكم... إننا نعاني بعض المتاعب.

وهاج الركاب وماجوا لدى سماعهم كلمة «المتاعب»، وصرخت امرأة أو اثنتان في رعب.

واستأنف الطيار كلامه:

ـ أكرِّر رجائي لكم أن تحافظوا على الهدوء... هناك عطل في عجلات الطائرة، ومنذ نصف ساعة والاستعدادات تتخذ في المطار لاستقبال الطائرة.... إننا سنحاول الهبوط بالطائرة دون عجلات... لا تنزعجوا... هذا أمر يحدث أحيانًا... وهناك استعدادات معينة تتخذ في مثل هذه الحالة... اجلسوا في مقاعدكم... وشدوا أحزمتكم جيدًا... واتبعوا التعليمات التي ستصدرها لكم مضيفاتكم... وحظًا سعيدًا للجميع.

وساد الطائرة صمت عميق، ما لبث أن انقلب إلى لغط وهياج، بينما ارتفعت أصوات المضيفين والمضيفات في محاولة تهدئة من انتابتهم نوبات عصبية، ومساعدتهم في شد أحزمة مقاعدهم، ونصحهم بالإخلاد إلى السكينة.

وتطلع الأميركي إلى هشام في شيء من الغيظ، وهو يقول بلهجة سيطر عليها من الدهشة والذهول بقدر ما كان فيها من الاهتمام، والفضول:

ـ يبدو لي أنك غير مكترث لما يحدث في الطائرة... فهل أنت لا تقدر خطورة الموقف الذي نحن فيه؟

وابتسم هشام بهدوء، وأجاب الرجل في بساطة:

ـ أعتقد أن من الصعب عليّ أن أشرح لك الأمر في هذه الظروف... ولك أن تفسره كما تشاء.

وعاد إلى الاسترخاء في مقعده، أمام نظرات الذهول التي وجهها إليه جاره الأميركي، الذي انحنى نحو النافذة، وراح يحدق في الجو خارج الطائرة التي كانت ما تزال تقوم بدورتها الواسعة، بينما يصدر عنها بين الحين والآخر صوت أشبه بالأنين صادر عن أجهزة العجلات، خلال محاولات الطيار المتتالية لإنزالها.

والواقع أن الخوف لم يخالج فؤاد هشام قط، لا عن شجاعة غير عادية ـ كما توهم ـ وإنما عن إيمان عظيم.

ولقد قالها للرجل بالعربية بأنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، فما فائدة الخوف والهلع إذًا؟... ما دام الله العلي القدير هو الذي يقدر الأمور، ويسيرها كيفما يشاء؟... وهل يفيد الفزع والهياج في هذه الحالة؟... طبعًا لا... فيما إذًا يجزع، ويهلع؟

كان جسم هشام وحده، هو الموجود في الطائرة تلك اللحظات العصبية، أما فكره وروحه فقد كانا يحلقان هناك في أرض الوطن، يرودان أجواء الأهل والأحبة، ويستذكران دقائق تفاصيل الوجوه العزيزة التي تركها هناك، والمواقف الحميمة التي كانت آخر ما ودّع به عندما غادر جدة إلى بلاد الغربة.

وكان الإيمان الذي يملأ كل جارحة فيه يجعله على يقين من أن ما قدَّره الله هو الكائن، وأن الله، تباركت أسماؤه، لن يضيعه، ولن يخذله، وأنه ـ ولا ريب ـ سيجعل له مخرجًا من هذه المحنة الخطيرة التي كان يجتازها.

وانتبه هشام من خواطره على جاره الأميركي، وهو يجذبه من ذراعه بعصبية، ويقول له:

ـ هل تعلم لم تدور الطائرة في الجو هكذا، مع أن بقدرتها الهبوط دون عجلات؟... أنا أقول لك... إنها تحرق الوقود الذي زودت به

خوفًا من انفجارها عندما ترتطم بالأرض دون عجلات... هل فهمت؟

وابتسم هشام، وقال له مسايرًا:

- أجل فهمت.

- ليتها تهبط، وتنفجر، وننتهي... إنني لم أعد أطيق هذا القلق القاتل.

ووجد هشام نفسه يقول له بالعربية باسمًا:

- وكّل الله يا شيخ.

ونظر إليه الأميركي مستفهمًا، وفي هذه اللحظة هدر في الطائرة الصوت المألوف الذي يرافق نزول عجلات الطائرة عادة، وارتفع صوت الطيار من خلال مكبرات الصوت:

أيها السيدات والسادة أهنئكم... لقد وفِّقنا أخيرًا في إنزال عجلات الطائرة، وسنهبط خلال دقائق... وسيكون كل شيء على ما يرام.

وعاد الهياج يسيطر على جو الطائرة، وصيحات الفرح تنطلق هنا وهناك، بينما لم يزد هشام على أن همس في سره بخشوع:

- الحمد لك يا رب.

والتفت إلى جاره الأميركي الذي استقبل النبأ بعصبية أكثر، فراح يقول والفرح الشديد ينضح من كلماته:

- هل سمعت؟... لقد نجونا... لقد نجونا.

وتوقف عن هتافه العصبي، ليتأمل هشام في هدوئه العجيب... هز رأسه بعنف وهو يقول:

- بصراحة... أنا لا أفهمك... هذا الهدوء الذي قابلت به نبأ النجاة لا يقل غرابة عن الهدوء الذي قابلت به نبأ الخطر... إنني لا أفهمك.

ورد عليه هشام بالهدوء نفسه:

ـ لقد قلت لك: إن من الصعب عليّ أن أشرح لك الأمر... وأزيد الآن... إن من الصعب عليك أن تفهم.

وفي هذه اللحظة كانت عجلات الطائرة قد لامست الأرض، وراحت تطوي أرض مدرج المطار بسرعة هائلة، ثم ما لبثت هذه السرعة أن تناقصت شيئًا فشيئًا إلى أن توقفت الطائرة تمامًا.

وحين نزل الركاب من الطائرة، رأوا ما كان المطار فيه من هرج ومرج بسبب ذلك الخطر العابر الذي تعرضوا له، فقد اصطف عدد كبير من سيارات الإطفاء، والإسعاف، والشرطة في مواقع مختلفة قرب أحد المدرجات البعيدة، بينما كسيت أرض المدرج برغوة بيضاء كالثلج غطتها كلها، ففهم هشام أن هذه الرغوة قد أعدت لتنزلق الطائرة فوقها، على بطنها، فيما لو لم يقيض الله للعجلات أن تنزل، للتخفيف قدر الإمكان من أخطار الهبوط دون عجلات.

ومرة أخرى تمتم هشام في سره:

ـ الحمد لله يا رب.

٤٦

كان ما انزعج له هشام، بعض الشيء، أنه قد وصل إلى مدينة نيويورك يوم السبت، ومعنى هذا أن عليه أن ينتظر يومين قبل أن يتمكن من مراجعة مكتب البعثات السعودي في المدينة، ولم يكن هذا التأخير سببًا في أن يبتهج هشام إذ أتيحت له الفرصة للتجول في هذه المدينة الأمريكية الكبيرة، ومشاهدة ما يمكن مشاهدته من معالمها، ذلك أن شعور الوحشة القاتلة قد عاوده بمجرد أن أنهى إجراءات الدخول، ثم النزول في فندق كان أحد زملائه قد أعطاه عنوانه.

وكان شوقه إلى هيا قد فاق قدرته على الاحتمال، فلقد كان حريًا به أن يسعد لهذه «العطلة» الطارئة التي وجد نفسه فيها لو أن زوجته كانت معه، أما وأنه وحيد... وحيد إلى أقصى درجات الوحدة، فقد كان يعدّ استمتاعه بأي شيء مما مر به في رحلته هذه، انتقاصًا من واجب وفائه لهيا، فهو لا يرضى بأي شيء بأن يستمتع بشيء لا تشاركه هيا فيه، إضافة إلى أنه كان قد ضاق ذرعًا بالحديث باللغة الإنجليزية، وبات يتمنى أن يسمع ولو كلمة عربية واحدة، أو أن يرى أي أخ عربي في هذه المدينة الضخمة، ولكن أمنيته لم تتحقق، وظل وحيدًا... وحيدًا... على الرغم من آلاف الأشخاص الذين كان يمر بهم، ويمرون به في شوارع نيويورك، وعلى الرغم من آلاف السيارات التي كانت تزحم الطرق، وعلى الرغم من اللافتات الملونة الضخمة بأشكالها العديدة، وحركاتها الغريبة، وعلى الرغم من الصخب والضجيج اللذين كانا يملأان الشوارع التي ارتادها.

والواقع أن هشام شعر بنوع من خيبة الأمل، فما كان في تقديره أن يزهد إلى هذا الحد بكل هذه الأشياء الجديدة عليه، والتي كان يراها أنى أدار بصره، ذلك أن شعور الوحدة والوحشة قد فاق كل ما كان يتوقعه، لدرجة حدث نفسه معها بأنه لو خيِّر بين أن يكون في بلاده، هذه اللحظة، أو أن يكون في هذه الدنيا الغريبة، لاختار الأولى دون تردد.

وهكذا راح يتجول في الشوارع القريبة من الفندق بغير هدف معين، أكثر من تمضية الوقت إلى أن يحين وقت النوم، بانتظار اليوم التالي، وهو يوم عطلة أيضًا، ليراجع ـ من ثم ـ مكتب البعثات السعودي، ويباشر المهمة التي جاء من أجلها.

وإذ شعر أن بوسعه أن ينام بعد أن نال منه التعب كل منال بعد سيره الطويل، اشترى بضع شطائر من الجبن والبيض، متحاشيًا شطائر اللحوم على أنواعها، ثم عاد أدراجه إلى الفندق.

٤٧

عندما فتح عينيه، صباح يوم الأحد، خامره شعور غريب بأنه ما زال في موطنه، وفي بيته، وأنه لم ينتقل ـ بعد ـ إلى بلاد الغربة، وأن كل ما مر به منذ أن استقل الطائرة من جدة لم يكن سوى حلم طويل.

ولم يتحرك من مكانه في السرير، بل ظل مفتوح العينين كأنه ينتظر أن يسمع صوت هيا وهي تدندن بأغانيها المفضلة في المطبخ أثناء انهماكها في تحضير الإفطار، ومع أنه اعتاد ـ بحكم عمله ـ أن يفيق باكرًا، إلا أنه كان يحرص على البقاء في السرير، مصغيًا إلى غناء هيا الخافت الذي كان يطربه، ويجعله يشعر بسعادة الدنيا وجمالها، منتظرًا أن تأتي إليه، وعلى وجهها ابتسامتها الحلوة، لتقول له عبارتها المحببة التي عودته على أن تطالعه بها كل صباح منذ زواجهما:

ـ صباح النور.

عندها، كان يبتسم لها، ويبادلها تحيتها، ثم ينهض من السرير.

الآن عليه أن ينهض بنفسه، فلا أحد سيوقظه لأنه وحيد، وبينه وبين حلوته المحبوبة هيا آلاف وآلاف من الأميال.

وهذه الغرفة ليست غرفته، إنها غرفة مستأجرة في فندق، وليس فيها ما يمت إليه بأية صلة... وهذا الأثاث هو غير ذاك الذي تركه هناك، والذي اختارته هيا، بذوقها المرهف، قطعة قطعة... وناطحات السحاب التي تبدو من وراء النافذة، تختلف كل الاختلاف عن المشهد الطبيعي الساحر الذي اعتاد أن يستقبله في حائل كلما نهض من السرير.

هنا كل شيء ضخم، كبير، جامد، يقف شامخًا غير مكترث بأحد.

وهناك، في بلاده، كان يشعر بمحبة تربطه إلى كل شيء... لا سيما أشجار الحديقة التي كان يحرص على العناية بها يوميًا، ويتابع نموها بكثير من الشغف، والاهتمام.

واستقام أخيرًا في جلسته، وهو يتنهد بغير سعادة، فهو قد جاء إلى هنا في «مهمة»، وعليه أن ينجزها بأقصى ما يستطيع من العناية والإتقان، أما المشاعر الإنسانية التي كان يستعذب تغلغلها في كيانه وروحه فلا مكان لها الآن؛ لأن أحدًا ما لن يفهمه، تمامًا كما لا يفهم، هو، أحدًا.

وشعر بأنه زاهد في تناول طعام الفطور، فطلب فنجانًا من الشاي، وفي خاطره أن ينتهي هذا اليوم أيضًا بأسرع ما يمكن لكي يستطيع مباشرة «مهمته» بصورة فعلية.

وخلال دقائق كان في الشارع، وسره أن الجو دافئ، خلافًا لما كان عليه في لندن، فأشار إلى سيارة أجرة ركبها، وطلب إلى سائقها أن يأخذه إلى الشارع الذي يوجد فيه المكتب السعودي.

ومع أنه كان يعلم أن المكتب مغلق بطبيعة الحال في يوم العطلة هذا، إلا أنه كان في أشد الشوق إلى أي شيء يحمل اسم بلاده، محاولًا إقناع نفسه بأن من الأفضل له أن يستدل على مكان المكتب منذ الآن ليتمكن من التوجه إليه غدًا بغير عناء.

وأنزله السائق أمام عمارة ضخمة، تتألف من أربعين طابقًا أو أكثر، فمضى يبحث بعينيه عن اسم المكتب إلى أن وجده، فشعر بفرحة طاغية، فها هو يرى شعار بلاده الحبيب يعلو اللافتة الأنيقة المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية، فمضى إلى المصعد بنشاط ولهفة، وراح يبحث من ثم عن المكتب إلى أن وجده أخيرًا.

كان المكتب مغلقًا، فمدَّ هشام بصره عبر بابه الزجاجي العريض، وأجاله على الجدران التي زينت بلوحات فوتوغرافية عن بعض المعالم المميزة في المملكة، تتوسطها لوحة كبيرة للكعبة المشرفة، الأمر الذي قفز بأفكاره إلى بلاده، وأرضه، وأهله.

وإذ تحرك للذهاب، لفتت انتباهه بضع رزم من الصحف السعودية، يبدو أن الساعي قد وضعها إلى جانب الباب بسبب العطلة الأسبوعية، فتوقف وراح يستعرضها بنظره وقد ذاب شوقًا وحنينًا: عكاظ، الرياض، الندوة، الجزيرة، المدينة... وحدَّث نفسه عن أثر الزمان والمكان في الانفعالات التي يعيشها الإنسان، فهو ينظر ـ الآن ـ إلى كل ما يذكره ببلاده نظرة عاطفية، يكاد يحس معها بالدموع تطفر من عينيه.

وغادر المكان وقد ارتفعت روحه المعنوية كثيرًا، وزايله جانب كبير من شعور الوحدة والوحشة، ومضى يستعجل الساعات كي تشرق شمس اليوم التالي ليعود إلى «المكتب السعودي» الذي سيتولى توجيهه إلى معهد اللغة الإنجليزية، واستكمال الإجراءات اللازمة لذلك.

وحين سار متجولًا في الشوارع، أحس أنه قد بات أحسن حالًا مما كان، وأن جبال الأسى التي كانت تثقل قلبه وروحه قد انزاحت أو كادت، وأن كل شيء سيكون ـ بإذن الله ـ على ما يرام.

٤٨

لم تكن قد مضت على وصول الآنسة نادية ـ أو المس نادية كما ينادونها ـ إلى المكتب أكثر من دقائق معدودات حين رأت هشام وهو يدخل، وفي حركته شيء من الارتباك.

وابتسمت نادية ابتسامة مرحِّبة، اعتادت أن تستقبل بها مراجعي مكتب البعثات، وقبل أن تلقي إحدى عبارات الترحيب التي ترافق تلك الابتسامة عادة، سبقها هشام إلى إلقاء تحية الصباح باللغة الإنجليزية، فردت عليه تحيته، وأردفت متسائلة عما تستطيع أن تفعله من أجله.

ولم يكد هشام يعرفها بنفسه، ويبلغها بأنه مبتعث سعودي جديد،

حتى اتسعت ابتسامتها، وقالت له على الفور باللغة العربية بلهجة دلت على أنها لبنانية:

ـ أهلًا وسهلًا فيك... تفضَّل.

وشعر هشام براحة غريبة في تلك اللحظة، فها هو ـ أخيرًا ـ يستعيد ما افتقده عددًا من الأيام، فقال للفتاة باسمًا:

ـ أعتقد أن الأخت لبنانية... أو سورية؟

وردت نادية باسمة:

ـ بل لبنانية... على كل حال لا فرق بيننا... كلنا عرب.

وعلَّق هشام بحرارة:

ـ صدقت... صدقت... أجل... كلنا عرب.

وتهالك على المقعد وهو يتنهد بارتياح، فها هو الآن في بيت عربي... بيت سعودي... فيه يجد، أنى أدار بصره، لمحات من وطنه وبلاده.

ـ تعرفين يا آنسة؟... أنت أول إنسان عربي أقابله منذ أن غادرت جدة قبل بضعة أيام.

قال هشام ذلك وهو يشعر بدفء الدار والوطن في بلاد الغربة، فهو لم ينظر إلى «المكتب السعودي» على أنه دائرة رسمية، بقدر ما شعر أنه داره، وأنه جزء من وطنه.

وردت الفتاة وهي منهمكة في إعداد القهوة الأميركية:

ـ هذه ليست أول مرة أسمع فيها هذا الكلام... كثيرون من زملائك المبتعثين قالوه لي قبل الآن... وأنا أقدِّر شعوركم هذا كل التقدير... فأنا، كما ترى، مثلكم... أعيش في بلاد الغربة... وأحنّ إلى كل شيء عربي... كل شيء يمت إلى بلادنا العربية بأية صلة.

وسكتت الفتاة لحظات، ثم تنهدت واستطردت بصوت خافت:

ـ لا نستطيع أن نعرف معنى أن نقابل إنسانًا عربيًا إلا في بلاد الغربة.

وقدمت له فنجان القهوة وهي تقول:

ـ هذه قهوة أميركية... بعد قليل نقدم لك القهوة العربية على الطريقة السعودية... بل والشاي أيضًا.

وضحك هشام بسعادة، وزال عنه شعور الوحدة تمامًا، حيث وجد في نفسه الجرأة على أن يسأل الفتاة عن نفسها، وأحوالها، وسبب وجودها في تلك البلاد.

وجلست الفتاة قبالته تحتسي قهوتها، وهي تجيب عن أسئلته:

ـ إنني لبنانية كما قلت لك.... هاجرت عائلتي إلى الولايات المتحدة منذ بضع سنوات... وقد التحقت بهذا المكتب للعمل سكرتيرة... فأحببت هذا العمل... فهو يذكرني بوطني بشكل ما... وأعتقد أنك توافقني في تقدير مدى السعادة التي يشعر بها الإنسان في بلاد الغربة عندما يجد من يتحدث معهم بلغته.

وأومأ هشام موافقًا، فاستطردت الفتاة تقول بلهجة ضاحكة:

ـ الغريب أن تجد العرب مختلفين وهم في بلادهم... ثم تراهم في بلاد الغربة متفاهمين، متحابين.

فابتسم هشام وهو يجيب:

ـ لو أنهم جربوا، جميعًا، مرارة الوحدة في الغربة؛ فلربما كان حالهم أفضل.

وضحكت الفتاة وقالت:

ـ فكرة معقولة... الواقع... ليس هناك أسعد من إنسان لا يسيطر عليه شعور الوحدة، والوحشة.

ـ ويا لها من سعادة... إنني أشعر الآن بقيمتها حق الشعور...

ولو كنت أعلم بهذه القيمة لاصطحبت زوجتي معي بكل تأكيد... لقد تركتها في المملكة ظنًا مني بأن من الضروري ألا أتحدث مع أحد باللغة العربية أثناء دراستي للغة الإنجليزية... ولعلي كنت مخطئًا في ذلك... فليس بإمكان المرء أن ينسلخ عن بيئته انسلاخًا كاملًا... لا بد له من شيء يربطه بهذه البيئة.

وأدار وجهه في أرجاء الغرفة، ثم أكمل:

ـ هذه المشاهد التي تزينون بها أرجاء المكتب... كنت أراها في المملكة شيئًا عاديًا ومألوفًا... أما الآن فإن لها عندي قيمة أكبر... ولها في نفسي تأثير عظيم... حقًا... إن الإنسان لا يعرف قيمة الشيء إلا عند افتقاده.

وعلقت الفتاة والابتسامة ما تزال على شفتيها:

ـ المدهش أن جميع المبتعثين الذين يأتون إلى المكتب يقولون الكلام نفسه، حتى الألفاظ تكاد تكون هي نفسها حرفيًا.

وانصرفت الفتاة إلى عملها بعد أن وضعت عددًا من الصحف السعودية بين يدي هشام، فهي ـ كما قالت ـ تأتي مبكرة عن موعد الدوام الرسمي لإعداد الأوراق، وتجهيز الملفات.

وراح هشام يقرأ تلك الصحف بعناية، حتى الإعلانات كان يتوقف عندها متأملًا، فإن كل شيء في تلك الصحف كان يذكِّره ببلاده التي غادرها منذ أقل من أسبوع، ومع هذا فإن تلك المدة بدت في نظره وكأنها دهر طويل.

وقبل أن ينتهي من تصفح أول جريدة؛ تناهى إليه صوت يقول له باللهجة السعودية:

ـ صباح الخير.

وهب واقفًا يرد التحية، ويصافح اليد الممدودة إليه بمودة وعطف،

فها هو أحد موظفي المكتب السعودي يحييه، وقد ألف ـ ولا ريب ـ أن يرى أمثال هشام في المكتب، مع الأعداد المتزايدة للمبتعثين في مختلف الاختصاصات، وخلال ثوان كان هشام يجلس في غرفة الموظف، ومعه آخرون من الموظفين الذين جاؤوا تباعًا إلى مقر عملهم، فراحوا يبادلونه الأحاديث وهو يصغي إليهم بكل جوارحه، ويرد على أسئلتهم بثقة واطمئنان، فلقد أحس وكأنه قد عاد مرة أخرى إلى بلاده، وإن جو الغرفة إنما هو قطعة من صميم أي مكتب رسمي في المملكة.

وكان أكثر ما اغتبط له، وأشعره بالتأثر، هو الاهتمام الواضح الذي لقيه من موظفي المكتب، فهم مع اعتيادهم على استقبال الشباب السعوديين المبتعثين، ما كانوا يعجزون عن إدراك الإحساس الذي يخامر أولئك الشباب لا سيما الذين يغادرون المملكة لأول مرة، حتى بات بث الاطمئنان والألفة في نفوسهم جزءًا طبيعيًا من أسلوبهم في ممارسة عملهم في المكتب، واستقبال زوارهم من المبتعثين.

وخلال الحديث كان أحد الموظفين يقوم بالإجراءات اللازمة لإلحاق هشام بمعهد اللغة، بعد أن اطلع على أوراقه، ومستنداته، فأعد له خطابًا موجهًا لإدارة المعهد، وفيه الصيغة التقليدية التي تفيد بأن هشام هو أحد مبتعثي حكومة المملكة العربية السعودية، وأنه تحت الكفالة الكاملة، والمسؤولية الشاملة للمكتب السعودي في الولايات المتحدة، كما حرَّر له شيكًا بالمبلغ الذي يعطى عادة للمبتعثين فور وصولهم، وزوده ببطاقة السفر بعد أن حجز له ـ بالتلفون ـ مكانًا على الطائرة التي تغادر نيويورك إلى مشيغان بعد ساعتين.

وقال له الموظف وهو يسلمه الأوراق والبطاقة:

ـ انتبه جيدًا يا باشمهندس... تركب الطائرة من مطار لاجوارديا في نيويورك، ولا تنزل منها إلا في مطار لانسنغ في ميشيغان... إياك أن

تنزل في أي مطار آخر من المطارات التي ستتوقف الطائرة فيها خلال الرحلة.

وكانت الابتسامة ترتسم على وجه الموظف وهو يقول عبارته تلك، وازدادت الابتسامة اتساعًا وهو يفسر له سر تلك الملاحظة:

ـ أحد الإخوة المبتعثين، هداه الله، نزل في أول مطار هبطت فيه الطائرة؛ ففوجئ بأن المدينة التي نزل فيها هي غير المدينة المقصودة... وكانت تلك أول مرة يزور فيها الولايات المتحدة... وعندما اكتشف خطأه حار في أمره، واتصل بنا، ووفقنا في تدارك هذا الخطأ.

وضحك هشام للقصة، وأجاب باسمًا:

ـ إن أول شيء تعلمته في رحلتي هذه منذ أن غادرت جدة هو ألا أدهش لأي شيء يحدث، أو أي شيء أراه.

ووضع فنجان القهوة العربية الذي كان يحتسيه في تلذذ، وتناول أوراقه، وتذكرته، ونهض مسلِّمًا على الجميع، شاكرًا لهم ما لقيه منهم، ذاكرًا أنه سوف يتوجَّه إلى الفندق، ومنه إلى المطار في الحال، فهو إنما جاء إلى هذه البلاد من أجل مهمة محددة، وفي عزمه ألا يضيع يومًا واحدًا من وقته دون أن يخطو فيه ولو خطوة واحدة نحو هدفه.

وشدَّ موظفو المكتب على يده مودعين بالألفة والمودة نفسها؛ التي استقبلوه بها، وكأنهم يعرفونه منذ زمن طويل.

وقال له أحدهم وهو يصافحه:

ـ سوف أتصل حالًا ببعض المبتعثين السعوديين هناك ليكونوا في استقبالك، وأرجو لك التوفيق والنجاح.

وغادر هشام «المكتب السعودي» وقد بلغت حماسته أوجها، ولم ينس أن يودع الآنسة نادية وهو يتجه إلى باب الخروج، ليتوجه إلى الفندق، ومنه إلى مطار «لاجوارديا» من غير أدنى تلكؤ.

لم يجد هشام عناء كبيرًا في الاستدلال على مستقبليه الاثنين في مطار «لانسنغ»، وقد عرف بعد دقائق أن أحدهما يدعى «حمود» والآخر «صالح»، فهو قد اعتاد على البحث عن «الوجه العربي» في كل ازدحام يجد نفسه أمامه، بل إن هذا البحث بات أشبه بالهاجس، فهو يشغله منذ أن غادر بلاده.

وكذلك لم يجد حمود وصالح عناء في تمييز هشام بين ركاب الطائرة، وهم يهبطون منها، فقد كان يدير عينيه جهة قاعة الاستقبال عندما التقت عيناه بعيونهما، وفي ومضة من ومضات الإخاء والمحبة التي تربط ما بين أبناء الوطن الواحد تم التعارف بين المبتعث الجديد وزميليه اللذين كانا في انتظاره، فكانت المصافحة بعد إنهاء إجراءات الدخول، وكأنها تتم بين قدامى الأصدقاء، فلم يكن ينقص هشام إلا أن يعرف اسمي مواطنيه لكي يصبح وجودهما بانتظاره في المطار من قبيل تحصيل الحاصل.

وركب هشام إلى جانب صالح في سيارته، وجلس حمود في المقعد الخلفي، وانطلقت السيارة بعد ذلك في الأتوستراد العريض، متجهة إلى بلده «ماونت بلزانت» حيث يقيم معظم المبتعثين السعوديين إلى جامعة مشيغان.

وقال صالح لهشام بالإنجليزية، وهو يركز عينيه على الطريق:

ـ مرحبًا بك في ميشيغان... هه... كيف كانت الرحلة؟

وتنهد هشام، وأجاب بالعربية:

ـ الرحلة بحد ذاتها لم تكن سيئة... ولكنني عانيت كثيرًا من شعور الوحدة والوحشة... إلى أن التقيت بموظفي المكتب السعودي في نيويورك... ثم بكما.

وارتفع صوت حمود من المقعد الخلفي مخاطبًا هشام بالإنجليزية:

ـ عفوًا يا سيد هشام... لقد سألك الأخ صالح بالإنجليزية... ويجب أن تجيبه بالإنجليزية.

وضحك هشام، والتفت إليه قائلًا بالعربية:

ـ يا خوي خلّيها على الله... منذ أيام وأنا لم أسمع كلمة عربية واحدة... ناهيك باللهجة السعودية بالذات... فدعني أتكلم كما أريد.

ولكن حمود أجابه بالإنجليزية بجدية تامة:

ـ إنني لا أمزح... أنت هنا، كما قالوا لنا في المكتب السعودي، للتمكن من اللغة الإنجليزية... وعليك أن تتكلمها منذ الآن قدر ما تستطيع... وكذلك عليك أيضًا أن تفكر باللغة الإنجليزية... إياك أن تلجأ إلى ترجمة الكلمات في ذهنك من العربية إلى الإنجليزية... هذه أول قاعدة من قواعد إتقان اللغات الأجنبية... فكِّر وتكلم باللغة الإنجليزية مباشرة.

وحدَّق هشام في الطريق الذي كانت في السيارة تطويه بسرعة، وتمتم بالإنجليزية قائلًا:

ـ أنت على حق.

وعاد وجه هيا يطل عليه، وهو ينظر ساهمًا إلى الطريق، فهو قد تذكر أنه إنما خلف زوجته في حائل لهذا السبب على وجه التحديد، فكيف سها عن ذلك؟ وكيف سمح لنفسه أن يتحدث العربية مع الآخرين؟... لقد أبى أن يصطحب زوجته كيلا يضطر إلى التحدث معها بالعربية... ترى هل نسي ذلك؟... وذاب قلبه حنينًا وألمًا حين تذكر صوتها وهي تخاطبه على التلفون، وتعده بألا تنطق بكلمة واحدة إذا ما اصطحبها معه في البعثة، وكيف تمسك بموقفه دون أن يحسب لآلام الفراق حسابًا، أو يتوقع ما سوف يشعر به من الوحدة، والوحشة.

وعادت خيالاته تطوف به في أرجاء وطنه، وأحبائه، وترود ـ في مثل ومض البرق ـ آفاق الذكريات العزيزة الغالية ليشعر، من ثم، بعزيمته تزداد مضاء وحدّة، وإرادته تلتهب حماسة وتصميمًا كي يحقق حسن الظن به، ويؤدي المهمة التي أتى من أجلها... ويصل إلى الهدف الذي يصبو إليه.

وكأنما شعر زميلاه بما كان يراود ذهنه من أفكار، فأخلدا إلى الصمت، فهما قد قاسيا، قبله، مما يقاسي منه الآن، وهما، بالتالي، يعرفان شعوره حق المعرفة، فآثرا أن يتركاه إلى خواطره.

وأخيرًا تكلَّم صالح... وقال بالإنجليزية وهو يومئ إلى مظاهر العمران التي بدت في آخر الطريق:

ـ هذه هي ماونت بلزانت... إنها كما ترى مدينة صغيرة تختلف كل الاختلاف عن نيويورك... ولكنها تهيئ لك ميزتين... الأولى هي اعتدال النفقات بالنسبة للمدن الكبيرة... والثانية هي الانصراف إلى الدراسة انصرافًا كليًا... إذ ليس في مثل هذه المدينة ما يشغل سكان المدن الكبيرة.

وقال حمود:

ـ ستنام الليلة عندي... وغدًا، بإذن الله، تذهب إلى المعهد.

وحاول هشام الاعتذار، فهو لا يريد أن يثقل على مواطنيه أكثر مما فعل، ويكفي أنه جشمهما عناء استقباله وإيصاله إلى البلدة... فقال:

ـ لا داعي لأن تزعج نفسك... سوف أبيتُ ليلتي هذه في أي فندق... لقد أثقلت عليكما بما فيه الكفاية.

فضحك حمود وهو يجيبه:

ـ ليس في ذلك أي إزعاج... فعائلتي في المملكة لأداء واجب اجتماعي، وعندي غرفة مخصصة للضيوف.

وأضاف صالح وهو يجتار بسيارته مدخل البلدة:

ـ تمامًا كما قال الأخ حمود... سنأخذك في جولة سريعة تتعرف فيها على أهم معالم البلدة... ثم نسهر لنزودك بما تريد من معلومات حول ما يترتب عليك لأداء الغرض الذي جئت من أجله.

وتوقفت السيارة أخيرًا أمام عمارة مؤلفة من بضعة أدوار، ونزل الثلاثة منها، وحملوا الحقائب، وتوجهوا إلى المصعد... وقال صالح لهشام باسمًا:

ـ على فكرة يا أخ هشام... لغتك الإنجليزية جيدة... وأتوقع أن تحقق نجاحًا سريعًا في إتقانها بالمستوى المطلوب خلال وقت قصير.

وعلَّق حمود على كلام صالح:

ـ لا تنس أنه مهندس... أو بالأصح «باشمهندس»... ترى... ما هي ترجمة «باشمهندس» بالإنجليزية؟

وضحك الثلاثة وهم يلجون باب المصعد؛ الذي ارتفع بهم إلى الدور الذي يسكن فيه حمود.

٥٠

في صباح اليوم التالي كان هشام في طريقه إلى معهد اللغة التابع للجامعة، بعد أن أمضى معظم الليل ساهرًا مع صديقيه الجديدين اللذين حاولا إعطاءه أوسع معلومات ممكنة عن البلدة التي يعيشون فيها، وعن طريقة الحياة، والسلوك، والتعامل، ووجوه الاختلاف ما بين أسلوب الحياة في المملكة وأسلوبها في هذه البلاد.

وكان الحديث قد دار، بطبيعة الحال، باللغة الإنجليزية، وكان هشام يبذل جهده في متابعته والاشتراك فيه باللغة ذاتها، وعندما كان زميلاه يشعران بأن الكلمة المناسبة تعوزه في إحدى فقرات الكلام

كانا يقولانها له، ويوجهان انتباهه بشكل خاص إلى الاصطلاحات الأميركية الغريبة التي لا يمكن لغير من عاش في أمريكا، وتخاطب مع الأميركيين أن يفهمها، لا سيما الإشارة إلى بعض التعابير الطويلة بالحروف الأولى من كل كلمة، حيث تتشكل كلمة جديدة تستخدم في الإشارة إلى ذلك التعبير، فلا يفهمها إلا من عرف أصل الكلمة، ورموز حروفها.

وكان مما ارتاح له هشام أنه وجد من ذهنه ميلًا تلقائيًا إلى «التفكير» باللغة الإنجليزية، بعد أن شدد عليه صديقاه بضرورة ذلك، ونبهاه باستمرار كلما اضطر إلى إدخال كلمات عربية في حديثه معهما.

وما إن وطئت قدماه المعهد حتى بدأ يواجه متاعب فهم «اللغة الأميركية» مواجهة عملية، إلى أن استطاع الاستدلال على الموظفة المختصة، والدخول إلى مكتبها، حيث رفعت حاجبيها متسائلة قائلة بهدوء:

ـ هل أستطيع مساعدتك؟

وشرح لها هشام موضوعه، وكانت السيدة تتابعه بصبر يدل على اعتيادها على مواجهة مثل هذه المواقف، وإن اضطرت أكثر من مرة لأن تقول له بأناة، وهي تضغط مخارج الحروف:

ـ أرجوك يا سيد... أرجو أن تتكلم ببطء لكي أستطيع أن أفهم منك ما تريد.

وكان واضحًا أن السيدة قد أدركت غرضه لمجرد دخوله إلى مكتبها، فمعهد اللغة الملحق بالجامعة يستقبل كل عام أعدادًا كبيرة من المبتعثين الآتين من مختلف بلاد العالم، والذين تختلف لهجاتهم، وطريقة نطقهم، ولكنها أرادت ـ على ما يبدو ـ أن تلقن هشام «الدرس الأول» في الحديث باللغة الإنجليزية، فنبهته بلباقة إلى ضرورة الكلام ـ بادئ الأمر ـ ببطء، والاهتمام بمخارج الحروف.

وتناولت السيدة أوراق هشام، وأشارت له بالجلوس، وقالت له بتلك اللهجة المتأنية:

ـ مرحبًا بك عندنا... هنا كثير من الطلبة السعوديين... في مختلف مستويات المعهد... آه... أنا آسفة... نسيت أن أقدِّم لك نفسي... أنا «المسز جاب»... ويسعدني أن أقدِّم لك كل خدمة ممكنة.

ووضعت السيدة نظارتها الطبية على عينيها، وراحت تقلب في أحد الملفات، وهي تواصل الحديث:

ـ سوف نؤمن لك السكن المناسب... وسيكون معك في الغرفة زميل أميركي... أنت تعرف طبعًا لماذا... لكي تستطيع الاستفادة من حديثك معه، وطبعًا إذا لم تعجبك صحبته يمكنك استبدال الغرفة... شيء آخر أود أن أوضحه لك... وهو أننا سنجري لك اختبارًا نحدد بموجبه المستوى اللازم الذي يناسبك... لدينا هنا مستويات عديدة... تناسب جميع المبتعثين... وأستطيع أن أقول لك منذ الآن أنك في مستوى جيد... فلغتك لا بأس بها... وأنت، كما يبدو من أوراقك، مهندس... وكل ما ينقصك هو إتقان قواعد اللغة بشكل أفضل... وإغناء مفرداتك... وتطوير طريقتك في النطق.

وسحبت السيدة ملفًا معينًا راحت تقلب في أوراقه، وتملأ بعض الاستمارات، بينما كان هشام يجلس صابرًا منتظرًا إنهاء إجراءات التحاقه بالمعهد.

٥١

حين دخل هشام إلى غرفته في المسكن المخصص لطلبة معهد الطلبة، وجد زميله الأميركي جالسًا على طرف سريره يتصفح إحدى المجلات.

وألقى هشام التحية، فردها الشاب قائلًا:

ـ هاي... أنا توم... زميلك في الغرفة... ويسرني التعرُّف عليك.

كان شابًا طويل القامة، أشقر الشعر، تشوب وجهه نقاط من النمش الخفيف، ويرتدي ملابس من «الجينز»، وكل ما فيه يوحي بمظهر الأميركي الصميم، لا سيما «العلكة» التي كان يلوكها بغير انقطاع وهو يتحدث إلى هشام.

وكان حريًا بهشام أن يضيق ذرعاً بهذا الشاب، ولا سيما طريقته في مضغ «العلكة»، وهو ينهال عليه بالأسئلة دون أن ينتظر لها جوابًا:

ـ من أين أتيت؟... آه «العربية السعودية»... إنها بلاد عظيمة... أحد أقربائي أقام بها بضع سنوات... كان يعمل في «أرامكو» ولكن قل لي... كيف تعيشون هناك؟... يقال: إن الحر شديد ولاهب... هل هذا صحيح؟ يقال: إنكم تجدون البترول في أي مكان تحفرون فيه... هل هذا صحيح؟... وأنت؟... كم بئرًا من البترول تملك؟... عندنا هنا في أمريكا كثير من أصحاب الملايين الذين يملكون عددًا كبيرًا من آبار البترول.

ومضى يثرثر على هذه الشاكلة، يريد أن يحصل على أجوبة على كل أسئلته دون أن يتيح لهشام فرصة الكلام، ولكن هذا لم يتمالك من الضحك حين سأله الشاب عن عدد الآبار التي يمتلكها من البترول، وقال له باسمًا:

ـ ليس عندنا أحد يملك آبارًا للبترول... البترول ملك الدولة.

وفغر الشاب فمه مستغربًا، فهو ـ كأي أميركي عادي ـ يفترض أن الناس جميعًا خارج أمريكا يتبعون الأساليب الحياتية نفسها المتبعة في بلاده، فإذا ما تبين له أن هناك شيئًا من الاختلاف لم يكتم دهشته، بل وذهوله.

وبعد أن رتب هشام أشياءه في الأدراج والخزائن، اعتذر لصاحبه، ومضى إلى الشرفة، حيث وقف يستعرض المناظر الطبيعية الجميلة المحيطة بمباني الجامعة، ويستنشق الهواء بقوة، وهو يشعر بشيء من الرضى عن نفسه، فقد بات الآن في خضم المعركة، وعليه أن يوجه جهوده كلها للانتهاء من دورة اللغة بأسرع ما يمكن.

وجلس على كرسي، وشبك أصابعه ببعضها في جلسة مسترخية، وطار بذهنه إلى هناك، إلى أرض الوطن، حيث ترك أهله وزوجته، وراح يتخيل ـ كعادته ـ ما يفعلونه تلك اللحظة، لا سيما وأن النهار قد انقضى عندهم، بينما النهار ـ هنا ـ بعد في مطلعه.

وراح يحدِّث نفسه بأن رضاه لن يكتمل إلا عندما تصبح هيا بجواره، بدلًا من هذا الشاب الثرثار، وأخذ يتخيل ما سوف يحدث عندما يصطحبها معه إلى أمريكا، لتعايشه أيامه كلها، ولتشرف على شؤونه بنفسها، وليأكل من طهو يديها مآكله المفضلة بدلًا من هذه الأطعمة التي تتشابه مع بعضها، والتي ليس لها مذاق الطعام الذي اعتاد على تناوله طول حياته.

وأفاق من استغراقه في خواطره على «توم» وهو يتقدم منه، ويقدِّم له كأسًا مملوءًا بسائل أصفر اللون، مع بضع قطع من الثلج.

وقال له الشاب:

ـ خذ هذا... ولنشرب نخب تعارفنا.

ولم يتحرك هشام، بل سأله بهدوء:

ـ ما هذا؟

ـ «سكوتش»... من أفضل الأنواع... إنه سكوتلندي أصلي... وأنا أدخره عادة للمناسبات العظيمة... ولا شك في أن تعارفنا هو من هذه المناسبات العظيمة.

وابتسم هشام، وأجابه دون أن يمد يده:

ـ شكرًا لك... وآسف... لا أستطيع أن أتناول هذا الشيء.

وارتسمت الدهشة الشديدة على وجه الأميركي، بينما أضاف هشام قائلًا:

ـ أستطيع أن أشرب معك كأسًا من عصير الليمون أو البرتقال إذا أردت... أو كأسًا من الماء إذا كنت مصممًا على الاحتفال بتعارفنا.

ونقل توم بصره بين الكأس التي في يده وبين هشام، وقال بلهجة عبرت عن دهشته:

ـ أقول لك: إنه «سكوتش» أصلي... من أفضل الأنواع و...

وقاطعه هشام قائلًا:

ـ أشكرك كثيرًا يا صديقي على هذا الاهتمام... ولكن يبدو لي أنك لا تعرف أن ديني يحرِّم عليّ شرب هذا الشيء... أنا مسلم... ولا أستطيع أن أتناول المسكرات... هل وفقت في إيضاح الأمر لك؟

وقلب الشاب شفته السفلى تعبيرًا عن استسلامه، وليس عن اقتناعه، وقال له:

ـ غريب... هذه أول مرة أسمع فيها ذلك.

فأجاب هشام، وابتسامة خفيفة تتلاعب على شفتيه:

ـ ألم يحدثك قريبك الذي قلت لي عنه بذلك؟

وهزّ الشاب كتفيه، فها هي معلومة أخرى تبدو له غريبة عن هذا الزميل الآتي من «العربية السعودية»، ولا يجد لها تعليلًا يقنعه.

ولطالما تحدَّث هشام، فيما بعد، عن الطريقة التي يتعرف بها الأميركيون إلى حقائق الحياة خارج بلادهم، واعتبارهم لكل ما يختلف عن النمط الأميركي أمرًا مثيرًا للدهشة والاستغراب، وكان هشام ـ بدوره ـ يحدِّث زملاءه الأميركيين عن أن في خارج بلادهم عوالم أعرق منها

وأقدم، وحضارات هي ـ في واقع الأمر ـ أساس من الأسس التي قامت عليها الحضارة الأميركية نفسها.

وكان أكثر ما يضحك هشام أن يرى معالم الذهول على وجوه زملائه من الشباب الأميركيين حين يقارن، بسخرية محببة، بين الحضارة الإسلامية التي تمتد إلى أكثر من ألف وثلاثمئة سنة، والحضارة الأميركية التي لا يتعدى عمرها مئتي عام ليس غير.

ولقد تكونت لدى هشام، بعد المعايشة الطويلة مع الأميركيين فكرة عن الأسلوب الفريد الذي يعيشون به، فهم ـ قبل كل شيء ـ أسرى وسائل الإعلام المختلفة، وعلى رأسها التلفزيون الذي يعمل أربعًا وعشرين ساعة بغير انقطاع، إلى جانب آلاف المجلات المتخصصة، ومئات الصحف اليومية والأسبوعية، ومئات الإذاعات الإقليمية والعامة. وهي جميعها ـ بلا استثناء ـ تقدم للمواطن الأميركي معلومات ووجهات نظر تتسم بالطابع الأميركي البحت الذي يقوم، أول ما يقوم، على تفضيل كل ما هو أميركي، واعتباره نموذجًا ليس له مثيل، ثم عرض الأمور من وجهة النظر الأميركية، وهي ـ غالبًا ـ سطحية، ومحدودة الآفاق.

بل لقد اكتشف هشام، فيما بعد، أن لديه معلومات عامة عن أمريكا ذاتها أكثر مما لدى معظم زملائه الأميركيين، وإن مباراة في «البيسبول» ـ مثلًا ـ تستقطب اهتمام عشرات الملايين من الأميركيين، بينما لا تظفر قضية إنسانية كقضية فلسطين إلا باهتمام محدود من المتخصصين، وعلى ضوء ما تقدمه وسائل الإعلام التي ليست بعيدة، كما هو معروف، عن النفوذ الصهيوني.

ولم يكن هشام يخفي إعجابه، الذي يبلغ حد الذهول أحيانًا، بروعة الإنجازات الحضارية الأميركية، ولكنه كان يرى أن كل شيء هناك محكوم بالآلة الهائلة التي تدير عجلة الحياة اليومية الأميركية، حيث

بحسب كل شيء بالساعة والدقيقة، وبالدولار والسنت، الأمر الذي يفقد تلك الحياة جوهرها الروحي الذي نعيشه نحن، والذي نطمئن إليه في بيوتنا، وسهراتنا، وجلساتنا، وعلاقاتنا الاجتماعية الحميمة، وروابطنا العائلية القوية.

هكذا كان هشام يحدِّث نفسه كلما رأى ظاهرة من ظواهر الاختلاف ـ أو التناقض ـ ما بين أسلوب الحياة التي قدِّر له أن يعيشها في هذه البلاد، وأسلوب الحياة الذي نشأ فيه، وعاش عليه، فكان أكثر ما يهمه، بعد أن بدأ دوامه في معهد اللغة، أن يحافظ على «روحه الخاصة» ـ حسب تعبيره ـ من أن تطالها المفاهيم الغربية التي لا يقرها، لا سيما حين كان يرى إلى الاختلاط غير المقبول ما بين الجنسين، والاستخفاف بالقيم الأخلاقية كما نفهمها في شرقنا، واعتبار المرح واللهو والرقص دعامات أساسية للحياة اليومية.

كان يرد بتهذيب شديد على أية زميلة أميركية تخاطبه، وكان يلتزم حدود التحفظ تجاه المحاولات التي بذلها زملاؤه الأميركيون لاجتذابه إلى محيطهم، فكان يقضي لياليه إما في بيت أحد زملائه السعوديين، أو في غرفته يطالع ويدرس أو يكتب رسائل مطولة إلى زوجته وأبيه وأخته، يروي فيها أدق تفاصيل الحياة التي يعيشها يومًا بيوم، ويسجل انطباعاته الخاصة عنها، ويعرب عن تطلعه المتلهف إلى يوم يعود إلى بلاده ليصطحب زوجته معه، وتعود إلى حياته الخاصة أساليبها التي ألفها، وعاش عليها، وأنس بها.

٥٢

وقال له زميله يومًا، وهو يتأمله:

ـ عجيب أمرك يا صديقي. . . ألا تخرج مرة إلى إحدى السهرات أو الحفلات التي يقيمها الطلبة، أو يذهبون إليها؟.

ووضع هشام القلم جانبًا، وابتسم، وهو يجيب:

ـ ليس لدي وقت كما ترى... إن عليّ واجبات دراسية عاجلة، وأنا ما التحقت بهذا المعهد إلا لإتقان اللغة، ولا أستطيع أن أضيع وقتي في اللهو والمرح كما تفعل.

وضرب الأميركي فخذه بباطن كفه، وهو يقول ضاحكًا:

ـ هذه ليست حجة... ما أساس تعلُّم اللغة؟... إنه السماع والمخاطبة أليس كذلك؟... كيف يتم هذا إذا لم تجتمع إلى الآخرين، وتحتك بهم، تخاطبهم ويخاطبونك؟... إن دروس المعهد وحدها لا تكفي... فهناك كثير من التعابير والاصطلاحات التي لا يمكنك إتقان اللغة دونها، وفي الوقت نفسه لا تستطيع أن تتعلَّمها في المعهد وحده.

واقترب توم من هشام، ولملم الأوراق التي كان هذا مستغرقًا معها، وهو يقول:

ـ هيا... هيا... دع ما في يدك، ولنخرج معًا إلى السهرة... إنني مدعو إلى حفلة مهمة، وأنا على ثقة من أنك ستسر بها كثيرًا.

وبدا على وجه هشام شيء من التردد، فقال الشاب الأميركي بسرعة:

ـ هيا ولا تتردد... وثق أنك لن تندم على مرافقتي... وكفاك انغلاقًا على نفسك ما بين جدران الغرفة وشرفتها.

وتنهد هشام في استسلام، وقال لزميله وهو ينهض من وراء منضدة الدراسة:

ـ على رسلك... ولكن اسمع... هذه المرة فقط.

فرد عليه توم بسرعة:

ـ لا بأس... لا بأس...

والواقع أن هشام وجد أنه قد يكون من المناسب أن يروِّح عن

نفسه بعض الوقت، ما دام واثقًا من متانة أخلاقه، وقوة مقاومته، كما أنه قد بات يخجل من رفضه المتواصل لكل ما يعرضه عليه زميله من اقتراحات يراها هشام متنافية مع أخلاقه، فرأى أن يسايره هذه المرة، وأن يذهب معه إلى الحفلة لا سيما وأن كل كلمة يسمعها، وكل كلمة ينطق بها سوف تكون ذات فائدة له في إتقان اللغة الإنجليزية، وهو الهدف الذي من أجله جاء إلى هذه البلاد، ومن أجله ـ أيضًا ـ ترك زوجته وشريكة حياته في المملكة.

وخلال دقائق كان الشابان جاهزين للانطلاق، وبعد دقائق أخرى كانا يلجان باب القاعة الكبيرة التي أقيمت الحفلة فيها، حيث رأى هشام، ومن النظرة الأولى، أنه قد ارتكب خطأ كبيرًا بقدومه إلى مثل هذا المكان، فقد احتشد في القاعة عشرات الشباب، من الجنسين، يمرحون ويرقصون، ويتبادلون النكات والمداعبات في جو صاخب من المرح.

واستأذن توم من هشام، وهو يلوح بيده لإحدى الفتيات، وما لبث أن لحق بها، بينما وقف هشام وحيدًا ينظر بكثير من النفور إلى ما تراه عيناه من مظاهر اللهو، والمرح.

وفي اللحظة التي قرر فيها أن ينسحب من هذا المكان ليعود إلى غرفته، لمحه عدد من زملائه وزميلاته في الفصل، فصاحوا جميعًا صيحة الدهشة والفرح، والتفوا حوله في حلقة، وقد تماسكت أيديهم بأيدي بعض، وراحوا يدورون حوله، وهم يغنون بأصوات عالية.

وجاراهم هشام في ضحكهم محاولًا في الوقت نفسه أن يفلت من حصارهم المرح هذا، ولكنه لم يتمكن، إذ كانت الحلقة الدائرة حوله تضيق شيئًا فشيئًا، والصخب يتصاعد، ثم ما لبث بعض الشباب أن حملوه على أكتافهم، وهم يغنون، وراح هشام يدير ناظريه في المكان باحثًا عن توم الذي كان سبب هذه الورطة المزعجة، ولكنه لم يره.

وأخيرًا، أنزله الشباب وهم يصفقون، ويضحكون، وهو يجاريهم في ذلك قدر إمكانه، إذ لم يشأ أن يبدو أمامهم «شاذًا»، ومختلفًا عنهم، وقال لنفسه أنه كان من المفروض فيه أن يقي نفسه مغبة هذا الموقف المحرج، بالبقاء بعيدًا عن مثل هذه المجتمعات، والحفلات.

وانفض عنه زملاؤه بعد قليل، وانهمكوا في رقصة جماعية تصاعدت معها الموسيقا صاخبة مجنونة، بشكل كاد يصيب هشام بالصمم، فانتحى ركنًا من القاعة، ينظر منه بنفور إلى ما يدور أمامه، ويتحين الفرصة للانسحاب من غير أن يلحظه أحد.

واقتربت منه إحدى الفتيات الأميركيات وهي تلهث لكثرة ما رقصت، وقالت له وهي تجذبه من يده:

ـ تعال بنا نرقص.

ولكن هشام سحب يده، وقال:

ـ شكرًا... لا أريد.

ودهشت الفتاة، وحدقت فيه تحديقًا شديدًا، وهي تقول:

ـ هذه أول مرة يرفض فيها شاب مراقصتي... فهل لك أن تفسر لي ذلك؟

ورد هشام ببساطة، وهو يضع يديه في جيبي بنطلونه:

ـ هكذا.

وكأنما اجتاح الفتاة غضب لهذا الجواب، فصاحت به مستنكرة:

ـ هيه... ألا تعلم أن من المفروض فيك أن تطلب مني مراقصتك بدلًا من أن أعرض أنا عليك ذلك؟

واعتصم هشام بالصمت.

وعادت الفتاة تقول في غيظ:

ـ تدري؟ لو أنك طلبت مني أن أراقصك لرفضت.

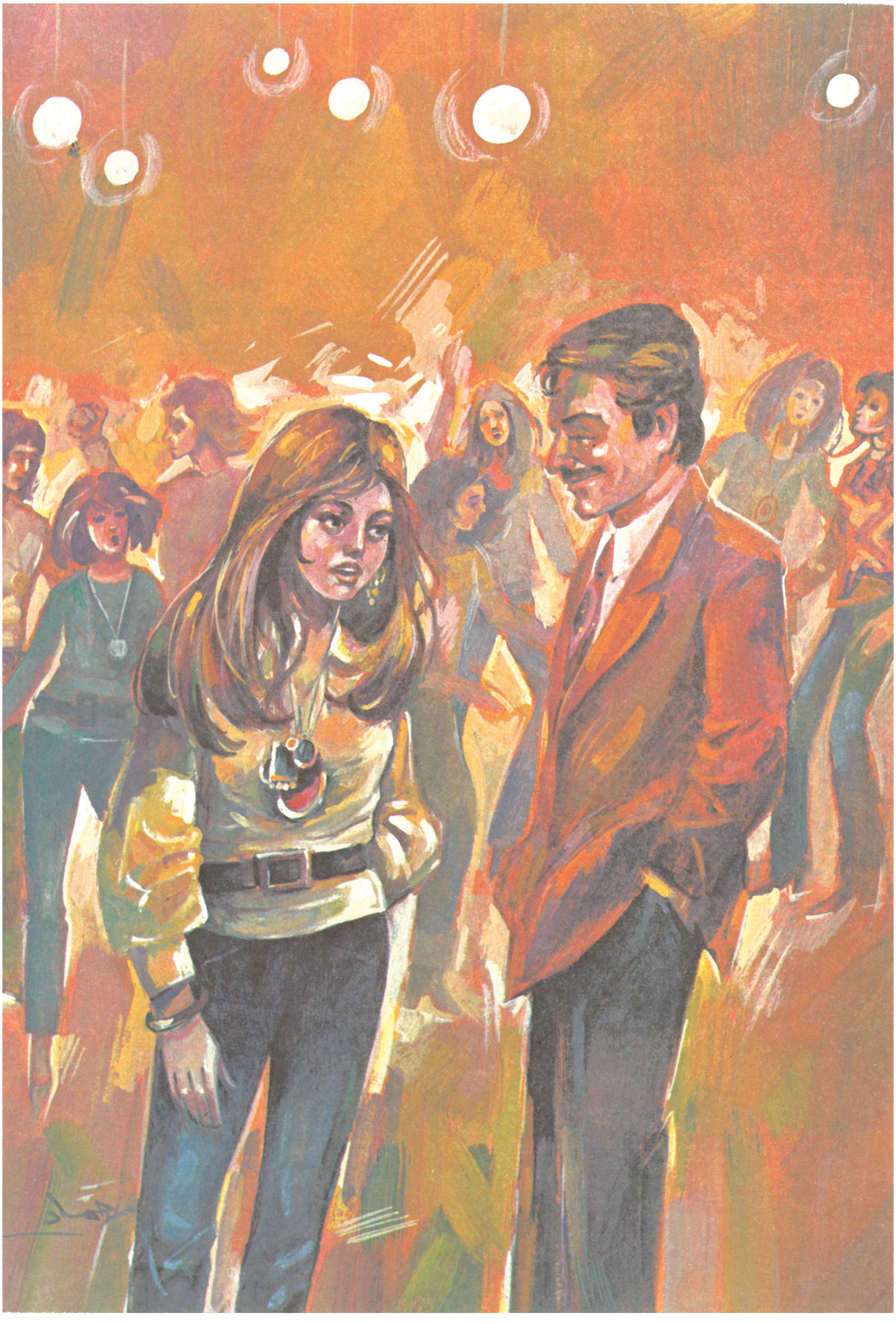

فابتسم هشام وهو يجيبها:

ـ عظيم... نحن متفقان إذًا... فلو عرضت عليك مراقصتي لرفضت، وأنا كما قلت لك لا أريد مراقصتك، ولا مراقصة سواك.

واستدرك هشام وقد أحس بأنه كان قاسيًا في جوابه:

ـ أرجو ألا تفهمي المسألة على أنني أتعمد إهانتك، وإنما أنا لم أتعود على الرقص أبدًا... وهذه أيامي الأولى هنا.

وتوقع هشام أن تنصرف الفتاة بعد هذا الجواب، فيجد فرصة للانسلال من المكان، ولكن الفتاة ـ كأية أنثى ـ وجدت في هذه السلبية ظاهرة أثارت اهتمامها، فأمسكت ذراعه بيديها الاثنتين، وقالت له باهتمام:

ـ هل أنت حزين؟

ـ لا بأس آنستي... لست حزينًا... ولست سعيدًا... بصراحة أنا لا أعرف الرقص... هذا ما عنيته عندما قلت لك: إنني لم أتعود على الرقص.

وأشرق وجه الفتاة فجأة، وصاحت بزملائها وزميلاتها وكأنها اكتشفت اكتشافًا مثيرًا:

ـ هيه... تعالوا وانظروا... هذا شاب لا يعرف الرقص.

وارتفع صخب الشباب، والتفوا حول هشام ضاحكين، وجاراهم هشام في ضحكهم بصورة جعلت الآخرين يعتقدون أن قوله عن عدم إجادته للرقص ليس سوى ذريعة للتخلص من مراقصة الفتاة.

وسرّ أيما سرور عندما صاحت إحدى الفتيات قائلة لهشام:

ـ إنني أعذرك يا صديقي... فلو كنت شابًا لادعيت الكساح كيلا أضطر لمراقصتها.

وضج الشباب بالضحك، وعادوا إلى مرحهم وصخبهم، وجذبوا

الفتاة إلى حلقتهم الراقصة، فانتهز هشام الفرصة، وانسحب بخفة من غير أن يشعر به أحد.

٥٣

وفي شرفة غرفته، جلس يحتسي الشاي، ويحدق في الظلام متتبعًا بأنظاره أنوار السيارات التي كانت تمر في الطريق البعيد، وفي رأسه تصطخب انفعالات شتى، حاول أن يجد لها حلًا، ومستقرًا.

أخذ يستعرض في ذهنه ما دار في حفلة الليلة... وحار بين أن يلوم نفسه على حضوره... وبين أن يعلل الأمر بأنه نوع من النشاط الاجتماعي الذي يعدّ شيئًا عاديًا، بل أكثر من عادي، في مثل هذا المجتمع.

وعاد بذهنه إلى أيام جامعة الرياض، وتذكَّر الحفلات المرحة التي كان الطلبة يقيمونها، والحفلة التي أقامها زملاؤه يوم إعلان نتائج الامتحان؛ الذي تخرَّج على أثره من كلية الهندسة، ولكن ـ حدَّث هشام نفسه ـ شتان بين هذه الحفلة وتلك الحفلة التي فرّ منها قبل قليل، ففي الكلية كانت هناك حدود أخلاقية للمرح، وكانت حفلاتها بريئة كل البراءة... الشاي والقهوة هما المشروبان الوحيدان فيها، والحضور جميعًا من الطلبة الشباب.

أما هنا ـ وقلب هشام شفته نفورًا ـ فالأمر مختلف تمامًا، ومتناف كليًا مع أخلاقه، وتربيته.

وانتبه هشام من خواطره على صوت باب الغرفة وهو يفتح، وزميله توم يدخل وهو يصفر في مرح، ولكنه ما لبث أن توقف عن الصفير حين تبين أن هشام ليس في سريره، فمضى إلى الشرفة في خطوات سريعة، ثم ما لبث أن تنهد بارتياح عندما وجده في جلسته تلك.

ـ هاي... ألا تزال ساهرًا وحدك كعادتك؟

قال الشاب الأميركي ذلك، وهو يسحب كرسيًا ليجلس عليه مواجهًا لهشام.

ورد هشام بهدوء:

ـ كما ترى.

ـ هل يمكن أن تفسر لي مسلكك هذه الليلة؟... لقد رأيت ما جرى من بعيد... ولكنني امتنعت عن التدخل... كيف ترفض مراقصة تلك الفتاة التي يتزاحم عليها نصف شباب الجامعة على الأقل؟

ولم يجب هشام.

ـ اسمع يا صديقي... أعترف لك بأنني قد يئست تمامًا من إمكانية فهم تصرفاتك.

وأجاب هشام بصوت هادئ:

ـ وأنت يا صديقي اسمعني... لقد قضينا معًا، أنت وأنا، في هذه الغرفة بضعة أسابيع، وكنت من جهتي حريصًا على أن أتحاشى التعرض لك بشيء، فأنت حر في تصرفاتك، ولكنني أريدك أن تفهم أنني، أنا أيضًا، حر في تصرفاتي... هل هذا واضح؟

ـ إنني أحاول أن أفتح لك أبواب المجتمع... وأعرفك على نواح لا تعرفها من الحياة الأميركية.

ـ أشكرك على هذا الاهتمام... وأظنك قد لاحظت أنني لا أرغب في ولوج هذه الأبواب.

ـ ولكن.

أرجوك... دعنا من «لكن» هذه... لقد حاولت طوال تلك المدة أن أوضح لك الفوارق بين مجتمعنا ومجتمعكم... بين مفاهيمنا ومفاهيمكم منذ أن قدمت لي تلك الكأس... واعتذرت عن عدم قبولها.

كان هشام يتحدث بهدوء، وقد حرص على أن تخلو لهجته من أية حدة أو خشونة تمس شعور زميله، ولكنه كان يرى أن من الضروري أن يقول ما يقول لكي توضع الأمور في مواضعها الصحيحة، فتنتظم علاقاته مع زملائه وزميلاته ضمن حدود مفهومة للطرفين.

أما توم، فقد كان يصغي صامتًا، والظلام يحجب تعابير وجهه التي كانت تعبر عن عدم اقتناعه بما يقوله هذا الزميل العربي، والذي كان يتكلم على ما يبدو له، عن قناعة عميقة، وإن هذا ـ على أية حال ـ ليس سوى بعض الأمور «غير الطبيعية» بالنسبة له كأميركي.

وتكلَّم الشاب أخيرًا، فقال بلهجة دلت على أنه كان يبتسم:

ـ لقد قلتها أنت يا صديقي... إن لكل منا مفهومًا مختلفًا... وأرجو ألا يؤثر ذلك على صداقتنا، وزمالتنا... وثق تمامًا أنني لن أدعوك إلى شرب كأس ويسكي ثانية... فالويسكي غالي الثمن على أية حال.

فرد هشام بسرعة:

ـ بكل تأكيد أشاركك الرغبة في ألا يؤثر ذلك على صداقتنا... أما عن الويسكي فإنه غال عندكم، وليس له أية قيمة عندنا.

ونهض توم داخلًا إلى الغرفة، وهو يتمتم بعبارة «كيبلنغ»... الشهيرة:

ـ الشرق شرق... والغرب غرب...

فأكمل هشام ضاحكًا:

ـ ولن يلتقيا.

وارتفعت قهقهة توم، وهو يقول:

ـ إذًا فقد سمعتني؟ ومع هذا فها نحن، أنا وأنت، قد التقينا.

عندما دخل هشام قاعة «الكافيتريا» الكبيرة التي اعتاد التردد عليها، اتجهت إليه ـ في الحال ـ أنظار معظم الطلبة والطالبات ممن كانوا يزحمون المكان، وقد ارتفعت هنا وهناك أصوات الضحك والحديث، وأصوات الملاعق والأطباق.

ودار بعينيه يبحث عن مائدة خالية فلم يجد.

وتردد بعض الوقت، وهمّ بأن ينكص على عقبيه، لولا أنه خشي من أن هذه الحركة لن تمر دون تعليقات ساخرة، أو ضاحكة على الأقل، لا سيما وأنه رأى عددًا من الشباب والشابات الذين كانوا بالأمس في تلك الحفلة التي جرى فيها ما جرى.

ولمح مائدة جلست إليها فتاة الأمس، تلك التي وصفها توم بأن نصف طلبة الجامعة يتمنون مراقصتها، والتقت عيناه بعينيها فابتسمت له، ورد لها ابتسامتها، وهو يشيح بوجهه باحثًا عن مكان آخر، فلقد كانت هذه الفتاة هي السبب في الإحراج الذي تعرَّض له بالأمس، وفي توجيه الأنظار إليه كإنسان يختلف عن الآخرين.

واستقر بصره على مائدة منعزلة جلست إليها بضع فتيات من إحدى دول أمريكا اللاتينية، فاتجه إليهن، بعد تردد يسير، فهو قد أراد أن يوضح للآخرين أنه إنسان «طبيعي»... وأن تصرفه في تحاشي الانغماس في ذلك الجو المحموم هو أمر طبيعي كذلك، فكان أن اختار هذه الحركة، واقترب من مائدة الفتيات، وقال:

ـ هل لي أن أجلس؟

ـ أوه... بالتأكيد... مرحبًا بك.

رددت الفتيات وهن ينظرن إليه بشيء من الدهشة، واختلس هشام نظرة إلى حيث تجلس تلك الفتاة، وابتسم حين تصور الحيرة التي

ستنتاب الفتاة التي لفت انتباهها، فأعرض عنها بتلك الطريقة، وها هو الآن يجلس مع فتيات أقل منها جمالًا.

والواقع أن هشام لم يصادف مثل هذا الموقف في حياته أبدًا، ولا خطر له أنه سيجد في نفسه الجرأة على أن يتقدم بتلك البساطة إلى مائدة الفتيات «اللاتينيات»، بينما كان بإمكانه أن يجلس إلى إحدى الموائد التي جلس إليها بعض الزملاء من الشباب.

كان تحديًا ساذجًا... وبسيطًا، ولكنه هزّه هزًّا حتى الأعماق، وكان اختياره لمائدة الفتيات «اللاتينيات» يعود إلى ارتياحه إلى هذا النوع من الفتيات بوجه عام، فهن أضعف منه لغة، وأقل خفة ورعونة من الفتيات الأميركيات، فإذا كان قد وجد نفسه مجبرًا على التجاوب مع هذا الجو، فقد اختار الأهون، والمهم ـ بالنسبة إليه ـ أنه أثبت للآخرين أنه إنسان طبيعي مثلهم، وأزال من أذهان من حضروا حفلة الأمس ما حاولت تلك الفتاة الأميركية أن تصفه به من الغرابة، والاختلاف عن الآخرين.

ومضى يبادل زميلاته على المائدة الحديث، وهو يلتهم طعامه الذي حمله بنفسه، وبدأ شعور من الهدوء والاطمئنان يتسلل إلى قلبه بعد أن هزته المفاجأة بادئ الأمر، وأصبح أكثر قدرة على تبادل الأحاديث مع فتيات غريبات عنه.

وإذ انتهى من طعامه، نهض مستأذنًا من زميلاته بلطف، واتجه نحو باب القاعة في طريقه إلى الخروج، دون أن يلقي نظرة واحدة على ما حوله.

وهكذا لم ير تلك الفتاة الأميركية وهي تمسح شفتيها بالفوطة على عجل، منهية بذلك طعامها، ثم تحمل حقيبة يدها بسرعة، وتتجه إلى الباب، محاولة أن تشق لنفسها طريقًا وسط الزحام.

٥٥

لشدّ ما شعر هشام بارتياح، حين دخل غرفته ووجدها خالية، إذ لم يكن زميله الأميركي قد جاء، فلقد كان يتوق إلى الاختلاء بنفسه، ومراجعة أموره، وتحديد مكانه، كما كان يشعر بالتعب، وبالحاجة الشديدة إلى الراحة.

وحين بدأ يخلع سترته، سمع طرقًا على الباب، فلم يكترث إذ حسب أن توم قد عاد، وتوقع أن يفتح الباب بعد ذلك بالطريقة السريعة التي اعتاد زميله أن يدخل بها، وأن يندفع زميله الأميركي إلى الداخل بخفة فائقة.

ولكن الباب ظل مغلقًا، وتكرر الطرق عليه.

وفتح الباب، وهو خالي الذهن تمامًا عمن يكون الطارق، وإذا به يصعق... كانت الفتاة الأميركية عند الباب، على شفتيها ابتسامة مرتبكة، وفي عينيها استعطاف خفي... وفي وقفتها خجل... كانت تختلف تمامًا عما كانت عليه ليلة الأمس من مرح، وصخب، وجرأة.

ووقف هشام ينظر إليها مذهولًا، وعيناها ترمقانه بتلك النظرة الغريبة، ثم ازدادت ابتسامتها المرتبكة اتساعًا، وهي تقول برقة:

ـ هل أستطيع أن أدخل؟

وارتبك هشام، ولم يدر ما يقول، وتلفت حوله وتمنى لو أن زميله موجود... كان أشبه بطريدة أطبق الصياد عليها شباكه.

ورد بارتباك:

ـ لست أدري... لا يوجد أحد في الغرفة... يبدو أن زميلي توم لم يعد بعد... و...

فقالت باللهجة الرقيقة نفسها:

ـ هذا لا يهم... إنني أريد أن أتحدث معك... هذا هو كل شيء.

وتنهد هشام باستسلام، وأرخى يده التي كانت تمسك بالباب، وتنحى وهو يشير لها بالدخول قائلًا:

ـ أهلًا وسهلًا.

وخطت الفتاة بمشيتها الرشيقة، وخطت إلى داخل الغرفة، وراحت تجيل بصرها فيها، ثم قالت باسمة وهي تجلس:

ـ يبدو لي أن غرفكم يا أصحاب المستويات المتقدمة أفضل من غرفنا... ما الشهادة التي تدرس من أجلها؟ الماجستير على ما علمت... هه؟

ولم يجب هشام... فقد كانت الدهشة تعقل لسانه، وتمنعه من الإجابة، ولاحظت الفتاة أنه لا يزال واقفًا عند الباب، فقالت له مداعبة:

ـ لم تقف عند الباب؟... هل تنوي الهرب مني؟

وفتح هشام الباب حيث يستطيع أن يرى أي مار ما في الغرفة، ثم اتجه إليها، وقد عادت إليه رغبته في تمالك نفسه، والسيطرة على أعصابه في مثل هذه المواقف التي كانت تثقل على روحه وقلبه حتى ليكاد يشعر بالاختناق.

وتساءلت الفتاة بدهشة:

ـ لم فتحت الباب هكذا؟

ـ هذا أفضل.

ـ آه.

وأطرقت الفتاة، ومضت تعبث بحقيبة يدها في شيء من العصبية، وكأنها تبحث عن جملة تبدأ بها الحديث.

وجلس هشام تجاهها، عاقدًا ذراعيه على صدره، منتظرًا أن يسمع منها سبب قدومها.

وتكلمت الفتاة أخيرًا، وقالت في خجل:

ـ لقد جئت... لقد جئت... لكي أعتذر لك عن الإحراج الذي سببته لك أمس.

ـ آه... هذا لا يهم... وأنا بدوري أعتذر لك عما صدر مني.

وأطرقت الفتاة مرة أخرى، ثم قالت وعيناها تحدقان في الأرض متحاشية أن تلتقيا بعينيه:

ـ هل تعلم... أنني كتبت إلى أهلي عنك؟

ـ أنا؟

هتف هشام بدهشة شديدة، فقد كانت تلك الجملة آخر ما يمكن أن يخطر على باله من معلومات، يمكن أن يسمعها من هذه الزائرة التي فرضت نفسها عليه فرضًا.

ـ نعم أنت.

ـ وما المناسبة؟

ورفعت عينيها إليه، فأحس برجفة تجتاح كيانه، فلقد اختفت من نظراتها تلك الجرأة التي كانت تطل منها عادة، وبدت له نظرات أخرى... حزينة... قلقة... مستعطفة... روحًا هائمة تبحث عن مستقر.

وقالت وقد عادت يداها تعبثان بحقيبتها في عصبية:

ـ لست أدري كيف أشرح لك... إنني، كما ترى، طالبة في بداية المرحلة الجامعية... أهلي يعيشون في بلدة تبعد حوالي مئتي ميل من هنا... لقد استرعيت انتباهي منذ أول مرة رأيتك فيها... كان ذلك مرة في الكافيتيريا... لقد أدهشني فيك انعزالك عن الآخرين... واعتقدت أنك تشكو الوحدة مثلي.

ـ مثلك؟... إنك لا تبدين لي وحيدة أبدًا... فأنت محاطة دائمًا بالأصدقاء.

ـ آه يا سيد هشام... ليس أقسى من شعور الوحدة وأنت جالس وسط ألف شخص... الوحدة شعور يا سيد هشام، وليست واقعًا زمنيًا أو مكانيًا.

ـ وتعرفين اسمي أيضًا؟

ـ إنني أعرف كل شيء عنك.

ـ غريب... لماذا؟

ـ لست أدري... ربما كان تميزك عن زملائك هو السبب... المهم أنك استرعيت انتباهي منذ مدة... وكنت أراقبك من بعيد... كان الأسى الدفين الذي يبدو على وجهك يؤلمني... لأنني أعرف معناه... أنت وحيد مثلي... لست أدري كيف أشرح لك... ولكن ما حدث ليلة أمس هزني، وآلمني... لقد ازددت رغبة في التعرُّف عليك عندما رفضت مراقصتي... رأيت فيك صورة لما في نفسي... ولكنك كنت أكثر صدقًا مني، كان رفضك لمراقصتي ظاهرة أكدت ما ظننته فيك... هو أنك مختلف عن الآخرين... فازددت رغبة في التعرّف إليك... والحديث معك... ولكنك صددتني... هل تستطيع أن تتخيل شعور إنسان يتظاهر بالمرح وهو دامي القلب؟!

ـ عفوًا... لحظة... لحظة من فضلك... إنك تدهشينني... فأنا لم أرك قبل حفلة الأمس، ويبدو لي أنك تعتبرين أنني قد أسأت إليك بشكل ما... مع أنني لا أعرف حتى اسمك.

ـ اسمي باتريشيا... ويدعونني بات.

ـ اسمعي يا آنسة بات... إنني لم أفهم شيئًا مما تقولين حتى الآن.

وارتجفت شفتاها في تأثر، تألم له هشام، ولكنه لم يكن يدري ما يفعل، بل إنه لا يدري، حتى الآن، شيئًا عن الغاية التي جاءت الفتاة من أجلها.

واستطرد يقول برقة، وعطف:

ـ أرجو أن تسامحيني على سؤالي... هل لي... هل لي أن أعرف ماذا تريدين مني؟ وماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟

ـ لا أريد منك شيئًا، أريد فقط أن تهتم بي ولو قليلًا.

ـ وهل لي أن أسأل لم اخترتني من بين آلاف الطلبة الذين تزدحم بهم الجامعة؟... مع أنني إنسان عادي... ومن الواضح أنك تأكدت من أنني لا أبحث عن المغامرات كما يفعل بعض الآخرين.

ـ لماذا اخترتك من بين آلاف الطلبة؟ هذا سؤال لا يطرح يا سيد هشام... لأنه لا جواب له... لقد اخترتك وكفى... وأنا أعرف أنك لا تبحث عن المغامرات كما تقول... وربما كان هذا هو سبب اهتمامي بك.

ـ إنني رجل متزوج.

ـ أعرف ذلك.

ـ وشديد الإخلاص لزوجتي.

ـ هذا خلق طيب.

ـ ولي مهمة معينة جئت إلى هذه البلاد من أجلها.

ـ أعرف ذلك... وأتوقع أن أساعدك فيها... على الأقل بإخراجك من الوحدة التي أنت فيها.

وابتسم هشام على الرغم منه، وقال لها:

ـ يبدو لي أنك تعرفين كل شيء عني.

ـ أجل... لقد استدرجت زميلك توم... وهو كما تعلم ثرثار كبير.

ـ نعود إذًا إلى سؤالي الأول... ما دمت تعرفين كل شيء عني، فماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟

ـ لا شيء... فقط أريدك أن تمنحني شيئًا من وقت فراغك... وألا تصدني، وتعرض عني كما فعلت أمس واليوم.

ـ ثم؟

ـ لا شيء.

وسكت هشام، وراح ينظر إليها بدهشة، ولكنه قد بدأ يفهم، لقد صدقت الفتاة، فالوحدة شعور ينتاب القلب، وليس أتعس من هذا الشعور ولو كان الإنسان وسط ألف شخص... وهذه الفتاة ـ على ما يبدو ـ تعيش هذا الشعور... إنها وحيدة... ومظاهر المرح الزائفة التي تلف حياتها جامعيةً أميركية تثقل عليها... يقينًا إنها قد سئمت من هذه المظاهر... سئمت أن تراقص الشباب، وأن تحضر الحفلات، وأن تشارك في النشاطات الاجتماعية... إن قلبها يتجمد تحت ركام من جليد الوحدة... إنها بحاجة إلى عاطفة صادقة... إلى عطف أصيل... إلى اهتمام يتعدى اهتمام من يريد أن يقضي في صحبتها وقتًا يستمتع فيه بجمالها، وأنوثتها، ومرحها... آه ما أغرب هذه الحياة!

ووجد هشام أن من الضروري أن يقول شيئًا في هذا الموقف المؤلم، فالفتاة في ظمأ شديد إلى كلمة عطف... إلى لفتة حنان. فكل ما حولها من عواطف زائف... زائف.

ـ اسمعي يا آنسة بات.

ـ نادني باسمي مجردًا.

ـ لا بأس... اسمعي يا... بات... أود أولًا أن أؤكد لك أنني أقدر مشاعرك كل التقدير... وأنني أعرف ما تعنين بكلمة الوحدة... إنها الوحشة... إنها الفراغ... إنها الظلام... إنها... لست أدري ما أضيف... ولكنني، بالمقابل، لا أستطيع أن أفعل من أجلك شيئًا... فأنا أحب دائمًا أن أعرف نهاية الطريق الذي أسير فيه... ولعل توم

الثرثار قد حدثك عن طبيعتي... والتزاماتي... والبيئة التي جئت منها.

وارتسم نوع أليم من اليأس على وجه الفتاة، وقالت بصوت مرتجف:

ـ إنني لا أريد منك شيئًا، لقد قلت لك ذلك. كل ما أريده هو... هو أن أجد عندك ما افتقدته عند الآخرين من حنان... إنك تعرف مجتمعنا... مثل هذه الأمور لا تهم أحدًا... إننا نضحك... ونرقص... ونلعب... ونعمل... ولكننا ـ صدقني ـ نحس بفراغ هائل في داخلنا... أريد أن أصبح مثلك... مكتفية بذاتي... قادرة على أن أتصرف... أن أقول لا... وأن أقول نعم... وقتما أريد... قد يبدو لك هذا طلبًا سخيفًا... أو غريبًا... ولكنني لا أريد سواه... أريد أن نكون أصدقاء فحسب.

ووجد هشام أن الموقف قد طال أكثر مما ينبغي، ولكنه كان قد عرف عمق الفراغ الذي تعيش الفتاة فيه، مع أنها تعدّ في نظر الجميع من أكثر الطالبات مرحًا.

وابتسم، ولاحظت الفتاة ابتسامته، فأشرق وجهها، وهبت فاتحة ذراعيها، وكأنما تريد أن تطوق هشام بهما، ولكنه ظل جامدًا، فتوقفت عما كانت فيه، وشبكت يديها وهي تقول بصوت خافت:

ـ شكرًا لك... شكرًا لك... أنا معتزة بصداقتك.

وأردف هشام:

ـ قلت لي أنك كتبت إلى أهلك عني.

ـ أجل.

ـ ماذا قلت لهم؟ هل كتبت أن في الجامعة إنسانًا لا يرقص، ولا يشرب، ولا يحضر حفلاتكم؟

ـ كيف عرفت؟ هذا هو فعلًا ما كتبت... إنني أراسل أختي، التي

تصغرني، بانتظام، وأصف لها كل ما يجري في الجامعة، وكأنه مذكرات يومية، ولاحظت أكثر من مرة أنني آتي على ذكرك دون انتباه مني.

وصمت الاثنان.

وكان هشام حائرًا، لا يدري ماذا يفعل، وكان يخشى أن يأتي توم، وأن يرى الفتاة في الغرفة، وأن يعلِّق بعد ذلك ما شاء أن يعلِّق بكلماته اللاذعة.

ورأى هشام أن يضع حدًا للموقف، فنهض وقال لها:

ـ هل تقبلين دعوتي إلى فنجان من القهوة؟

ـ بكل سرور.

ونهضت الفتاة، وقد بدا على وجهها نوع من الارتياح والإشراق، يختلفان عن ذلك الأسى الذي كان يرتسم عليه عند قدومها، وقبل أن يتحرك الاثنان للذهاب، دخل توم فجأة بخطواته المتعجلة، ويبدو أن وجود الفتاة قد أدهشه، فجمد في مكانه، وراح ينقل بصره بينها وبين هشام، ثم ما لبث أن أطلق صفرة طويلة، وقال مخاطبًا زميله:

ـ تهانيّ يا صديقي... أما قلت لك أمس أنك لن تندم على الذهاب إلى الحفلة؟

وأعقب جملته بقهقهة طويلة ذات معنى، فلم يجبه هشام، بل جذب الفتاة من ذراعها، وغادرا الغرفة.

ووقف توم ينظر إلى الباب صامتًا، ثم ما لبث أن قال لنفسه بصوت مسموع:

ـ هذا الشاب سيصيبني بالجنون لتصرفاته الغريبة... أمس رفض مراقصتها والحديث معها... واليوم يستقبلها في الغرفة... إيه... لولا أن الباب كان مفتوحًا لحسبت أنه يسخر مني، ويكذب علي.

لم يحاول هشام أن يوضح لزميله حقيقة الأمر، على الرغم مما كان يقرؤه في عينيه من فضول جامح، يريد الشاب الأميركي معه أن يعرف سرّ ما اعتقد أنه تحول في سلوك هشام، وعلى الرغم مما كان يقرأ، أيضًا، في عيون كثير من الزملاء والزميلات، فقد بدا لهم هشام في صورة تختلف عن تلك التي ألفوها منه، بعد العلاقة الجديدة التي رأوها بينه وبين باتريشيا.

كانت الفتاة تطمئن إلى هشام اطمئنانًا غريبًا، وتصغي إليه بكل جوارحها، وهو يجيب عن أسئلتها التي أرادت بها أن تعرف المزيد عن المعلومات عن زميلها القادم من تلك البلاد التي ارتبطت في ذهنها ـ كأية أميركية عادية ـ بتهاويل مغامرات الصحارى، والفرسان، و. . . البترول.

وكان هشام يضحك كلما سألته سؤالًا يدل على جهلها بالحقائق، وعلى تلك الاعتقادات الثابتة التي بثتها أجهزة الإعلام، بسطحية مذهلة، وكان يطرب لشهقات الذهول التي تند عنها عندما يحدثها عن بلاده، وعن أخذها بأحدث وسائل التطور والتقدم، محاولًا أن يصحح معلوماتها، وأن يعطيها صورة حقيقية تختلف كل الاختلاف عما كانت تعتقده.

كان هشام، في علاقته بباتريشيا، يعتقد أنه يؤدي عملًا إنسانيًا، لا أكثر ولا أقل، فهو قد حافظ على حدود معينة في هذه العلاقة، لم يسمح لنفسه ـ ولا للفتاة ـ بتجاوزها قيد شعرة.

ومع أن ضميره كان يؤنبه أحيانًا، ويعدّ مجرد وجوده مع تلك الفتاة انتقاصاً بشكل من الأشكال، من مكانة زوجته الحبيبة، إلا أن التزامه حدود التحفظ، ومحاسبته لنفسه على كل تصرف، كان يهدئ من مخاوفه من أن يكون قد ارتكب خطأً ما.

ولاحظ، بكثير من السرور، أن معاملة زملائه وزميلاته قد تغيرت،

وأن نظرتهم إليه قد تغيرت كذلك، ولم يجد من هو أقرب إليه من توم كي يحدثه عن أحاسيسه تلك، ولكن توم ابتسم، وقال له مفسرًا:

ـ الناس هم الناس، وهم لم يتغيروا كما تعتقد.... ونظرتهم إليك هي نفسها كذلك... ولا يهمهم ما تفعل ما دام ذلك لا يطالهم... إنهم يكتفون عادة بالضحك، أو التصفيق، أمام ما يلفت انتباههم، وعليك، أنت، أن تعرف أذلك الضحك، أو التصفيق، لك... أم عليك؟

ـ هل لك أن تزيدني شرحًا؟ لم أفهم تمامًا ماذا تقصد.

ـ أعني أن ما أحسست به، كما تقول، هو مشاعر داخلية منك... لا أكثر ولا أقل... ونصيحتي لك أن تأخذ الأمور ببساطة... وبصورة طبيعية... ولا تحاول تفسير تصرفاتنا على ضوء طبيعتك... وبيئتك... وتقاليدك.

وأطرق هشام على إثر ما قاله له زميله، وفكر فيه قليلًا، فوجده معقولًا وطبيعيًا، وأن هذا هو المبدأ الذي يقوم عليه هذا المجتمع الغريب عنه... واستأنف توم كلامه قائلًا بتردد:

ـ بالمناسبة... أود أن أقول لك شيئًا... بالنسبة لفتاتك.

ـ فتاتي؟

ـ أعني باتريشيا؟

وكاد هشام أن يندفع شارحًا له نوعية علاقته بباتريشيا، ولكنه تمالك نفسه، وسأله بهدوء:

ـ ماذا عنها؟

ـ إنها فتاة غريبة الأطوار... متقلبة المزاج... ويبدو لي أنها تعاني من مرض نفساني... وعليك أن تنتبه لذلك.

وابتسم هشام وهو يقول له بلهجة مداعبة:

ـ لا تخش علي منها. . . فأنا أعرف حدود علاقتي بها. . . وما عليك إلا أن تبتعد أنت عنها. . . إنها لا تزيد بالنسبة لي عن أن تكون زميلة كأي زميل آخر من الشباب.

وفغر توم عينيه في دهشة وهو يقول له:

ـ لا. . . لا يا صديقي. . . أعتقد أنك مخطئ. . . ولا يمكن أن تستمر علاقتكما على هذا النحو.

ـ عجيب أمرك يا توم. . . هل تريد أن تحدد لنا نوعية العلاقة بيننا؟

ـ أنا لا أفرض عليكما شيئًا. . . وإنما أتحدث عن الواقع. . . هذا هو كل شيء.

ـ أنا الذي حددت نوع العلاقة. . . وأنا المسؤول عن سيرها بالصورة التي أريدها. . . حيث لا تخرج عن الإطار الذي أوضحته لك.

ـ لماذا إذًا اخترت باتريشيا؟ ما كانت بك حاجة إلى فتاة مثلها، كان بإمكانك أن تختار أي زميل آخر. . . أو أن تكتفي بصداقتنا أنا وأنت.

ـ إنني لم أخترها. . . هي التي. . .

وقاطعه توم:

ـ لا تتوقع مني أن أصدق الرواية التي ذكرتها لي عن حضورها إلى الغرفة.

ـ أنت حر في أن تصدق أو لا تصدق.

ـ ما علينا. . . المهم أنني أوضحت لك رأيي في علاقتك بباتريشيا. وأؤكد لك، بالمناسبة، إن ما ذكرته لك عن مرضها النفسي صحيح. . . وأنا لا أمزح.

٥٧

ومضت أشهر، كان هشام خلالها يقطع مرحلة التمكن من اللغة الإنجليزية بنجاح، وكان في الوقت نفسه، يمارس حياته العامة مع زملائه بنجاح مماثل.

كان الزمن عاملًا مهمًا في تحوله نحو التكيف مع تلك الحياة الغريبة عنه شيئًا فشيئًا، دون أن يتخلى عن مبادئه وأخلاقه، وظل يشعر في داخله بنفور عميق يخفيه تحت ستار المجاملات، والضحكات.

وكان يحرص على أن تظل علاقته بباتريشيا ضمن الحدود التي رسمها لها منذ ذلك اليوم الذي صارحته فيه بوحدتها، وتعاستها، وتوقها إلى المحبة، والعطف، والحنان... ولم تكن هذه المهمة، بالنسبة له، سهلة كما تخيلها في بادئ الأمر، بل كان يجد صعوبة حاول تذليلها بقوة إرادته، حيث كان يقابل الفتاة عندما ترغب في ذلك، ويجالسها في الحديقة، والكافتيريا، كما كان يصحبها أحيانًا إلى بعض الحفلات التي يقيمها الطلبة، بل لقد جاراها عندما أصرت على تعليمه الرقص، قائلة له: إنه نوع من الرياضة.

ولم يكن هشام غافلًا عما يمكن أن تتطور إليه علاقته مع الفتاة الأميركية إذا ما سها عن نتائج ذلك، فكان يختلي بنفسه، ويحاول تحليل عواطفه وتصرفاته، ليجد أن نظرته لباتريشيا لم تتغير كثيرًا عن ذي قبل، وأنه ما زال ـ كما كان ـ ينظر إليها نظرته إلى زميلة ليس غير، ولكنه لم ينكر ـ بينه وبين نفسه ـ أنه أصبح يرتاح لمرافقتها، وتناسى كليًا جميع ما قاله له توم عن الفتاة، وغرابة أطوارها، ومرضها النفسي.

٥٨

وذات يوم حدث ما لم يكن يتوقعه.

كان هشام عائدًا من الجماعة إلى مباني السكن، مخترقًا الحدائق

الواسعة التي تحيط بالمكان... وفجأة تسمر في مكانه مذهولًا.

لقد رأى باتريشيا تعانق شابًا أسمر اللون، يبدو من سحنته أنه عربي، وتلف ذراعها حول كتفه.

ورآه الاثنان.

وأشاح الشاب بوجهه، أما باتريشيا فقد احمر وجهها، وأطرقت في خجل، فقد كانت تعلم وقع ذلك في نفس هشام، وفتحت فمها تحاول أن توضح له ما ظنت أنه يريده من إيضاح، ولكن هشام اكتفى بالقول:

ـ تهانيّ الخالصة... يا آنسة باتريشيا.

واستدار مبتعدًا في هدوء... بعد أن زايله ذلك الشعور العميق بالعطف تجاه تلك الفتاة، فلقد وجدت ـ على ما يبدو ـ من يؤنس وحشتها وفق مقاييسها واعتباراتها، فانتهت بذلك مهمته، وعادت إليه حريته الكاملة من جديد.

وانتبه إلى وقع خطوات الفتاة وهي تقترب منه لاهثة، محاولة أن تلحق بخطواته الواسعة... وتناديه بصوت متقطع، فتوقف، ونظر إليها متسائلًا في صمت.

وقالت الفتاة بتلعثم:

ـ أنا... أنا آسفة... وأريد... أريد أن أشرح لك...

فقاطعها قائلًا بهدوء:

ـ لست مجبرة على أي شرح يا بات... هل تذكرين اتفاقنا ذلك اليوم؟ إنني أعمل، أو بالأصح كنت أعمل، بموجبه... ولست مرتبطة بي... ولا أنا طبعًا، مرتبط بك... طاب يومك.

وصاحت الفتاة في ألم:

ـ لا... لا تقل هذا... أنت تبالغ في نظرتك إلى الأمور.

ـ أرجوك يا بات... دعيني وشأني... فلدي موعد مع بعض الزملاء.

ـ لا بأس... ولكن أريدك أن لا تسيء الظن بي، أنت حساس جدًا... حساس أكثر من اللازم يا هشام.

وتنهد هشام في ضيق، وقال:

ـ ثم ماذا أيضًا؟ قلت لك: إنني أرجوك أن تدعيني وشأني... إن ما بيننا قد انتهى ولك أن تفعلي ما يحلو لك.

وأثارها جوابه هذا، فراحت تضرب الأرض برجلها، وأجابته بصوت أقرب إلى الصراخ:

ـ هشام، لا تكن غبيًا... هذا أمر عادي... لقد كنت أتحدث إلى زميل... هذا هو كل شيء... لا تجعلني أندم على ما توسمته فيك.

وابتسم هشام بمرارة، وقال لها:

ـ تتحدثين؟ ليكن. ولكن لا تحرجيني أمام هذا الزميل أكثر مما فعلت، إنني أراه وراءك وهو ينظر إلينا من بعيد... والمارة أيضًا... إنهم يتلفتون نحونا.

أنت دائمًا هكذا... لا يهمك إلا ما يقوله الناس... وما يشعر به الناس.

واستدارت بانفعال، وراحت تسرع الخطوات مبتعدة عنه.

واستأنف هشام سيره، وهو يشعر أن خطواته قد باتت أكثر ثقلًا، حتى ليوشك أن يتسمر في الأرض.

وأزعجه شعوره هذا، فراح يصفر كأنما يريد أن يشعر من يراه أنه سعيد، إذ لم يكن أكره إليه من أن يبدو عليه بأنه منزعج.

وشعر برغبة قوية في أن يلتفت إلى الوراء، ليلقي نظرة على

باتريشيا، إلا أنه قاوم هذه الرغبة بشدة، فهي - إذا رأت مثل هذه الالتفاتة - سوف تفسرها بما يتناقض مع الفكرة؛ التي كان حريصًا على أن يزرعها في نفسها منذ لقائهما الأول.

وظل يقاوم تلك الرغبة بعناد وإصرار، وواصل سيره المتباطئ، ولكن أذنيه كانت تصيخان السمع، وتوقف عن الصفير، وبات يتحرق ليرى، أو يسمع، شيئًا عن رد الفعل لدى باتريشيا بعد موقفه هذا.

وسمع صوت خطوات خفيفة تقترب منه، فشد أعصابه، وتهيأ لما سوف يراه، أو يسمعه.

ورأى، أخيرًا، بطرف عينه اليسرى ذلك الشاب، الذي حدس أنه عربي، وهو يحاذيه قائلًا بارتباك شديد:

- مرحبًا يا أخ هشام.

والتفت إليه هشام، ونظر إليه بدهشة، ثم انتبه إلى يده الممدودة له، فمد يده بدوره، وصافحه، ورد تحيته ببرود.

وسار الشاب إلى جانبه مطرقًا، وكأنه لا يعرف كيف يبدأ حديثه، وهشام يواصل سيره، ويتساءل - في استغراب - عن سبب البرود الذي رد به على تحية الشاب، وعن تلكؤه في مصافحته.

وقال الشاب بارتباك شديد:

- أنا آسف... لم أعرفك على نفسي... إنني مصطفى ولد حمد... من موريتانيا... إنني الطالب الموريتاني الوحيد في هذه الجامعة.

- أهلًا وسهلًا.

رد هشام بالبرود نفسه البرود، وواصل سيره صامتًا.

ويبدو أن الشاب الموريتاني قد رأى أن أبواب الحديث قد سدت مرة أخرى، فراح يحدق في الأرض، وهو يعض على شفته السفلى باضطراب.

وقال أخيرًا:

ـ هل تقبل دعوتي إلى فنجان من الشاهي... أو القهوة... في الكافتيريا.

وتوقف هشام عن السير، ونظر إليه مستغربًا، وقال له وابتسامة خفيفة تتلاعب على شفتيه:

ـ لولا أننا، كلانا، عرب لكنت سألتك على الطريقة الأميركية: ما هي المناسبة، أما وأننا نتبع تقاليد واحدة في الضيافة، فإنني أقبل دعوتك على هذا الأساس.

ـ شكرًا لك... ألف شكر.

واتجه الشابان نحو مبنى الكافتيريا، وهشام يتساءل في سره عما يريد الشاب الموريتاني أن يقوله له.

٥٩

أسند هشام مرفقيه إلى الطاولة، ووضع ذقنه على كفيه المتشابكين، وراح ينظر إلى زميله بهدوء منتظرًا أن يبدأ الحديث.

ولم ينكر هشام على نفسه أنه كان يتأمل الشاب الموريتاني بدقة، ويتطلع إلى تفاصيل وجهه الذي كان ذا وسامة واضحة، وخاصة عيناه السوداوان اللتان كانتا، تلك اللحظة، تدوران في أرجاء المكان، وكأن صاحبهما يتحاشى أن تلتقيا بعيني هشام.

وطال الصمت، والارتباك يبدو واضحًا على وجه هذا الصديق الجديد، إلى أن تكلم أخيرًا، ويده تعبث بفنجانه في عصبية:

ـ لعلك، لعلك تريد مني تفسيرًا لما... لما رأيته قبل قليل.

وتضاحك هشام، وأجابه بهدوء:

ـ أبدًا... وما شأني أنا بالأمر؟

ـ كيف... لقد قالت لي باتريشيا أنك صديقها المفضل.

ـ على الرغم مني... صديقها المفضل على الرغم مني... هي التي أجبرتني على ذلك، وضربت حولي نطاقًا لم أستطع اختراقه.

ـ لم أفهم.

ـ ليس ضروريًا أن تفهم... لقد انتهت المسألة.

وعاد الشاب يدير عينيه في المكان باضطراب، ثم اندفع في الحديث الذي يبدو أنه كان يتحين أية فرصة؛ لكي ينفِّس به عن نفسه:

ـ أرجوك إذًا أن تسمعني... نحن من بيئتين متماثلتين، أعني العادات نفسها، التقاليد نفسها، القيم نفسها، إنك لا تعلم كم شعرت بالتعاسة والتمزق منذ أن جئت إلى هذه البلاد، ووجدت أن كل شيء فيها مختلف عما ألفته... أنت طبعًا تعرف شيئًا عن طبيعة الحياة في بلادي، إننا لم نألف ما نراه هنا في هذه البلاد، كنت وحيدًا... إنني الطالب الموريتاني الوحيد هنا كما قلت... أنت على الأقل لك عشرات، أو مئات من الزملاء السعوديين... تستطيع أن تفضي إليهم بما في نفسك... تستطيع أن تستشيرهم... أن تشاركهم همومك... أما أنا فكما ترى، لقد كنت أكاد أموت من الرعب إذا خاطبتني إحدى الفتيات... وأشعر وكأنني أصبت بالخرس إذا سألتني إحدى الزميلات عن شيء... أحس بالأرض تكاد تميد بي إذا لمست يدي يد إحداهن... أو إذا جلست إلى جانبي في المدرج بكل بساطة.

وابتسم هشام، وقال لنفسه: «... ليته يعلم أنه يكاد يصف حالتي تقريبًا لولا أنني على ما يبدو أقوى أعصابًا منه...».

ولاحظ الشاب ابتسامته، فامتقع وجهه، إذ حسب أن هشام يسخر منه، فقال له بلهجة أقرب إلى التوسل:

ـ أرجوك، لا تسخر مني... إنني في أشد الحاجة إليك لكي أفضي إليك بما في نفسي.

ـ أبدًا... أقسم لك أنني لا أسخر... ولكنني، فقط، كنت أحدث نفسي بأن هذا هو شأن معظم الشباب العرب؛ الذين يدرسون هنا... كلنا مررنا بهذه التجربة.

وتنهد الشاب بارتياح، وشعر بالشجاعة تملأ نفسه أكثر من ذي قبل، لكي يتحدث عما يعتمل في داخله:

ـ تلك الفتاة... باتريشيا... إنها، كما تعلم، فتاة متميزة... وجميع الطلبة والطالبات يعرفونها، لا سيما وأن مرحها وصخبها يزيدان عن الحد المألوف.

وعلَّق هشام في سرِّه قائلًا:

ـ ومع هذا... فإنها تشكو الوحدة... هكذا قالت لي.

واستطرد الشاب:

ـ كنت أحرص دائمًا على الابتعاد عن الجميع، والفتيات منهم بوجه خاص، وهذا اليوم... أعني قبل قليل... كنت جالسًا وحدي في ذلك المكان الذي رأيتني فيه... معها، وفجأة ارتسم ظلها على الكتاب الذي كنت أقرؤه، ورفعت نظري فوجدتها واقفة تبتسم... حيتني... فرددت التحية، فجلست إلى جانبي، وراحت تتحدث، سألتني عن بلدي، ودراستي، وأحوالي، وكنت أجيب عن أسئلتها بارتباك، ولم يكن وجهها غريبًا عني، فقد سبق أن التقيت بها مرات عديدة في أروقة الجامعة، وفي الكافيتريا.

وصمت الشاب قليلًا، ثم أردف وقد اكتسب صوته اضطرابًا واضحًا:

ـ لقد وضعت يدها على يدي، ومع أنني أحسست بمثل سلك من

الكهرباء يلذعني إلا أنني لم أتحرك... ثم... ثم لفت ذراعها حول عنقي... ووجدت نفسي ـ دون شعور مني ـ أطوقها بذراعي، ثم...

وقاطعه هشام قائلًا:

ـ وجئت أنا أفسد عليكما ذلك.

ـ فعلًا... أقصد... جئت أنت فعلًا... فكان ما كان... وشعرت بأن عليّ أن أخبرك... وأن أشرح لك... فإذا كان الآخرون يرون مثل هذه الأمور شيئًا عاديًا، فالأمر مختلف بالنسبة لنا... أعني... أنت وأنا... أنت تفهم ما أعني.

ومد هشام يده... وأمسك بها يد زميله، وقال له باسمًا في عطف:

ـ أجل أفهم... ولكن اطمئن... فليس بيني وبين الفتاة أي شيء... ولك أن تفعل ما يحلو لك... صحيح أنني لم أشعر بارتياح إلى ذلك المشهد... ولكن.

وارتسم الاستغراب على وجه الشاب، وقال له:

ـ لقد قالت لي غير ذلك... قالت: إنك صديقها... أعني... كما يقولون هنا «بوي فرند».

وقال هشام بهدوء:

ـ لا «بوي فرند» ولا حاجة... كانت، كما قلت لك، في بداية لقائنا هي التي فرضت نفسها عليّ... كانت علاقة عابرة، من جانبي، نشأت في الشهور الماضية، وهذا هو كل شيء.

ولم يعلق الشاب الموريتاني بشيء.

وأردف هشام وقد بدأ يحس في داخله بضيق من هذا الحديث:

ـ هه... هل من أسئلة أخرى؟

وأطرق مصطفى بعض الوقت، ثم عاد ينظر في عيني هشام وهو يقول:

ـ لست أدري. . . لست أدري. . . على أية حال لا يمكنك أن تتصور كم أراحني حديثنا هذا. . . وأتمنى أن نصبح أصدقاء.

ـ دون شك.

رد هشام وهو ينهض مصافحًا الشاب؛ الذي سارع إلى احتواء يده بكلتا يديه في حرارة صادقة.

وتحرك هشام يريد أن يتجه نحو باب الخروج، فرأى باتريشيا واقفة تنظر إليهما من بعيد، وقد بدا الاهتمام والانفعال على وجهها.

وبحركة طبيعية اتجه هشام إلى باب آخر، عبر منه متجهًا إلى مبنى السكن الجامعي، ولكنه استطاع أن يلمح الفتاة، عبر زجاج قاعة الكافتيريا، وهي تتجه بخطوات سريعة نحو مصطفى.

٦٠

فتح توم باب الغرفة بهدوء، كعادته عندما يعود في ساعة متأخرة، ليفاجأ بأن زميله ما زال ساهرًا.

ووقف عند باب الغرفة ينظر إلى هشام الذي كان قد عقد ذراعيه وراء رأسه، وأسند ظهره إلى الوسادة، وقد استغرق في تفكير عميق.

وقال توم بلهجته المرحة:

ـ ما هذا يا صديقي؟ هذه أول مرة أراك فيها ساهرًا إلى هذه الساعة. . . كنت أحسدك على استغراقك في النوم فور استلقائك على الفراش، فهل يا ترى حدث ما غيّر عادتك هذه؟

وأدار هشام بصره إليه ببطء، وقال باقتضاب:

ـ كنت أفكر. . . هذا هو كل شيء.

وأدرك الأميركي من لهجة زميله أنه زاهد في الحديث، وكان قد اكتسب خبرة تامة بطباع هشام، فلزم الصمت، وراح يهيئ نفسه للنوم

دون أن ينبس ببنت شفة. . . ولكنه كان يتساءل في سره حائرًا: فيم يفكر هذا الزميل غريب الأطوار؟

والواقع أن رأس هشام كان مسرحًا لصراع لم يكن يتوقعه في يوم من الأيام.

كان يستعيد في ذهنه كلمات الحديث الذي دار بينه وبين زميله الموريتاني مصطفى ولد حمد. وكانت الجملة التي قالها هذا الشاب تتردد في ذهنه بقوة: «وإذا كان الآخرون يرون مثل هذه الأمور شيئًا عاديًا، فالأمر مختلف بالنسبة لنا، أعني أنت وأنا، أنت تفهم ما أعني».

وكان هشام يفهم، بطبيعة الحال، ماذا كان يعني مصطفى بعبارته تلك، أن الطباع العربية ترفض مثل هذا الأمر. . . فإذا كانت باتريشيا هي «صديقة» هشام فلا حقّ لمصطفى ـ ولا سواه ـ في أن يقترب منها، فكيف أن يتجاوز مجرد الاقتراب إلى ما هو أكثر.

ولأول مرة وجد نفسه يفكر في باتريشيا.

كان، في السابق، يعدّ أن علاقته بها هي ـ كما قال لمصطفى ـ علاقة أملاها عليه عطفه على الفتاة، وإشفاقه عليها، وتفهمه لمشاعرها، وكان إذ يرافقها، أو يبادلها الحديث، يشعر أنه يؤدي «واجبًا» ليس غير. . . حتى إذا افترق عنها، نسيها تمامًا، وغابت عن ذاكرته.

ما باله، هذه الليلة يفكر فيها، ويطيل التفكير؟ أتراه قد وقع في المحذور الذي كان يخشاه، ويتخوف منه دائمًا؟ أتراه انساق في علاقته بالفتاة إلى ما هو أبعد من الصداقة؟

إنه لا يتذكر مرة حاول فيها أن يتجاوز الحدود التي رسمها لهذه الصداقة، فهو لم يكن ينظر إلى باتريشيا إلا نظرته إلى أي «زميل» آخر، لم يكن ينظر إليها على جمالها الباهر، وأنوثتها المتفجرة، كفتاة أبدًا.

لماذا يحاول أن يستعيد ـ في استغراقه هذا بالتفكير ـ صورتها في

ذهنه، ويتذكر وجهها الوضاء، وشعرها المسترسل على كتفيها كالشلال؟

وأغمض عينيه في ألم... إنه لا يسمح لنفسه بمثل هذه الأفكار... كما أنه لا يسمح لنفسه بأن يفقد تماسكه وهو في الفترة الأخيرة من هذه المرحلة من دراسته، ولن يلبث أن يعود إلى بلاده لاصطحاب زوجته معه.

ولكنه لم يكتم أن في أعماقه نوعًا من الغضب، أم لعلها الغيرة، بعد أن رأى باتريشيا بعينيه في ذلك الموقف، وبعد أن حكى له مصطفى ما حكى عن التمزق الذي عاشه منذ أن وصل إلى هذه البلاد، وما كان من أمر باتريشيا معه.

وانتبه هشام من خواطره على زميله؛ الذي كان قد أوى إلى فراشه، وقال له بلهجة ظاهرها الجد، وباطنها المداعبة:

ـ هل ستترك النور مضاء طوال الليل؟ إنك تعلم أنني لا أستطيع النوم هكذا.

ولم يرد هشام بشيء، وإنما مد يده إلى زر النور فأطفأه، وغطَّى توم نفسه وهو يتساءل:

ـ ترى... هل أطفأ زميله النور لينام هو الآخر... أم ليكمل الليل ساهرًا في الظلام؟

٦١

ـ هل أستطيع أن أجلس هنا...؟

ـ أوه... بالتأكيد.

قالت «جين» الجملة الأخيرة، وهي تلقي نظرة خاطفة على مخاطبها، ولكنها ما لبثت أن شهقت بدهشة: فقد كان المتحدث هشام،

المعروف بانعزاله، وابتعاده عن زميلاته، بوجه خاص، ومعاملتهم بتحفظ يصل إلى درجة البرود.

وأردفت الفتاة تقول، وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيها:

ـ مرحبًا بك... آسفة... لم أكن أظن أنك أنت الذي يخاطبني.

وابتسم هشام بدوره، وسحب الكرسي وجلس تجاه جين، وقال لها متسائلًا:

ـ كيف سمحت لي بالجلوس إذًا ما دمت لم تنتبهي إليّ بادئ الأمر...

وردت الفتاة ببساطة:

ـ أنت تعرف... إنه «روتين»... فلا يمكنني أن أمنع أحدًا من الجلوس إلى الطاولة إذا أراد.

وحدّق هشام في عيني جين؛ التي بدا الاستغراب على وجهها، وقالت له:

ـ ماذا بك؟ كأنك تراني لأول مرة.

ـ فعلًا... هذه أول مرة أراك فيها.

ـ غريب... ما الذي يجعلك تقول هذا القول؟... إننا كثيرًا ما التقينا من قبل.

ـ صحيح... ولكنني لم أكن أراك إذ ذاك.

ـ أعترف لك... أنني لم أفهم شيئًا... ومع هذا... مرحبًا بك.

ومضت جين تثرثر، بعد أن أنست من هشام إقبالًا عليها، فهو لم يحول نظره عنها قط، بل كان يتأملها، ويقارن في خياله بينها وبين باتريشيا، أما جين فكانت تتساءل في داخلها عما دعاه إلى اختيارها هي من بين الجالسات كافة في المكان، وهو الذي كان بوسامته، وأناقته،

موضع اهتمام الكثيرات، وموضع إقبال زملائه الذين كانوا يحرصون على دعوته إلى حفلاتهم.

والواقع أن هشام لم يع كلمة واحدة مما كانت جين تتحدث به، كان رنين صوتها يأتيه بغير انقطاع، ولكن باله كان مشغولًا بشيء آخر، كان يختلس النظرة تلو النظرة إلى أبواب قاعة الكافتيريا؛ منتظرًا أن تطل باتريشيا كعادتها في مثل هذا الموعد، فقد كانت لديه رغبة طفولية جامحة في أن تراه وهو جالس مع جين.

وفجأة أطلق هشام ضحكة صاخبة.

وتوقفت جين عن الكلام، وقطبت حاجبيها، وقالت له بقلق:

ـ هل ترى في كلامي ما يستحق هذه الضحكة؟

وانتبه هشام إلى نفسه، فهو لم يضحك إلا لأنه رأى باتريشيا تدخل إلى القاعة، وإلى جانبها مصطفى، وما إن وقع نظرها عليه حتى أطلق تلك الضحكة، كان يريدها أن تراه وهو يضحك أثناء جلوسه مع جين... وهذا هو كل شيء.

وعادت جين تسأله بإلحاح:

ـ هل في كلامي ما يضحك؟

ـ آه... آسف... لقد ضحكت لنكتة خطرت ببالي.

ـ ولكنني كنت أتحدث إليك عن مأساة البارحة، فما الذي جعلك تضحك؟

ـ أكرر أسفي... ولكنك تعلمين... في بعض الأحيان تستوي الأسباب التي تجعل الإنسان يضحك أو يبكي.

وفكرت جين قليلًا، وكأنما راق لها هذا الرأي، فضحكت هي الأخرى ضحكة عالية، وشعر هشام في أعماقه بامتنان شديد للفتاة، فهي بضحكتها هذه شاركت في «إخراج» المشهد الذي أراد لباتريشيا أن تراه.

ورأى باتريشيا وزميلها يجلسان إلى إحدى الموائد البعيدة، فكان نظره موزعًا بينهما وبين جين التي عادت إلى ثرثرتها المتواصلة؛ التي لم يستوعب هشام حرفًا واحدًا منها، بل كان ينقل بصره بخفة بينها وبين باتريشيا، في مقارنة صريحة، خرج منها برأي اقتنع به، وارتاح له، وهو أن الاثنتين على درجة متساوية من الجمال.

ولاحظت جين، أخيرًا، أنه لم يكن يصغي إلى حديثها، فتوقفت، ثم قالت له:

ـ هل يمكن أن تفسر لي سبب انصرافك عني بهذه الطريقة؟

ـ أنا؟ أبدًا... إنني أصغي إليك.

ـ قل لي إذًا... ما آخر جملة قلتها لك؟

ـ الحقيقة... الحقيقة أن صوتك يطربني بحد ذاته، كنت أستمع إلى نغماته بصورة صرفتني عن تتبع معانيه، صدقيني يا جين إنك فتاة اجتماعية.

وكأية أنثى، ازدهاها هذا الإطراء الشاعري، كما قالت، فضحكت من أعماقها، وقالت وهي تضحك:

ـ آه منكم أيها الشرقيون... يقولون: إنكم جميعًا شعراء.

ولاحظ هشام أن باتريشيا انحنت على مصطفى، وراحت تخاطبه باهتمام وهو يهز رأسه موافقًا، ثم نهض واتجه نحو المائدة التي جلس إليها هشام وجين، وألقى التحية على الاثنين بالإنجليزية، ثم جلس، وخاطب هشام بالعربية قائلًا:

ـ الحقني يا سي هشام يا خويا.

ـ خيرًا؟

ـ البنت تدعوني لزيارة أهلها، والإقامة عندهم بضعة أيام خلال العطلة المقبلة.

ووجد هشام نفسه يجيب بصوت أجش، حاول أن يجرده من نبرات الانفعال:

ـ وإيش فيها؟ تستطيع أن تذهب.

ـ إيش فيها...؟ ناس أغراب... لا أعرفهم ولا يعرفونني... لو كانت «بات» شابًا لهان الأمر... ولكنها... بنت... بنت يا سي هشام.

وشعر هشام بانزعاج في داخله، فإن مصطفى يستخدم اسم «التدليل» في الإشارة إلى باتريشيا، ومعنى هذا أن العلاقة بينهما قد أصبحت قوية وحميمة، وها هي تدعوه لزيارة أهلها... أتراها تفعل ذلك بصورة طبيعية، أم أنها تفعله لكي تغيظ (هشام)؟

ووجد هشام نفسه يجيبه بهدوء تام:

ـ أنت تعلم أن علينا مجاراة الأوضاع هنا... إنها أمور عادية بالنسبة لهم... ولك الخيار في أن تذهب أو لا تذهب.

وحدّق مصطفى في هشام مبهوتًا بعض الوقت... ثم ما لبث أن نهض واستأذن، وعاد إلى باتريشيا.

وقالت جين ضاحكة:

ـ لماذا كنتما تتشاجران؟

وكان سؤال جين يحمل رنة ذات معنى، ولكن هشام لم يرد.

وعادت جين تقطب وهي تقول:

ـ هل يمكن أن أفهم منك يا صديقي معنى هذه الألغاز؟ تأتي إلى مائدتي، وتجلس معي... ثم تنصرف عني... وتزعم أن لي صوتًا موسيقيًا يصرفك عن فهم معنى ما أقول؟... هل لاحظت أنك لم تقل لي شيئًا منذ جلست؟ أريد تفسيرًا لذلك إذا سمحت.

وتنهد هشام، وابتسم ابتسامة مغتصبة، وقال في نفسه: «البنت معاها حق» ثم قال لها:

ـ أنا آسف لكل ما بدر مني... آسف فعلًا... وإثباتًا لذلك فإنني أدعوك هذه الليلة إلى تناول العشاء في أحد المطاعم.

وأشرق وجه الفتاة بابتسامة سعيدة، وهتفت:

ـ حقًا؟

ـ أجل... لم لا؟

ـ أشكرك كثيرًا يا عزيزي... ولكن لي شرط واحد.

ـ هه؟

ـ أن تمر عليّ في السكن لنذهب معًا.

ورد على الفور:

ـ لم لا؟

فقد كانت تسكن بجوار باتريشيا، ولعل هذه تراه وهو يأتي ليصطحب جين.

٦٢

عندما عاد هشام إلى غرفته، في ساعة متأخرة من الليل، وجد زميله توم نائمًا، فلم يشأ إزعاجه، وراح يخلع ثيابه، ويرتدي ثياب النوم في الظلام، ثم اتجه إلى الشرفة، وجلس فيها يرقب أضواء البلدة المتلألئة من بعيد... كان يريد أن يعيد ترتيب خواطره، وأن يجد نفسه وسط هذه الدوامة التي يعيش فيها. إنه لا ينكر أن إقباله على «جين» لم يكن إلا إغاظة لباتريشيا، فلقد شعر أن الأخيرة قد أساءت إليه بشكل ما، على الرغم من صراحة الاتفاق الذي كان بينهما، على أن يكونا صديقين، كأي شابين من زملاء المدرسة... ولكنه، بطبيعته، لا يستطيع أن يقبل رؤية ذلك المشهد الذي رآه في الحديقة من غير أن ينتقم... أجل.. أراد، عامدًا، أن يغيظ باتريشيا، بل وأن يشعرها بالغيرة وهو يعتقد أنه قد وفق

في ذلك. . . ولكن ما نهاية هذا كله؟ إنه لا يلبث أن يعود إلى بلاده بعد أسابيع. . . ولا يلبث أن يعود إلى هنا ومعه زوجته، وعندها يضع حدًا لكل هذه الأمور، وينفض يديه أيضًا من موضوع «جين» التي لا تزيد في مكانتها عنده عن باتريشيا فهي مجرد «صديق» ـ صديق لا صديقة ـ وقد حقق غايته في الكافتيريا حينما رأته باتريشيا معها، وإذًا فليقف الأمر عند هذا الحد. . . وليلتفت إلى أموره الخاصة، وليعد كما كان، فهذا أسلم له، وأجدى عليه.

وشعر براحة عظيمة تتسلل إلى روحه مع قراره هذا، وعرف في تلك اللحظة معنى أن يعود السمك إلى مائه الأليف.

وتمتم بكلمات: الحمد لله على هذه النتيجة، ثم اتجه إلى فراشه.

٦٣

بعد بضعة أيام حلت العطلة. . . وتضاءل عدد الطلبة الذين يرتادون الكافتيريا والحدائق إلى حد ملحوظ.

وقضى هشام أيام العطلة في الاستعداد للسفر إلى جدة، وراح ينتقي الهدايا لزوجته، وأهله، وقد صفا ذهنه، واستقرت مشاعره، وظلت تلك الراحة النفسية تخالجه.

وذات يوم، وكان وحيدًا في الغرفة، سمع طرقًا ملحًا على الباب، وحين أذن بالدخول، فتح الباب وظهر وراءه مصطفى ولد حمد الذي ما أن ألقى السلام، حتى ارتمى على أحد المقاعد وهو يلهث، وكأنه جرى شوطًا طويلًا.

وسأله هشام باهتمام:

ـ خيرًا. . . ما بك؟

ـ آه. . . اسكت يا سي هشام. . . إن ما جرى لي لم يجر لأحد من قبلي.

وضحك هشام، وقال على الفور:

ـ بالعكس... إنه يجري كل يوم... بل كل ساعة.

وقال مصطفى:

ـ أنا لم أتعود على مثل هذه الأشياء... هل تصدق؟ إنني لم أكد أصل إلى غرفتي حتى رميت حقيبتي، واتجهت إليك في الحال... فأنت الوحيد الذي يفهمني... وأنت الوحيد الذي يمكن أن يفيدني.

ونهض هشام إلى المطبخ الصغير الملحق بالغرفة، وهو يقول:

ـ تستطيع أن تتكلم كما تشاء... إنني مصغ إليك... سأعد شيئًا من الشاهي.

وتكلم مصطفى:

ـ لقد أخذتني إلى بيت أهلها... إن بلدتها لا تبعد أكثر من مئتي ميل عن هنا... كنت مهمومًا طول الوقت... ماذا سيقول أهلها عني؟ هل يهشم أخوها أنفي بقبضته، أم يطلق أبوها علي الرصاص... كنت أعد الكلمات التي سأدافع بها عن نفسي... لأقول لهم: أن ابنتهم هي التي أجبرتني على المجيء... كنت في شغل شاغل عن الفتاة وحديثها الذي لا ينقطع... بالمناسبة لقد تحدثت عنك عددًا من المرات.

ـ أنا؟

ـ نعم... لست أدري تمامًا ما نوعية العلاقة بينك وبينها... ولكن يبدو لي أنها مغتاظة من صداقتك الطارئة مع تلك الفتاة.

ـ هكذا؟

ـ أجل.

ـ المهم... ماذا حدث معك بعد ذلك؟

سأل هشام وهو يحمل الشاي ليضعه أمام ضيفه، بينما كان مصطفى يواصل حديثه المحموم:

ـ هل تصدق أن أهلها استقبلوني بالترحاب؟ لقد التفوا حولي يسألونني عن بلادي، وأصروا على معرفة موقعها في الخارطة... ثم انهالوا عليّ بأسئلة عديدة عن كل ما يتعلق بي، وبالبلد الذي جئت منه. ثم دلوني على غرفة قالوا: إنهم اعتادوا تأجيرها للراغبين في قضاء بعض الوقت في بلدتهم؛ لأقضي فيها مدة إقامتي عندهم.

آه... ماذا أقول لك يا سي هشام، كنت مذهولًا مما أرى، وما أسمع، فإن أحدًا ما لم يسأل بات عن العلاقة بيني وبينها... ولا لماذا جاءت بي... هل يمكن لعقل أن يتصور هذا؟

في اليوم التالي جاءني أخوها، الذي كنت أخشى أن يهشم أنفي بقبضته، وعرض علي أن أذهب إلى المسبح الملحق بحديقة المنزل، وذهبت بكل بساطة وأنا خالي الذهن من أي شيء... فإذا بي أفاجأ بالفتاة وهي بملابس السباحة، تدعوني للنزول في الماء... أقول لك الحق، يا سي هشام، إنني شعرت بالرعب، فاعتذرت بعبارات مبهمة: إنني لا أجيد السباحة.

وقال هشام في إشفاق:

ـ إذًا فأنت لم تستمتع بالعطلة؟

ـ الحق أنني استمتعت... في البداية كنت منطويًا على نفسي. وأعتذر عن أي شيء يدعونني إليه... ولكن تكرار الدعوة أخجلني... وهكذا... وهكذا تعلمت السباحة... واستطعت أن أستمتع بالعطلة بعد أن اقتنعت بأن نظرتهم إلى الأمور تختلف.

ـ كيف؟

ـ إنهم ينظرون إلى علاقات بناتهم بالآخرين نظرة عادية.

وضحك هشام وهو يقول:

ـ يبدو أن هذا تبرير تريد أن تريح به ضميرك.

وبادله مصطفى الضحك، ثم قال:

ـ لقد تحدثت بات عنك كثيرًا... أمامي وأمام أهلها... تريد الحق يا سي هشام.

ـ هه؟

ـ إنني كنت أشعر بأنها كانت معي بجسمها... ومعك بقلبها.

ـ لقد تبنا... وتاب الله علينا.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أنني في طريقي إلى المملكة بعد بضعة أيام، إن شاء الله.

٦٤

لم يكن هشام يصدق أنه، في هذه اللحظة، على متن طائرة تطوي به الأجواء طيًا في طريقها، به، إلى بلاده.

فلقد أدى المهمة التي سافر من أجلها بنجاح تام، وأنهى دراساته في اللغة الإنجليزية على النحو المطلوب، وبات الآن أكثر خبرة، بما لا يقاس، بهذه اللغة، حيث أصبح قادرًا على متابعة الدراسة العليا للحصول على الماجستير التي ابتعث من أجلها.

ومضى يقارن، وابتسامة خفيفة تتلاعب على شفتيه، بين حاله عندما كانت طائرته تطير به في الاتجاه المعاكس، وكان وحيدًا، مستوحشًا، يصادف في كل ساعة مفاجأة، ويلتقي مع كل خطوة بشيء غير مألوف.

لقد انهار هذا الجدار الآن... وبات واثق الخطوة، يتصرف بخبرة، ويتكلم الإنجليزية بطلاقة، ولا يشعر بدهشة مما يمر به.

وعاد بذهنه إلى الأشهر التي مضت، منذ أن غادر جدة آخر مرة، وإلى اللحظة التي يطير بها ـ الآن ـ عائدًا إلى عروس البحر الأحمر.

لقد صادف في سفرته هذه كثيرًا من الأشياء التي لم تكن تخطر له

ببال، فواجهها بكل ما استطاع من مقدرة على التصرف، وخبرة في الحياة، أخفق أحيانًا، ونجح أحيانًا أخرى، ولكنه ـ في جميع الأحوال ـ قد اكتسب خبرة، بل خبرات جديدة، وتأكد ـ وهذا هو المهم ـ من متانة إرادته، وقوة أخلاقه، وعمق تربيته، فإذا كان قد بدا في نظر بعض زملائه وزميلاته على شيء من الغرابة والتفرد في المواقف والتصرفات؛ فإنه ليس نادمًا قط على حفاظه على تلك المبادئ التربوية التي عاش في كنفها طوال حياته، قبل أن يذهب إلى بلاد الغربة في الوجه الآخر من الكرة الأرضية.

وتذكر زميله توم، واستعرض علاقته معه منذ أن رآه لأول مرة، لقد انتهت هذه العلاقة على خير ما يرام بعد أن أنهى دوراته المتقدمة في اللغة الإنجليزية، واستطاع أن يفرض احترامه على زميله الأميركي، الذي قد لا يكون قد اقتنع ـ داخليًا ـ بمبررات مواقفه الأخلاقية تلك، إلا أنه لم يتمالك من التسليم بأن تلك المواقف الأخلاقية التي وقفها هشام، كانت تنبع من قناعة عميقة، وإيمان كلي بها.

ثم تذكر باتريشيا ـ واتسعت ابتسامته إذ ذاك ـ وكيف حملته على أن يقيم علاقته البريئة معها، وكيف كشفت له، في لحظة ضعفها تلك، عن الوحدة التي تعيش فيها على الرغم من كل مظاهر المرح التي تحيط بها، ثم موقفها وهو يراها في الحديقة مع مصطفى ولد حمد.

وحمد الله في سره، إذ انتهت الأمور إلى ما انتهت إليه، لا سيما بعد أن كاد يتورط مع تلك الفتاة الأخرى «جين» نتيجة رغبته في العناد، والتحدي.

ثم اتجه بذهنه إليها.

إلى هيا.

إنه لم يخبرها، ولم يخبر أهله كذلك، بموعد عودته، إذ لم يشأ،

أن يجشمهم عناء الانتقال من مكة وحائل لاستقباله في جدة، وما يستدعيه ذلك من مشقة، فألمح لهم في آخر رسائله إليهم بأنه يأمل في أن يكون عندهم بعد أسبوعين من تاريخ الخطاب، وأنه لا يعرف موعد وصوله بالضبط.

ولقد اختار لرحلته طريقًا مباشرًا، لا يتوقف سوى ساعة في مطار لندن، قضاها في قاعة الترانزيت، فلقد كان شوقه إلى لقاء الأحبّة يفوق كل شوق، وتوقه إلى رؤية أبيه، وأمه، وأخواته، وزوجته، وأهلها، يفوق كل توق.

وراح يتمتم، في سره، بعبارات الحمد لله، والشكر له... على ما أفاء عليه من نعمائه، وما حقق له، بعونه، من توفيق ونجاح.

وأغمض عينيه، وراح في سبات عميق، فلقد أمضى في الجو ساعات طوالًا... متنقلًا من مطار إلى مطار، ومن قارة إلى قارة، وها هو الآن يتجه إلى قارة ثالثة، في أقدس مدنها عاش، وفي رحابها الطاهرة درج وترعرع، وإن هو إلا بعض وقت حتى يكون ـ بإذن الله ـ فيها.

٦٥

وما يذكر هشام كيف وصل، أخيرًا، إلى جدة، ولا كيف أنهى إجراءات الدخول، ولا كيف استأجر أول سيارة تكسي صادفها؛ لتحمله مع حقائبه الكثيرة إلى مكة، حرسها الله.

كل ما كان يهمه ـ إذ ذاك ـ هو أن يصل إلى مكة بأسرع وقت، فكان ينظر إلى الطريق العريض المسفلت الذي لا تبدو منه ـ في عتمة الغروب ـ سوى الخطوط البيضاء التي رسمت عليه، وعلى جانبيه اللافتات الإعلانية الضخمة، وعلى مبعدة منه تبدو أنوار خافتة لمنازل

بعيدة في بعض القرى الصغيرة، وسلسلة الجبال الهائلة ترتفع بشموخها المهيب.

الحمد لك يا رب... ها أنا أعود إلى مكاني الطبيعي... هذا هو الجو الأليف الذي أحببته، وعشت فيه طوال حياتي... هذا هو الهواء الذي ملأ الصدر، والدم، والجوارح.

واستنشق الهواء الآتي إليه عبر نافذة السيارة بقوة، وهو يشعر بفرح طاغ ما يدري كيف يعبر عنه.

ووصلت السيارة إلى مكة، وراحت تخترق شوارعها وحواريها في طريقها إلى المنزل، وسيطر على قلب هشام ذلك الشعور الذي ينتاب كل من أمّ الأراضي المقدسة التي أمّنها الله، شعور الطمأنينة، وسكينة النفس، والخشوع، وود هشام لو استطاع أن يزور المسجد الحرام، ويجتلي الكعبة المشرّفة، ويؤدي الصلاة في بيت الله، لولا أنه كان مثقلًا بحقائبه وأشيائه التي اصطحبها معه في سفرته، وعول على أن يفعل ذلك بعد وصوله.

وكان صوته يرن في أذنه رنينًا خاصًا، وهو يدلي بتعليماته إلى سائق السيارة في أن ينعطف يمينًا، أو يستدير يسارًا، أو يأخذ هذا الشارع أو ذاك، إلى أن وقف أخيرًا أمام البيت، فأنزل حقائبه، ونقد السائق أجرته، ثم راح ينظر إلى الباب وقد ذاب قلبه شوقًا، وحنينًا... فها هو ـ بعد تلك الغيبة التي بدت له طويلة طويلة ـ يعود إلى المكان الذي فيه ولد، وعاش، ونشأ.

وضغط جرس الباب وهو يشعر بقلبه يركض بين ضلوعه، وراح ينتظر متلهفًا، ثم عاود الضغط وقد نفد صبره، إلى أن أتاه صوت عرفه في الحال... إنه صوت أخته رجاء تسأل عمن يكون الطارق.

وفي لمحة من لمحات التصرفات الصبيانية التي يحلو للإنسان

ـ أحيانًا ـ أن يأتيها من غير قرار مسبق، غيّر هشام صوته وهو يقول:

ـ هنا بيت أبو هشام؟

ـ أيوه.

ـ الباشمهندس هشام فيه.

ـ لأ... مين يبغاه.

ـ كيف لا؟ أجل وين راح؟... وكيف يعني ما هو موجود؟

وصمتت رجاء، وكاد هشام أن ينفجر ضاحكًا، فهو قد توقع من رجاء أن تنفجر فيه، كعادتها... صائحة: «وأنت مالك»؟... فعاد يضغط على جرس الباب وهو يقول بصوته العادي:

ـ افتحي يا رجاء... أنا هشام.

ـ هشام... أخويا.

ارتفعت صيحة رجاء من وراء الباب، وقد جاءها الصوت الأليف، وفتحت الباب بسرعة، وهي تقول:

ـ الحمد لله على السلامة، الحمد لله على السلامة، الله يخزي شيطانك يا شيخ... لقد أدهشني سؤالك وأنت تخاطبني بعد أن غيّرت صوتك.

وقاطعها هشام قائلًا، وهو يضحك:

ـ عارف... عارف... وكنتِ تبغي تسمعيني موشح من الكلمات اللاذعة.

ـ الحقيقة أنني كنت أتساءل ما هو معنى سؤالك البارد.

وعانق هشام أخته، ثم بدأ في نقل حقائبه إلى داخل المنزل، بينما انطلقت رجاء تصيح وهي تغيب داخل البيت:

ـ أبويا... أمي... هيا... سناء... هشام جه.

وضج اسم هيا في نفس هشام إذ سمع أخته تناديه فهي هنا، إذًا،

ولسوف يراها بعد ثوان بعد أن كان قد رسم في ذهنه أن يذهب في اليوم التالي إلى حائل ليراها. . . وخرج الجميع للقاء هشام، واختلطت الضحكات مع أصوات القبلات، يطبعها الأب، والأم، والأختان الأخريان.

ووقفت هيا بقامتها الممشوقة ترقب اللقاء بين هشام وأهله، وهي لا تكاد تصدق بأنها ترى هشام أمام عينيها، وأنه عاد بعد تلك الغيبة التي بدت لها وكأنها دهر طويل، وتشابكت الأيدي في لقاء غلب فيه التأثر على الزوجين الشابين، وكأنهما لا يجدان ما يقولان بعد أن منَّ الله عليهما باللقاء.

وهمست هيا بصوت مرتجف:

ـ الحمد لله على السلامة.

وانتقل الأهل جميعًا إلى غرفة المجلس، وعبارات الترحيب، والفرح، والتأثر، تتناثر هنا وهناك، فلقد كان حضوره المفاجئ، على الرغم من توقعهم له، أقوى تأثيرًا في نفوسهم، بعد أن كانوا يعتقدون أنه سيأتي بعد أيام.

وقال الأب معاتبًا:

ـ لو كنت قلت لنا يا ابني، كنا استقبلناك في المطار.

ـ لم أشأ أن أجشمكم عناء هذا الاستقبال.

وقالت الأم:

ـ الله يهديك يا وليدي. . . أنت دايمًا تعمل معانا كده.

ـ الله يسلمك يا أمي. . . ما أبغى أكلف عليكِ.

وقالت رجاء:

ـ والله العظيم أنا قلبي كان حاسس أنه راح يجي في هاليومين. . . أصلي عارفاه. . . وعارفه مفاجآته.

ـ فيكِ الخير يا رجاء. . . وما أبغى أقول أكثرمن كده.

ـ إيش تقصد؟

ـ ولا حاجة.

وارتفعت الضحكات، فالحوار التصادمي بين الاثنين، كان سمة مميزة لهما منذ أن وعيا على الدنيا، فرجاء لا تصغر هشام إلا بعام واحد، وكانت الأم تفسر أمثال هذه الحوار، بأنه نتيجة لتقارب السن، ومجيء رجاء إلى الدنيا بعد هشام مباشرة، ولكن المحبة العميقة التي يتبادلها الاثنان ـ في الحقيقة ـ لم تكن موضع شك.

ونظر هشام إلى هيا متسائلًا، وكأنه ينتظر منها، هي الأخرى، تعليقًا.

وتضرج وجه هيا بالحمرة، وهمست:

ـ منذ أن وصلتني رسالتك التي تقول فيها إنك ستكون هنا بعد أسبوعين، آثرت القدوم إلى مكة، وانتظارك فيها.

وأكملت رجاء عبارة هيا:

ـ يعني بصريح العبارة يا باشمهندس شوشو. . . الست هيا لم تطق الانتظار حتى تصل سيادتك إلى مكة، ومن ثم تتوجه إلى حائل. . . مفهوم؟

وقال لها هشام ضاحكًا، وهو يشد على يد هيا بين يديه الاثنتين:

ـ مفهوم يا آنسة رجاء. . . وربنا يسترنا من لسانك هذا.

وأضاف:

ـ المرة هاذي بس يا رجاء سامحتك عن كلمة شوشو التي سبق أن طلبت منك ألا تناديني بها.

وارتفعت الضحكات في الغرفة، وانهالت الأسئلة على هشام من كل فم، فالعائلة تريد أن تعرف كيف قضى هشام تلك الأشهر في بلاد الغربة على ذلك النحو الذي كان مؤلمًا للجميع.

وقال هشام:

ـ هذه حكاية طويلة... مضحكة ومبكية في آن واحد... وأرى أن نؤجلها للسهرة... الآن موعد تسليم الهدايا لأصحابها. وبعد ذلك أغير ثيابي، ونبدأ حديثنا الطويل.

وتساءلت الأم بلهفة:

ـ قبلها قل لي يا بني... هل تعشيت؟

وأطلق هشام زفرة حرى، وأجاب:

ـ آه يا أمي... لا تذكريني بمسألة الطعام... والله العظيم من يوم ما سافرت إلى دا الحين لم أذق طعامًا مثل الطعام الذي تطهينه أنت، وهيا.

ونهضت الأم في الحال، وهي تقول:

ـ أقوم أحضّر لك لقمة تاكلها.

وضحك هشام، فقد هبت أمه وزوجته في آن واحد لتحضير الطعام له، وقال:

ـ لا... أنا ماني جيعان الآن... تكفيني مشاهدتكم... وأيضًا هناك الهدايا التي أحضرتها لكم.

وأقبل على الحقائب يفتحها، وهو يقول مخاطبًا الجميع:

ـ والله الواحد يحمد ربنا على النعمة اللي عايشين فيها في المملكة... لا يمكنكم أن تتصوروا كم عانيت في اختيار الهدايا... فكل ما هو موجود في أمريكا موجود مثله في المملكة... وقد حاولت بقدر إمكاني أن أجد لكم الهدايا المناسبة.

وتركزت العيون في فضول ملحّ على الحقائب العديدة التي جاء بها هشام معه، والتي ملأها كلها بالهدايا التي اختارها لأهله، وأهل زوجته.

كان هشام يشعر بنوع من الاطمئنان التام، وهو يأوي إلى غرفته هو وزوجته، فها هو الآن في المكان الذي طالما حلم به في غربته، والذي طالما اشتاق إليه وهو بعيد عنه، وطالما فتح عينيه ـ وهو على بعد آلاف الأميال منه ـ على سواه في الأماكن التي تنقل بينها خلال غيابه الذي بدا له وكأنه سنوات، مع أنه لم يزد عن أشهر معدودات.

وأقبل على الأشياء التي رافقته في صباه وفتوته يتأملها، يتفحصها، يلمسها بيديه في حنان وكأنه يراها لأول مرة. . . وتنهد أخيرًا في ارتياح، والتفت إلى هيا التي كانت جالسة على كنبة وثيرة ترقبه في صمت، وكأنها تعرف ما يدور في داخله تلك اللحظات.

وجلس تجاهها على كنبة أخرى، وأمسك يديها بيديه في عطف بالغ، وقال لها بصوت خافت:

ـ آه لو تعلمين كم افتقدتك، واشتقت إليك.

وأرخت هيا أهدابها، وهي تهمس:

ـ وأنا أيضًا.

ـ لن نفترق بعد الآن أبدًا إن شاء الله. . . لقد ثبت لي أن رأيك كان هو الأصوب، وأن ما زعمه بعض الزملاء حول مستلزمات دراسة اللغة الإنجليزية لا ينطبق كل الانطباق على الواقع، وما كان ضرني لو أنني اصطحبتك، وعشت حياتي بصورة طبيعية، بدلًا من العناء الذي تحملته، مرة في ازدراد ذلك الطعام الذي لم آلفه، قسرًا، ومرة في احتمال صحبة آخرين لا أرتاح إلى صحبتهم، ثم الوحشة والوجوم اللذين كانا يسيطران على نفسي كلما عدت إلى غرفتي التي يشاركني فيها إنسان آخر لا أعرفه، ولا يعرفني، على الرغم من الفترة التي قضيناها معًا.

ورفعت هيا، التي كانت تصغي إلى كلامه في سعادة طاغية لم

تحاول إخفاءها، نظرها إليه، ومع أنها تألمت لهذه الصورة الموحشة التي رسمها هشام لحياته في بلاد الغربة، إلا أنها وجدت نفسها تقول له، وفرحة طفولية حلوة تطل من عينيها:

ـ تستاهل... أنت الذي جنيت على نفسك... أردت أن تذهب وحدك فطاوعتك لا لشيء إلا لتكون راضيًا... وليتك تعلم كم عانيت من الضغط النفسي الذي كاد يزهق أنفاسي، وأنا أبدي لأهلك موافقتي على سفرك وحيدًا.

وضحك هشام، وقال لها وعيناه تفصحان عن أعمق ما يمكن أن تفصح عنه عيناه من المحبة والشوق:

ـ يحق لك أن تقولي ما تشائين، فأنا المذنب... ولكن ثقي بأن طيفك ما بارح مخيلتي لحظة واحدة... منذ أن وجدت نفسي وحيدًا في الطائرة... وإلى أن رأيتك اليوم عند وصولي... لقد كانت تجربة أرجو من الله تعالى ألا يعيدها مرة أخرى.

وطال الحديث، وتشعب بين الزوجين الشابين، ومضت ساعات لم يصمتا خلالها لحظة واحدة، فهيا تريد أن تعرف كل شيء عما جرى مع هشام في رحلته، وهو ـ من جهته ـ يريد أن يزيح عن قلبه أثقال الهموم التي رانت عليه خلال الأشهر الفائتة... فمضى يثرثر ويثرثر، وهيا تصغي، وتعلّق، تضحك تارة، وتعبس أخرى، وفق ما يأتي في حديث هشام من عبارات وصفها، هو، عند قدومه بأنها قصة مضحكة ومبكية في آن واحد.

ولم يتوقف الحديث إلا مع تصاعد أصوات المؤذنين في هدأة الليل، تدعو الناس إلى صلاة الفجر، فنهض هشام، وارتدى ملابسه ليتوجه، مع أبيه، إلى المسجد الحرام، ويكحل عينيه بمرأى كعبته المشرّفة، ويؤدي في رحابه الطاهرة صلاة الفجر... وقد سكنت نفسه إلى هذا الجو الذي عاش فيه معظم سنوات حياته.

ـ هه يا باشمهندس شوشو. . . حدّثنا.

كانت صاحبة العبارة هي، بالطبع، أخته رجاء التي عادت إلى مبارزاتها الكلامية المرحة معه، والتي ما كان أحد في المنزل يخاطبه بها مثلما تخاطبه هي.

وأدار هشام عينيه في غرفة المجلس، وتساءل ببراءة مصطنعة:

ـ مين شوشو؟ هو حد هنا في الغرفة يدعى شوشو؟

وضحك الجميع، وعلّقت الأم قائلة لهيا:

ـ تصدقي يا بنتي؟ من يوم ما كبروا وهم كده دايمًا. . . كلمة منها. . . وكلمة منه. . . وتلاقيهم نزلوا أخذ ورد كأنه فيه بينهم ثار.

وقال هشام:

ـ أجل إيش أسوي؟ كذا مرة وأنا أقول لها لا تناديني شوشو. . . وهي ما هي راضية تسمع مني.

وردت رجاء، بكل ما في عواطف الأخوة من محبة وإخلاص:

ـ أصل ما عندنا غيرك يا شوشو يا خويا. . . أبغى أدلعك.

وتدخّل الأب في الحديث:

ـ وبعدين بقى؟ تبغوا تعملوها سيرة؟ اسكتي يا رجاء يا بنتي الله يهديكِ، خلينا نسمع منه إيش صار معاه في أمريكا.

وتحدّث هشام، وأصغى الجميع في لهفة.

حدثهم عما جرى معه منذ أن ركب الطائرة متوجهًا إلى لندن، وحتى عاد من أمريكا إلى المملكة، لم يترك شيئًا من التفاصيل إلا وذكرها، ولكنه أغفل ـ عامدًا ـ قصة الفتاة الأميركية باتريشيا؛ لأنه قدّر بأن هيا لن تتقبلها بارتياح، على الرغم من أنه كان ملتزمًا حدود أخلاقه، وتربيته، ولم يتجاوز هذه الحدود على الإطلاق، ولكنها ـ كأية أنثى ـ لن

ترضى بأن يروي لها، على مسمع من العائلة، تفاصيل علاقته الغريبة مع تلك الفتاة، ولكنه ـ بالمقابل ـ لم يكن ينوي كتمان هذه القصة، ولكنه آثر أن يتركها إلى فرصة أخرى، وربما عرّف هيا على الفتاة الأميركية عندما يذهبان معًا إلى أمريكا... وعندها ستكون هيا أكثر تفهمًا لتلك العلاقة البريئة العابرة؛ التي ربطت شكليًا بينه وبين باتريشيا.

وكانت كل جملة ينطق بها هشام تثير تعليقات شتى من السامعين، فهم لم يقتنعوا بكثير مما رواه لهم من تفاصيل عن الحياة الأميركية، المحكومة بالمادة، والتلفزيون، والترف الزائد عن المعقول، حتى باتت العلاقات الإنسانية في رتبة متدنية عن تلك التي نعرفها في بلادنا.

وأضاف هشام:

تصوروا أن العلاقات العائلية في حكم المعدومة هناك... كل فرد مسؤول عن نفسه، ويندر أن نجد شابًا أو فتاة يعيشان في كنف أهلهما متى بلغا سن الثامنة عشرة... يندر أن نجد ابنًا يتكفل بأبيه في شيخوخته... إنهم يقيمون مؤسسات تضم المتقدمين في السن من الجنسين يقضون فيها ما تبقى من حياتهم، تصوروا أن زميلي في الغرفة «توم» قال لي مرة أنه يريد أن يزور جده لأمه... حسبت بادئ الأمر أنه سيزوره في بيت العائلة، كما هو الحال عندنا، ولكنه قال لي بكل بساطة أن جده يقيم في مأوى للعجزة، وحين لاحظ عليّ معالم الذهول والدهشة، سألني بتلك البساطة الأميركية التي تثير الغيظ أحيانًا: «وأنتم كيف تعاملون آباءكم، وأجدادكم، وأمهاتكم، وجداتكم» فقلت له بلهجة لم تخل من شيء من الحدة: «إننا نجلّهم، ونحترمهم، ونتفانى في خدمتهم طول حياتهم، لهم المقام الأول في بيوتنا، ولهم الأفضلية القصوى في العائلة، ولا يمكن أن نتصرف بشيء من غير موافقتهم ومشورتهم، وكل ما نكسبه نضعه بين أيديهم يتصرفون به كما يشاؤون»... وبدا لي عندها أن الذهول قد انتقل مني إليه، فهو لم يستطع أن يفهم كيف يحدث ذلك.

وعلّق الأب بتؤدة وهو يسمع هذه المعلومات الجديدة عليه:

ـ بارك الله فيك يا بني... الواقع أن هذا هو الفارق الأساسي بين المجتمع الإسلامي والمجتمعات الأخرى، والمادة هي آخر ما يمكن أن نفكر به في علاقاتنا العائلية... إنه أمر الله تعالى الذي حض على بر الوالدين، وعلى التواد، والتحاب، والتراحم بين أبناء الدين الواحد... فكيف بين أبناء الدم الواحد؟!

وهزّت الأم رأسها في تعجّب، وقالت معلّقة:

ـ الحمد لله على نعمة الإسلام يا ولدي.

ـ صدقت يا أماه... صدقت.

٦٨

بعد أيام توجّه هشام، تصحبه هيا، إلى حائل، حيث قدم تحيته واحترامه للشيخ عبد الله والد هيا، والتقى بزميله العزيز ناصر الذي كان فرحه بلقاء هشام يفوق كل وصف، فقد تكرّر عند زيارة هشام وهيا لحائل نفس ما حدث عند وصول هشام إلى مكة... وصول مفاجئ من غير سابق علم، ودهشة مفاجئة، ثم ترحيب حار، وعتاب على عدم إخبارهم مسبقًا بوصوله، ثم سيل من الأسئلة يتناول تفاصيل حياته في أمريكا، وكيف كانت الدراسة، وكيف استطاع التعامل مع المجتمع الأميركي، إلى غير ذلك من التفاصيل التي يستقبل بها ـ عادة ـ كل عائد من رحلة طويلة في الخارج.

وفي سهرة عائلية بمنزل الشيخ عبد الله، راح هشام يعيد مرة أخرى رواية ما جرى معه بإيجابياته وسلبياته على السواء، واختتم حديثه وهو يرمق هيا بطرف عينه مخاطبًا ناصر:

ـ خلاص، توبة يا ناصر إذا كنت أتحرك خطوة واحدة دون أن تكون هيا معي، ليس يعلم إلا الله ما عانيت.

وقال له ناصر باسمًا:

ـ صدقني إن هذا كان رأيي منذ البداية... ولكنني لم أشأ أن أقوله لك بعد أن لاحظت أنك كنت مقتنعًا بقرارك، بالذهاب وحيدًا، كل الاقتناع، وعلى كل حال... الحمد لله، ها أنت معنا مرة أخرى على أتم صحة... ولك أن تقرر ما تراه عند عودتك لبدء الدراسة للماجستير.

ورد هشام بسرعة:

لقد قررت، واتكلت على الله، منذ أن وطئت قدماي مدينة لندن... هل تصدق هذا؟ يعني أنني اكتشفت خطئي لحظة نزولي من الطائرة السعودية، وشعرت بأنني تركت قلبي معها.

وكانت معالم السعادة ترتسم على وجه هيا، وهي تستمع إلى هذا الكلام، فهي قد استجابت لرغبته، في أن تبقى في المملكة خلال غيابه، على الرغم مما كلفها ذلك من ألم، ودموع، وقلق، ترجو من الله ألا يعيدها مرة أخرى.

ولم يكن هشام نفسه بعيدًا عن هذا الإحساس، فقد قدّر لهذه الزوجة الوفية موقفها منذ البداية، ولم ينس يوم راحت تنشج على كتفه بعد أن استمعت إلى تلك الأغنية التي تتحدث عن ألم الفراق والشوق، ولم ينس كذلك محاولاتها للتجلد، والتسلح بالشجاعة وهي تراه يستعد للسفر، فتساعده فيه، بإعداد حقائبه، وتدارك لوازمه، ودموع أليمة قد تحجرت في مقلتيها، قد منعتها من الانسكاب بقوة الإرادة، وصدق الوفاء.

وكان الشيخ عبد الله يستمع إلى هشام، ويسأله بين الحين والحين سؤالًا يستوضح فيه عن إحدى النقاط التي غمضت عليه، ويهز رأسه في أسف، إذ يروي له هشام الأسلوب الغريب الذي يدير آلة الحياة الأميركية، إلى جانب الأمور الأخرى التي تختلف عن حياتنا، وتقاليدنا، ونمط سلوكنا كل الاختلاف.

وعلّق الشيخ عبد الله في ختام الحديث:

ـ الحمد لله الذي منّ علينا بنعمة الإسلام... وأعطانا من القيم الأخلاقية ما لا يستقيم لأمة حال دونها... فلا تغرنك، يا بني، مظاهر الحضارة التي تبهر السذج، وتصرفهم عن الجوهر... الحضارة أخلاق قبل كل شيء... فبالأخلاق أقمنا نحن حضارتنا السالفة، وبالأخلاق نستعيد، بإذن الله، أمجادنا، وعزتنا.

٦٩

قضى هشام في حائل قرابة أسبوعين، كان خلالهما موضع الحفاوة، والتكريم، من أهل زوجته، ومن زملائه السابقين في العمل، ومن قائد المنطقة الذي هنأه بحرارة على النتائج الممتازة التي حققها، وحثّه على مواصلة الجهد؛ ليكون عند حسن الظن به، ويرفع من مستواه العلمي والفني بما يخدم به بلاده في الحقل الذي تخصّص فيه.

وخلال ذلك، كانت هيا في منتهى السعادة، وأقصى درجات الفرح والحبور... كانت تكاد لا تصدق أن الزوج الحبيب قد عاد، وأن أيام الوحدة التي عانتها قد زالت، وكانت تشعر بقلبها يخفق في صدرها بقوة وهو يحدّثها عن حياتهما المقبلة في أمريكا، وكانت تقول له باستمرار:

ـ لا يهمني أنني ذاهبة إلى أمريكا، أو سواها... إنني سعيدة لأن وجودك يسعدني، ولأن وجودي يسعدك... ولو خيرتني لاخترت البقاء في بلادنا... فهنا ولدنا... وهنا عشنا... وهنا اعتدنا على طريقة حياتنا التي نفخر بها، ونعتز.

كانت تضغط على يديه بيديها، وهي تروي له كيف كانت أفكارها تحوم حوله باستمرار، وكيف كانت تتساءل ـ كما توقعت ـ في كل لحظة عن حاله، وكيف يعيش... وكيف يتدبر أموره، وكانت سحابة من

الخوف الشديد تغشى جبينها كلما تذكرت حادثة الطائرة التي رواها لها، والخطر الذي تعرّض له.

وقالت:

منذ أن رويت لي تلك الحادثة المروعة وأنا أحاول أن أتذكر ماذا كنت أفعل في تلك اللحظة... أتراني كنت جالسة على مقعد، آمنة، أسمع الراديو، أو أقرأ في كتاب... أم لعلني كنت نائمة على سريري... أم كنت في زيارة لإحدى الصديقات وأنت معلّق بين الأرض والسماء؟ آه يا هشام لو كنت معك لحظتها لما خفت أبدًا، فالأعمار بيد الله، ولكنني لا أقبل لنفسي أن أكون في أمان، بينما أنت تعايش الخطر والقلق.

وأجابها هشام، وقد لمعت عيناه ببريق السعادة:

صدقيني أنني لم أشعر بذرة من الخوف في تلك اللحظات... وهذا ما أدهش الرجل الأميركي الجالس إلى جانبي... كنت ـ إذ ذاك ـ أفكّر فيك... وفي أهلنا... وفي ديارنا... وكنت على ثقة من أن الله تعالى لن يضيعني ولن يحرمني، بعونه، من أن أراك، وأراهم مرة أخرى... وها نحن معًا كما ترين.

٧٠

لم تكن هيا كثيرة الحماسة للرحلة المزمعة إلى الولايات المتحدة مع زوجها فهي قد ألفت الجو الذي نشأت فيه في حائل، ولم تشعر بكبير فارق حين صارت تتنقل ما بين حائل ومكة المكرمة، فنمط الحياة هو ذاته في جوهره، والأهل هم الأهل، والناس هم الناس، أما الانتقال إلى جو آخر، كذاك الذي كان هشام يتحدث عنه، فلم يكن يروق لها كثيرًا، وازدادت نفورًا منه عندما سمعت أحاديث زوجها، وتوقعت أن تجد صعوبة شديدة في التكيف مع هذه الحياة.

كانت لا تمانع في أن تذهب مع هشام إلى أي مكان من العالم، فهي لا ترغب في أن تفارقه، ولو لحظة واحدة، بعد الآن.

وفي الوقت نفسه كان في داخلها نوع من التشوف والتوق إلى الحياة الجديدة التي توشك أن تلج غمارها، ولكنها تتوجس خيفة منها.

وخلال ذلك كان هشام يستكمل إجراءات السفر، ويستخرج الوثائق اللازمة، حتى بات كل شيء مهيأ للرحيل.

وقضى الزوجان آخر ليلة لهما في حائل، في سهرة عائلية امتدت حتى الساعات الأولى من الصباح، وكان الوداع أليمًا بالنسبة لها، وهي التي لم تفترق عن أهلها قط إلا تلك الأيام القليلة التي قضتها في مكة بعد زواجها.

وهمست لها أمها وهي تعانقها بقوة، وتضمها إلى صدرها كطفلة صغيرة أنها ترجو لها أن يرزقها الله بطفل يملأ عليها حياتها، ويسعدها بأن تسمعه يناديها «جدتي»، وتضرج وجه هيا بحمرة قانية وهي تجيبها بالطريقة الهامسة نفسها، أنها تشاركها هذه الأمنية، وأنه لا فارق لديها إن كان الطفل ولدًا أم بنتًا.

وضحكت الأم، ومسحت دموعها، وراحت تودعهما بعبارات الدعاء بالتوفيق، والنجاح، والأمنيات الطيبة.

وتكررت الصورة نفسها في مكة، حيث قضى الزوجان ليلة أخرى، تبادلت فيها ـ وزوجها ـ الأحاديث مع أهل هشام، وأصغت إلى كلام أم هشام الهامس التي تمنت لها الأمنية نفسها التي سمعتها من أمها، فابتسمت، وهمست في أذن حماتها بمشاركتها لها هذه الأمنية:

وقال هشام ضاحكًا:

ـ إيش الحكاية يا أمي؟ الوشوشة شغالة بينك وبين هيا؟

فقالت له الأم على الفور:

اسكت يا ولد... هذه أحاديث نساء... لا يجوز لك أن تسمعها.

وهكذا انقضت الليلة دون أن ينام أحد، ففي الصباح الباكر سيغادر الزوجان مكة في طريقهما إلى جدة، ومنها إلى تلك القارة الأخرى التي حدثهم عنها هشام أحاديث، بدت لهم غاية في الغرابة، وإثارة الاستغراب والدهشة.

٧١

كان هشام يشعر بسعادة غامرة، وهيا تجلس إلى جانبه في الطائرة التي أقلتهما من جدة في طريقها إلى لندن.

كان يبدو عليها شيء من الارتباك، تحاول أن تخفيه بابتسامة مغتصبة، ولم يستغرب هشام ذلك، فقد مرّ بهذه التجربة من قبل، وهو الرجل، فكيف إذًا بفتاة مثل هيا، لم تغادر حائل من قبل إلا مرات قليلة داخل المملكة؟

وكان هشام يحاول دائمًا أن يوجّه انتباهها إلى ما يجب أن تفعله فتطيع، والابتسامة المرتبكة نفسها تبدو على وجهها.

أما هو، فكان يتصرف بثقة تختلف كل الاختلاف عن تصرفه يوم اجتاز الطريق نفسه قبل الآن، كما أن شعور الوحشة الذي ملك عليه مشاعره ـ قبلًا ـ قد خفَّ كثيرًا، إن لم نقل أنه قد زال، فهو ـ هذه المرة ـ يجلس إلى جانب هيا، ولا يفصله عنها شيء. وهو ـ هذه المرة ـ قادر على أن يتحدث بخواطره بصوت مسموع، بعد أن كان في المرة الماضية يخاطب نفسه ولا أحد يسمعه.

هذه المرة ـ حدّث هشام نفسه ـ ليس مضطرًا لأن يبحث عن وجه هيا في الفضاء الرحب البادي أمامه من وراء زجاج نافذة الطائرة، ولا

أن يجد نفسه مجبرًا على تبادل الحديث مع أشخاص لا يعرفهم.

وتنهد بارتياح، واسترخى على مقعده في سعادة، وأصغى إلى تعليقات هيا التي كانت تهمس له بها بين الحين والآخر، فإما أن يجيب بإيماءة من رأسه، أو يرد بابتسامة، أو يعلّق بكلمات قليلة. فهو ـ في داخله ـ يريد أن يستمتع بهذا الشعور الغريب من الاطمئنان، الذي افتقده ـ أيما افتقاد ـ في رحلته الأولى.

٧٢

وسار كل شيء على ما يرام: وصلت الطائرة إلى لندن، وهبط الزوجان منها مع الركاب الآخرين، واجتازا حواجز الجوازات والجمارك، وصارا الآن ـ لأول مرة معًا ـ في مدينة لندن.

والواقع أن هشام حرص على أن يعيد رحلته الأولى كما هي، فلئن كان قد حرم نفسه في المرة السابقة من الاستمتاع بما رآه من أشياء جديدة في العاصمة البريطانية؛ لأنه لم يشأ أن يستمتع بشيء لا تشاركه هيا إياه، فإنه ـ هذه المرة ـ قد أقبل على ما تراه عيناه بشوق واهتمام، وكأنه يراه لأول مرة، وكانت هيا تحاول قدر إمكانها أن تكتم دهشتها مما تراه، فهو مختلف كل الاختلاف عما عرفته، ورأته، وعايشته طوال حياتها.

لم تلفت انتباهها الأبنية الضخمة بطرازاتها اللندنية المتميزة، قديمها وحديثها، ولا نهر التيمز بمياهه الغزيرة السائرة في طريقها بهدوء وصمت، ولا الأتوبيسات ذات الطابقين، ولا السيارات التي تأخذ اليسار في اتجاهها بدلًا من اليمين كما تعرف، فلقد كانت قد وطنت النفس على أن ترى، وتكتم دهشتها مما ترى، ولقد حدثها هشام عن ذلك كثيرًا وهو يروي لها مشاهداته في العاصمة البريطانية، ولكن الذي أدهشها حقًا هو تلك المناظر التي أشعرتها بالنفور والتقزز، لا سيما أولئك «الهيبيز» الذين

أطالوا شعورهم وأظافرهم، وبدوا وكأن أجسامهم لم تمسها مياه حمام منذ زمن طويل، وعليهم تلك الملابس الممزقة والمهلهلة التي تعد من علاماتهم المعروفة، وبعضهم قد تمدد بكل بساطة على أحد أرصفة ساحة البيكاديللي، وبعضهم كان يعزف على آلة موسيقية مستجديًا القطع النقدية الصغيرة؛ التي كان بعض المارة يرمون بها إليه، وشعرت بالدماء تتصاعد إلى وجهها حتى لتكاد تلهبه، وهي ترى إلى فتى وفتاة يتعانقان على حافة إحدى الحدائق، وكأنهما وحدهما في غرفة منعزلة غير آبهين لأحد، بل إن أحدًا لم يأبه لهما، فالناس يمرون بهما دون أن يكلفوا أنفسهم عناء إلقاء نظرة عليهما، ووجدت نفسها تتوقف على الرغم منها على مبعدة من ذلكما «العاشقين»، ولكن هشام جذبها من يدها، وقال لها بسرعة:

ـ إياك أن تتوقفي، إنهم يعدون التوقف أمام مثل هذه المظاهر نوعًا من التدخل في الأمور الشخصية للآخرين.

ـ أمور شخصية؟

هتفت هيا بسرعة، على الرغم منها، وقالت بلهجة غاضبة وهي تواصل السير إلى جانب هشام:

ـ أما كان بإمكان هذين المخلوقين أن يجدا مكانًا يتستران فيه على الأقل بدل أن يفعلا ذلك أمام المارة...؟

وقهقه هشام، وقال لها:

ـ تشبيه جميل... وتساؤل في محله... ولكن القوم هنا لا يهتمون لهذه الأشياء... إنها ليست عيبًا في نظرهم. العيب، عندهم، هو أن يتوقف إنسان ليتفرج... إنهم يعدّون ذلك نوعًا من الفضول غير المحبب.

وقلبت هيا شفتها، وهزت رأسها في غير اقتناع:

ـ إنني لا أستطيع أن أفهم هذا المنطق العجيب.

وسار هشام بها إلى أحد المقاهي وهو يقول ضاحكًا:

ـ إيه... سوف ترين من أمثال هذا المشهد، وأفظع منه، شيئًا كثيرًا، وعليك أن تتمالكي أعصابك دائمًا، وأن تمري بها دون أن تعيريها أي اهتمام، إن هذا يعدّ من علامات التحضر... أما التوقف وإبداء الدهشة فإنها دليل على التأخر، والفضول، والتدخل في أمور الآخرين.

وجلس الاثنان في المقهى، وطلب هشام فنجانين من الشاي، وهيا تفكر فيما سمعت ورأت منذ نزلا في الفندق، ووضعا أمتعتهما، ثم خرجا يتجولان، فهشام يحس في قرارة نفسه بأنه الآن في ظرف يسمح له بالاستمتاع بالمدينة الجميلة، على الرغم من الخلاف العابر الذي وقع بينه وبين زوجته لحظة أن عزما على الخروج... كانت هيا تريد الخروج بعباءتها السوداء، التي كانت تلف أعلاها حول رأسها بطريقة أنيقة، ولكن هشام رفض، وأصرَّ على أن تخلعها، وأن تخرج بثوبها الذي كان قد أتاها به من أمريكا خصيصًا لذلك.

وصعقت هيا بادئ الأمر، وصاحت به مستنكرة، فهي لم تعتد على الخروج بغير العباءة التي تفخر بها، وتعتز، وقال لها هشام مهدئًا، إنه يشاركها فخرها واعتزازها، ولكنه لا يريد لها، أن تلفت الأنظار بلباسها الغريب على تلك البيئة... وحدّثها ـ بمرارة ـ عما قاسى، وكم شعر بالتمزق، عندما وجد نفسه منذ أن غادر بلاده حائرًا ما بين التمسك بما اعتاد عليه، وما بين مسايرة الوضع الجديد الذي هو فيه، وختم حديثه قائلًا:

ـ إن ملابسك محتشمة جدًا، وما دمت قد رضيت لك أن تخرجي بها فهي إذًا مناسبة، لا تظني أنني أرضى زوجتي أن تكون نهبًا للأنظار... وعلينا أن نساير الأمور.

وجلست هيا على المقعد، وقد ارتجفت شفتاها في تأثر بطريقة

يعرفها هشام عنها، فهي مقدّمة للبكاء، أو هي بكاء مكتوم، لا سيما وأن الدموع قد التمعت في عينها، وتجمّعت في مآقيها... ثم ما لبثت أن سالت على صفحة وجهها، دون أن تصدر عنها نأمة واحدة.

وتألّم هشام، ورأى أنه قد قسا عليها أكثر مما ينبغي، وأنه كان عليه أن يمهّد للموضوع، بدل أن يطلبه منها بتلك الطريقة المباشرة المفاجئة.

واستجابت هيا لرغبته، ولكن الارتباك الشديد كان يبدو عليها، وهي تخطو إلى الشارع دون أن ترتدي العباءة، لأول مرة في حياتها، ثم ما لبثت أن شغلتها المشاهد التي رأتها: الأبنية، النهر، الشوارع، الناس، ثم... تلك المناظر الغريبة التي أثارت استنكارها، وخجلها.

وفي المقهى، جاءتهما الساقية بالشاي الذي طلباه، فراحت هيا تتطلع إليها بفضول واستغراب، ولاحظ هشام ذلك، فقال لها بلطف باسمًا:

ـ هل أدهشك أن تعمل فتاة ساقية في مقهى؟

ـ لست أدري... ولكن يبدو لي أن هؤلاء القوم لا يحترمون المرأة.

ـ آه... إنك تثيرين قضية أخذت من قبل وقتًا طويلًا في الأخذ والرد بيننا وبينهم... إنهم ينظرون إلينا نظرة لا تخلو من الاستنكار؛ لأننا نعدّ البيت هو المكان الأول للمرأة.

ـ هذا طبيعي.

ـ في نظرنا نحن... نعم... ولكن في نظرهم هم المقاييس تختلف.

ـ كيف؟

ـ إنهم، كما تعلمين، يقدمون المرأة على الرجل فيما يسمونه «الأتيكيت»، أو قواعد السلوك، ويقبلون يدها تعبيرًا عن احترامهم و...

ـ ويدعونها تعمل ساقية في مقهى يؤمه آلاف الناس.

ـ إنها من المتناقضات التي لا نستطيع أن نفهمها... فهم يعدونها طبيعية ونحن نعتبرها عكس ذلك.

ـ أرجوك... أريد أن أعود إلى الفندق.

قالت هيا ذلك في ضيق واضح استلفت انتباه هشام، فلم يجد بدًا من مسايرتها، فوضع ثمن ما طلباه على المائدة، ثم خرجا متوجهين سيرًا على الأقدام إلى الفندق، وقد بدا على وجه هيا السهوم والوجوم، وأدرك هشام ما بها، فلم يتبادلا كلمة واحدة خلال الطريق.

وفي غرفة الفندق، راح هشام يربت على شعرها الطويل المتدلي في موجات طائشة على كتفيها، وراح يحدّثها:

ـ لا أريدك أن تنفري هكذا من المجتمعات الغريبة عنا... ولا تتصوري أن المجتمع الإنجليزي بالذات كله من «الهيبيز» الذين رأيناهم... إن لهم نظرة خاصة إلى ما يسمونه الحرية الشخصية... وهم لا يتدخلون فيها إلا إذا أدت إلى إيذاء أحد... أو الاعتداء على الحقوق العامة أو الخاصة... ولكن لهم بالمقابل تقاليد محترمة، بعضها يبلغ درجة التزمّت الذي لا يتصوره العقل.

ـ أنا لا يهمني سوى ما أراه بعيني. وما رأيناه في الشارع لا يدعو إلى الارتياح... ولا يمكن أن يقبله إنسان يزعم أنه متمدّن.

ـ المسألة مسألة وجهات نظر كما قلت لك... ونحن لا شأن لنا بهم على أية حال... وكل ما يهمني هو ألا تنزعجي، وأن تستمتعي برحلتك.

٧٣

عندما استقرا داخل الطائرة المتوجهة إلى الولايات المتحدة، كان هشام يحس في داخله بشيء من الامتعاض، وعدم الارتياح، فلقد

أصرت هيا على أن يختصرا مدة إقامتهما في لندن، وأن يتوجها بأسرع وقت إلى مقر دراسة زوجها.

وقالت له بلهجة أقرب الى التوسل:

أرجوك يا هشام أن تفهمني... إنني أقدر لك عنايتك، واهتمامك بي... وأشكر لك رغبتك في أن نقضي في لندن أسبوعًا كاملًا لكي نراها، ونتجوّل في أرجائها، ولكنني لا أشعر بالارتياح في هذه المدينة... إنني لا أستطيع ولا أرغب، في أن أغيّر ما اعتدت عليه... إنني لم أستطع أن أهضم، قط، ما شاهدت، إن لندن أكبر من حائل دون شك... بل هي أكبر من أية مدينة في المملكة... هذا صحيح... ولكننا في بلادنا نشعر بالطمأنينة والارتياح... لنا تقاليدنا، ونظم حياتنا، وطرق تصرفاتنا، وهي ـ في نظري ـ الأسلم والأفضل... إنني أرى على وجهك أنك لا تؤيدني تمامًا... وتؤكد علي بضرورة التكيف مع هذه الأجواء الجديدة عليّ... ولكنني مع رغبتي في عدم مخالفتك أقرر لك أنني كنت أشعر وكأنني أكاد أختنق كلما سرنا في الهواء الطلق في لندن.

وربت هشام على يدها ملاطفًا، وقال لها:

ـ كما تريدين، لقد أردت أن نستمتع معًا بزيارة هذه العاصمة التي يسمونها: مدينة الضباب، فلقد كنت أشعر في زيارتي السابقة لها أنه لا يجوز لي أن أسمح لنفسي بالاستمتاع بشيء مما أراه فيها، لأنك لم تكوني بجانبي، والآن وقد أصبحنا معًا، فإنني كنت أحاول أن أعوّض ما فاتني في المرة الماضية، أما وأن وجودك هنا لا يسرك كما كنت أتوقع، فليكن... سأحجز غدًا على أول طائرة متجهة إلى أمريكا.

ووقف الحوار بينهما عند هذا الحد، ولم يعودا إلى الحديث عنه، بل إن هيا اكتفت بأن أشرق وجهها بارتياح حين جاءها في الغد، وقدّم لها تذاكر الطائرة، وعليها الحجز المطلوب.

وكان لدى هشام الكثير مما يريد أن يقوله لها إزاء موقفها ذاك؛ ليشعرها أنه يقدّر ما تشعر به؛ لأنه سبق أن عانى منه، ولكنه كان يتمنى ـ في رأيه ـ لو أنها استفادت من تجربته، ووفرت على نفسها متاعب المعاناة، ما بين أسلوب معين من الحياة اعتادت عليه، وما بين أسلوب آخر يترتب عليها أن تعايشه، وتتكيف معه طوال مدة الابتعاث.

واختلس هشام نظرة إليها، وقد أسندت رأسها إلى مقعد الطائرة وعيناها مغمضتان، ثم تنهّد في استسلام، وأغمض عينيه هو الآخر. . . فإن عليه أن يوطن النفس على احتمال هذا النوع من الخلاف إلى أن تألف هيا الجو الجديد الذي ستعيش فيه، وعندها سوف تتغير ـ كما يتوقع ـ بصورة تلقائية.

٧٤

ولكن ما توقعه هشام لم يتحقق.

فلقد تبين له بعد أن وصلا إلى منزلهما في «لانسنغ»، وهو المنزل الذي كان قد أعده قبل سفره، أن هيا ترفض الاندماج في الحياة الجديدة التي أخذها إليها.

لقد أعادت هيا إلى حياته ما كان ينقصه، وهو وجودها هي نفسها إلى جانبه، وإشرافها على شؤونه، وإعدادها للمآكل المفضلة لديه، وتهيئتها للجو الحميم الذي كان يسود بيتهما في حائل، ولكنها ـ أبدًا ـ لم تتجاوب معه كلما عرض عليها أن تغير شيئًا مما اعتادت عليه.

ولأول مرة، منذ زواجهما، يقع بينهما خلاف حاد، يتشبث كل منهما فيه بموقفه، وذلك عندما أبلغها بأنهما سيسهران تلك الليلة في منزل أحد زملائه المبتعثين السعوديين المتزوجين، فلقد أصرت على أن ترتدي ملابسها الطويلة التي اعتادت عليها، وتلفّ رأسها بشال أسود.

وقالت له بلهجة مداعبة:

- يكون في علمك... أجلس أنا وزوجة زميلك هذا في غرفة، وتجلس أنت معه في غرفة أخرى.

وشعر هشام بالغيظ، وقال لها بشيء من الحدة:

- يا بنت الناس افهميني... سوف يضحكون علينا.

- يضحكون أو ما يضحكون، هم أحرار... وإلا فأنا أفضل أن أبقى.

- وهذه الملابس التي ترتدينها؟

- ما لها؟

- هل رأيت منذ وصولك إلى هنا امرأة تلبس مثلها؟

- هذه هي الملابس التي اعتدت عليها... فجسدي ملك لزوجي فقط... وعلي أن أخفيه بهذه الملابس كما تعودت.

وفتح هشام فمه يريد أن يتكلم، ولكنه أطلق زفرة حرى تدل على الغيظ الشديد، وقال لها بلهجة أقرب إلى التأنيب:

- أين الملابس التي اشتريتها لك في لندن؟

- إنها موجودة طبعًا.

- ألم تعجبك؟

- جدًا.

- لم لا ترتدين شيئًا منها في زيارتنا هذه؟

- إنها قصيرة بعض الشيء... ولا أستطيع ارتداءها إلا في المنزل.

وصمت هشام، إذ لم يشأ أن تصدر عنه كلمة تجرح زوجته، فهو يدرك الأسباب والخلفيات التي تجعل زوجته تعارضه، لأول مرة، ولكنه لم يكن يتمالك نفسه من الشعور بالغيظ؛ لإصرارها على موقفها.

وأرخى هشام رأسه على صدره واجمًا، فاقتربت منه هيا، وجلست على مسند المقعد، وقالت له بلطف:

ـ زعلت مني؟

ـ أبدًا... ولكن تصرفاتك هذه!!

ـ ما لها؟

ـ إنها... إنها، بصراحة، تغيظني.

ـ وهل فعلت أو قلت ما يخالف واجبي كزوجة؟

ولم يتمالك هشام نفسه، فضحك على الرغم منه، ولكنها ضحكة المغلوب على أمره؛ الذي لا يعرف كيف يوضح لها الأمور.

وبالمقابل، لم يكن عليها مأخذ يبرر غضبه، فهي ـ من قبل ومن بعد ـ زوجته الحبيبة التي طالما افتقدها، وهو في بلاد الغربة.

وقال لنفسه:

ـ لعلها تحتاج إلى وقت أطول كي تقتنع... وتتكيف مع هذا الجو.

وتنهد في استسلام.

وضحكت هيا لتنهده هذا، فإن معنى هذا أن الموضوع قد انتهى، فقال له:

ـ شفت؟... إنك توافقني في قرارة نفسك.

ـ خلاص... انتهينا.

ـ هل رضيت؟

ـ أرجوك... دعيني الآن.

ـ أكرر... هل رضيت؟

ـ أجل... رضيت.

ـ إذًا اسمع... أريد منك شيئًا.

ونظر إليها متسائلًا... لأن لهجة الحماسة التي قالت بها جملتها الأخيرة قد أثارت استغرابه.

وأردفت هيا تقول:

ـ أريدك أن تأتيني بكتب وتسجيلات لتعليم اللغة الإنجليزية... أنت تعرف أنني قد درست هذه اللغة في «التوجيهي»؛ ولذا فأعتقد أن بإمكاني أن أستأنف دراستها بسهولة... طبعًا لا أريد أن آخذ من وقتك كي تعلمني أنت... فقط أريد منك أن تأتيني بالكتب والتسجيلات... وسوف ترى النتيجة بنفسك.

وابتسم هشام في سعادة، فقد نسي غضبه تمامًا، وومض في قرارته ذلك الشعور بالإعجاب والتقدير تجاه هذه الفتاة ذات الروح العالية... والتي لا تتوقف أمام الصعوبات... وهو لا ينسى، ولا ينكر، أنها هي التي كانت قد فاتحته في موضوع البعثة بعد زواجهما بزمن وجيز، ورفع نظره إليها، فرآها تنظر إليه بلهفة شديدة، وكأنها طفلة صغيرة تنتظر من أبيها الإذن بشيء.

وتناول يدها بين كفيه، وقال باسمًا:

ـ ما أدري يا هيا... هل كل البنات مثلك... أم أنك نسيج وحدك بينهن؟

وردت بمثل ابتسامته:

ـ أستغفر الله يا باشمهندس... ما أنا إلا فتاة بسيطة تحاول أن تكون جديرة بمهندس عظيم.

ثم تنهدت بارتياح، فلقد مرت الأزمة بسلام.

ورأى هشام من جانبه، أن يعتذر عن الزيارة المقررة، إذ لم يستطع أن يتصور كيف يمكن أن يذهب مع هيا إلى السهرة، ثم يطلب من مضيفه أن تبقى هيا مع زوجته وحدها.

ورفع سماعة التليفون ليتصل بزميله، وهو يقول لهيا بصوت جهد أن يكون هادئًا قدر الإمكان:

ـ أرى أن نعتذر عن عدم القيام بالزيارة.

ثم أردف بسرعة قبل أن تتألم هيا من تصرفه هذا:

ـ علينا أن ندرس مشروعك الجديد هذا... أعني مشروع تعلّمك للغة الإنجليزية، ونضع له الترتيبات اللازمة... ويمكن أن نلبي الدعوة في وقت آخر.

وراح يدير قرص التلفون وهو يتساءل في سره... ترى هل عرفت السبب الحقيقي أم لا؟ ونظر إليها، ولكن وجهها كان هادئًا، فراح يتساءل في نفسه:

ـ أتراها فهمت وتجاهلت... أم أنها صدقت المبرر الذي اختلقته لها؟

ورجح، في داخله، أن تكون قد فهمت و... تجاهلت.

٧٥

جلس هشام وحيدًا في ركن من (الكافتيريا) التي كانت تغص بالطلبة من الجنسين، ومع أن الضوضاء، وأصوات الملاعق والأطباق، وصوت الموسيقا المنبعث من (الجوك بوكس) يكاد يصم الآذان، إلا أن (هشام) كان مشغولًا تمامًا عما حوله، ولا يكاد يسمع منه شيئًا.

كان يحاول ترتيب أفكاره، والتوصل إلى رأي أو موقف فيما كان يعدّه «مشكلة» لم يحسب لها حسابًا.

كانت هيا، هي مدار تفكيره.

إنه يشعر، في قرارة نفسه، أنه قد بدأ يضيق أكثر فأكثر بتصرفاتها؛ التي أصبحت، ولأول مرة منذ أن تزوجا، تسبب شيئًا من الخلاف،

والجدل بينهما. . . فهي تصر على موقفها تجاه كل محاولة منه لإقناعها بأن تتكيف ولو بعض الشيء مع الجو الذي تعيش فيه. كان يعتقد أن التجربة التي مرّ بها قبلها، ستجعله قادرًا على أن يأخذ بيدها لاتقاء المواقف المحرجة والمؤلمة التي واجهها عندما وجد نفسه في هذا الجو الغريب عنه، ولقد بذل جهدًا عظيمًا للتكيف، والتلاؤم، واستطاع أن يبدو أمام زملائه وزميلاته إنسانًا طبيعيًا مثلهم، بعد أن كان يبدو لهم من قبل وكأنه قادم من عالم آخر، يرونه غريبًا ومثيرًا للدهشة، والاستغراب.

إنه لم يتخلّ عن شيء من مبادئه الأخلاقية التي تربى عليها، واستطاع أن يمر بكل التجارب المريرة بنجاح، وإن كان ذلك على حساب أعصابه، وراحته النفسية، واستطاع أن يقاوم كل المغريات التي تعرّض لها، والتي يعدّها منافية لأخلاقه، وتربيته، وأن يفرض موقفه هذا على جميع الزملاء والزميلات، وأن يجبرهم على قبوله كما هو، إلا أن هذا لم يمنعه من مشاركتهم نشاطاتهم، وحفلاتهم، ورحلاتهم، خلال الفترة السابقة، حتى توصل إلى الأسلوب السليم للتعامل معهم بشكل لا يثير فيهم أية دهشة كما كان يحدث بادئ الأمر.

ولقد حاول أن يجعل هيا تبدأ من حيث انتهى هو، وأن تتصرف في هذا البلد الغريب عنها حيث تكون تصرفاتها طبيعية. . . ولكنها ـ ويا للأسف ـ تأبى ذلك، وتصر ـ كما كان يصر في البداية ـ على التقيد بما نشأت عليه، وما كان يسبب له ما يراه إحراجًا جعله ينقطع عن كثير من الزملاء والزميلات، وأن يقضي معها أغلب الأمسيات في المنزل، مع أنه كان يأمل في أن يعوضها عن بقائها وحيدة طول النهار، بسهرات يقضيانها في مطاعم، أو مقاهٍ، أو زيارات لبعض الزملاء، أو مشاركة في إحدى الحفلات. إنها لم تكن تمانع في ذلك، ولكنها كانت تتمسك بارتداء ملابسها على النحو الذي اعتادت عليه.

وبالأمس فقط، تفاقم الخلاف بينهما حول هذا الأمر على نحو فاق

كل ما سبق، وكان هذا هو سبب جلوس هشام ـ الآن ـ مهمومًا يفكّر.

كانا قد اتفقا على الخروج مساء، وغاب هو في الكلية طوال اليوم، وعاد في آخر النهار ليذهبا معًا إلى حفلة أقامها بعض الزملاء.

ونظر إليها بدهشة، إذ رآها، وقال لها بصوت حاول أن يكتم رنة الغضب فيه قدر الإمكان:

ـ ما هذا؟

ـ ماذا؟

ـ شعرك.

ـ ما له؟

ـ ألا تدرين؟ ما هذه اللفة التي تضعينها على شعرك.

ـ ما بها؟

سألته بهدوء تام، دل على أنها تدرك مغزى سؤاله، ولكنها تتجاهله عن قصد لعلّه يفهم مقصدها.

ـ إنك ستكونين موضع سخرية بهذا اللباس!

ـ أتظن ذلك؟

ـ ماذا تظنين أنت إذًا؟

واقتربت هي منه، وأمسكت بذراعه، وقالت له بلطف شديد:

ـ أصغ إليّ يا حبيبي... أنا امرأة اعتادت على نمط معين من الحياة... من القيم... وملابسي هذه هي جزء من حياتي، وقيمي... إنني لا أشاركك الرأي في أنني سأكون موضع سخرية بذلك. أنا أعتقد العكس... وإنهم سيحترمون فيّ احترامي لقيمي، وكان يمكن أن أكون موضع سخرية فعلًا لو أنني لبست كما يلبسون... فأكون بذلك كالغراب الذي ما أصبح طاووسًا، ولا بقي غرابًا... هل تفهمني يا هشام؟

وصاح هشام بغضب مفاجئ:

ـ لا . . . لا . . . لا أفهمك. ولا أريد أن أفهمك. . . أنا لم أكن أظن أنك معقدة بهذا الشكل. . . إنك ستجعلينني موضع سخرية بآرائك هذه. . . ألا يكفي أنهم ما زالوا يعتقدون أننا بدو جاؤوا من الصحراء؟

ـ وماذا في ذلك؟ نحن فعلًا بدو. . . ومن باديتنا نبع أساس حضارتنا. . . إننا نأخذ من حضارتهم ما يفيد، وليس كيفما اتفق. . . هل نسيت، أنت، مواقفك التي رويتها لي عندما كنت وحدك هنا قبل أشهر؟

ـ ولكنني عانيت كثيرًا كما تعلمين.

ـ وانتصرت.

ـ وها أنت الآن تريدنني أن أعود إلى نقطة البداية، ليتهامس القوم فيما بينهم عن زوجتي التي تأبى أن تتصرف، وتلبس، مثلهم. . . بصورة حضارية.

واتسعت عينا هيا بذهول، وانهمرت الدموع من عينيها، وقالت بلوعة وألم:

ـ هشام. . . أنت تقول هذا؟ هل تسمي احتشامي. . . همجية. . . أو عدم حضارة؟

ـ أنا لم أقل ذلك.

وهرعت هيا إلى غرفة النوم، وأغلقت بابها عليها، وارتمت على السرير لتطلق العنان لدموعها، وليصل صوت بكائها إلى هشام الذي فوجئ بحركتها هذه، فجمد في مكانه مشدوهًا بادئ الأمر، ثم تهالك على كرسي، ووضع رأسه بين كفيه، وقد انتابه أسف عظيم، فهو لم يكن يتوقع، ولم يكن يريد، طبعًا، أن تصل الأمور إلى هذا الحد. . . ولكنه كان يشعر بالغضب لإصرار هيا على مخالفته في كل ما يتعلق بهذه المسألة.

ونهض واقفًا، ثم اتجه إلى غرفة النوم، فوجد هيا تنهنه في بكاء صامت، وقد وضعت منديلها بين أسنانها.

وقال لها برفق:

ـ أنا آسف.

ـ لم أكن أتوقع أن أسمع منك هذا الكلام يا هشام... هذا آخر ما كان يخطر ببالي.

ـ أكرر أسفي... وحقك عليّ... والآن هلّا أبدلت ملابسك لنذهب إلى الحفلة؟

ـ ولكن.

ـ أرجوك.

وعاد الغضب يجتاحه مرة أخرى، فقال لها بلهجة وعيد:

ـ سأذهب وحدي.

ـ مع السلامة.

وفعلًا ذهب وحده، ولكنه ظلّ كئيبًا طوال الوقت، فقد كان نهيًا ما بين تأنيب الضمير على ما تسبب به من ألم لزوجته؛ التي لم ير منها إلا كل ما يريد أي زوج من زوجته من محبة ورعاية، وبين الغضب الجامح بسبب إصرارها الشديد على التمسك بموقفها.

ولم ترق له الحفلة، وهو يتذكر أنه ترك زوجته والدموع تنهمر من عينيها، فغادر المكان وعاد إلى الشقة ليجدها جالسة وراء طاولة المكتب تتابع دروس اللغة الإنجليزية.

وابتسم على الرغم منه، لا سيما حينما رفعت عينيها عن الكتاب، وأوقفت آلة التسجيل التي كانت تصغي إلى الدروس منها، وابتسمت، وقالت له بلهجة مرحة، وكأن شيئًا لم يكن:

ـ الحمد لله على السلامة.

وقال لها بشيء من الاستغراب:

ـ ما إنتي زعلانة مني؟

فقالت، والابتسامة لا تزال على شفتيها:

ـ إيش الفايدة من إني أزعل وبعدين نرجع نتصالح؟... قلت: أختصر الطريق، وأنسى ما حدث.

وبالفعل بدا عليها وكأنها نسيت ـ أو تناست ـ ما حدث... فقد نهضت على الفور، وراحت تعد له العشاء؛ بعد أن ذكر لها أنه لم يتناوله في الحفلة، وأنه عاد لشعوره بالضيق.

وكان ما يؤلم هشام، وهو في جلسته في الكافيتيريا، مستعيدًا ذاك الذي حدث قبل أيام، أنه لم يتوصل إلى حل لهذا الشيء الذي عدّه «مشكلة»، والذي بات هو العنصر الوحيد الذي ينغّص عليه حياته. ففي جميع الأمور كانت هيا تبدو له في أحسن حالاتها، تبدي له المحبة، والطاعة، والرعاية. وتهتم بأموره، كبيرها وصغيرها، كعادتها منذ أن تزوجا، وتأبى له أن يخرج إلى الكلية قبل أن تلقي نظرة متفحصة على ملابسه؛ لتتأكد من أن كل شيء على ما يرام، وكانت تقول له مداعبة، وهي تسوي وضع «الكرافتة» أو المنديل:

ـ أبغاك تكون أحلى واحد في الكلية، علشان البنات يحبوك، وبعدين يزعلوا لما يعرفوا أنك لي أنا وحدي بس.

وتعقب عبارتها بضحكة سعيدة، ثم تناوله حقيبة أوراقه وتدعو له بالسلامة والتوفيق.

وتنهّد هشام، وهو يصل بأفكاره إلى هذا الحد، ورشف آخر رشفة من قدح الشاي الذي أمامه، ثم نهض، وسار متجهًا إلى الفصل وهو لا يخلو من الشعور بالانزعاج؛ لأنه لم يصل إلى رأي، أو موقف، ذلك أنه لم يكن يتصور أن زوجته التي أحبته ذلك الحب كله تقف، وفي مثل عناد النمرة الشرسة، موقفًا سلبيًا كلما أرادها أن «تندمج» في المجتمع الجديد الذي يعيشان فيه.

كانت هيا تتنقل ما بين المطبخ وغرفة الطعام، وهي تعد العشاء صامتة على غير عادتها، وكان هشام يرقبها محاولًا أن يلتمس على وجهها الساكن أي تعبير ينبئه عما يعتمل في صدرها، ولكنه أخفق... وكان تحفظها هذا شيئًا جديدًا لم يألفه... فمن قبل كانت هيا تؤدي المهمة ذاتها، وهي تدندن بصوت خافت بإحدى أغنياتها المفضلة، وتعلّق بين المقطع والآخر من الأغنية تعليقًا مرحًا يثير ضحك هشام، أما اليوم فقد كانت تبدو مشغولة البال بشيء؛ لدرجة أن هذا «الشيء» قد أنساها طريقتها المحببة في إعداد المائدة.

وحتى عندما بدأا يتناولان الطعام، كانت هيا صامتة، لا تتكلم إلا باقتضاب جوابًا على أسئلته، ولكن الأمر الذي حار له هشام كثيرًا، أنه لم يكن يبدو عليها أنها غاضبة أو منزعجة، أو أن في نفسها تجاهه شيئًا.

وحين جلسا يحتسيان الشاي في ركن الغرفة أمام التلفزيون، كعادتهما، كان انتباهها ـ على ما يبدو ـ منصرفًا إلى الشاشة الصغيرة أكثر من انصرافه إليه.

وشعر هشام بالقلق، فقد كان لديه ما يقوله لها، وهو واثق من أن ما يقوله سوف يثير بينهما النزاع المعتاد، وكان يأمل في أن يبدأ الحديث بداية مرحة لعله يتوصل إلى إقناعها، ولكن صمتها وتحفظها جعلاه يحاول أن يعرف سببهما متناسيًا الموضوع الذي أراد أن يفاتحها به.

وتكلّم أخيرًا، فقال بعد أن تنحنح عددًا من المرات:

ـ ما لك؟

ـ ولا حاجة.

ـ ما إنتي زي عوايدك.

ـ أبدًا، بس أنت متهيألك.

وعاد الصمت يخيم من جديد.

وأطرق هشام، وبدل من جلسته بصورة دلت على ما يشعر به من قلق، ثم نظر إليها، وقال بهدوء:

ـ ممكن تسيبي التليفزيون ونتكلم شويه؟

فاستدارت إليه بوجهها الجامد، وقالت له بمثل هدوئه:

ـ ليه لأ... تفضل.

ـ ممكن، أولًا، أعرف إيش السبب في إنك ساكتة، وعابسة على غير عادتك؟

ـ تريد أن تعرف السبب حقًا؟

ـ طبعًا.

ـ وبكل صراحة؟

ـ طبعًا... لأن الصراحة هي أساس الثقة.

ـ كما تريد.

واستدارت إليه بكليتها، وراحت تتكلم بحرارة:

ـ هل تعلم إنني كنت أحسد نفسي على السعادة التي عشنا فيها منذ أن تزوجنا؟... كنت أدعو دائمًا في سري أن يكفينا الله شرّ الحسد.

ـ آمين.

ـ وسارت أمورنا، كما تعلم، على خير ما يرام... أنت لم تقصر في إحاطتي بكل ما عندك من محبة، ورعاية، وعطف... وأنا من جهتي حاولت، قدر إمكاني، أن أفعل مثلك.

ـ صحيح.

ـ وأقول لك الحق... إنني فكرت طويلًا في هذا الذي يجري بيننا منذ أن وصلنا إلى هذه البلاد... أقول لك الحق... وأنا آسفة... إنني أحس بأن شرخًا قد أصاب حياتنا المشتركة.

ونهض هشام واقفًا، وراح يتمشى في الغرفة، وهي تتابعه بنظراتها في هدوء، ثم قال لها:

ـ عمرك أطول من عمري... هل تصدقين أنني كنت أنوي مفاتحتك في هذا الموضوع بالذات؟

ـ جائز... ولكنني، من جهتي، فكرت... وفكرت طويلًا... وحاولت أن أحدّد الخطأ الذي ارتكبته حتى بت تعاملني بعصبية... وتثور في وجهي... وتجبرني على البكاء... لقد حاولت أن أتصابر... أن أتجاهل... أن أحتمل... ولكنني، بصراحة، لم أعد أستطيع أن أحتمل أكثر من ذلك.

وتوقف هشام عن السير، وقال لها وكأن فكرة قد خطرت له فجأة على غير توقع:

ـ هل تعتقدين... أنه قد يكون من المناسب أن... أن تعودي إلى المملكة؟

وعضت هيا على شفتها، وأغمضت عينيها في ألم... وهزت رأسها قائلة في مرارة:

ـ إذًا فأنت ترى أنني قد ارتكبت من الأخطاء ما يجعلك تتخلص مني، وتضيق بي؟ شكرًا لك على أية حال.

ونهضت متحاملة على نفسها، وغادرت الغرفة وهي تكاد تترنح، وهشام ينظر إليها مشدوهًا، فهو قد فوجئ بهذه الفكرة التي نطق بها لسانه دون تفكير مسبق، كما فوجئ برد فعلها الذي طوى الجرح على الألم، واكتفى بذلك الكلام الذي كان، على رقته، أشبه بطعنة خنجر.

ووقف حائرًا برهة من الوقت، يشعر بالخجل والألم، ولا يدري ما يصنع، ثم تبعها حيث وجدها قد أخفت وجهها في بكاء مكتوم، وقال لها من غير تردد:

ـ هيا... أنا آسف... سامحيني... لقد كانت جملتي تلك هفوة جاءت بغير تفكير... إنك تملئين عليّ حياتي، هنا، وهناك، وفي كل مكان، وما كان يجوز لي أن أنطق بها.

فردت بصوت أشبه بالهمس:

ـ ولكنك فعلت.

ـ أكرر أسفي.

وراح يربت على يديها اللتين كانتا في مثل برودة الثلج، ويردد كلمات الاعتذار، وما كان أشد فرحه وسروره حين أشرق وجهها بتلك الابتسامة التي يحبها منها، والتي ترتسم على وجهها كله، وليس على شفتيها وحدهما، وقالت له بصوت لا يخلو من أي أثر البكاء:

ـ خلاص... دوشتني وأنت تعتذر.

فقال لها بفرح:

ـ يعني خلاص... صافي يا لبن؟

ـ صافي يا لبن، ولكن بشرط.

ـ هه.

ـ ألا تأتي بعد الآن على الأسباب التي جعلت هذا النكد يدخل حياتنا على غير توقع.

ـ وهو كذلك... ولكن.

ـ ماذا... هل تراجعت عن موقفك؟

لا... وإنما... هناك... هناك دعوة وجهها إليّ الدكتور باركر... وبالأصح وجهها لنا معًا... أنا وأنت.

ـ ومن هو الدكتور باركر هذا؟

ـ إنه أحد أساتذتي... وهناك مودة خاصة بيني وبينه... وقد دعانا إلى حفلة صغيرة يقيمها هو وزوجته بعد غد في بيته تكريمًا لنا.

ـ تعني أنت وأنا؟

ـ نعم، وهذا ما كان يقلقني.

ـ تعني أنك لا تريدني أن أحضر؟

ـ بالعكس.

ـ أنا من جهتي قبلت الدعوة. ولكن بشروطي الخاصة التي تعرفها.

ولم يتمالك هشام أن أطلق زفرة، وهو يقول:

ـ كما تريدين... كما تريدين... قبلت... ولك أن تستعدي منذ الآن لزيارة منزل الدكتور باركر.

ونهض وقد بدا عليه وكأنه قد يئس نهائيًا من تغيير موقفها، كما ضاق بما تسببت به خلافاتهما حول هذا الموقف من ظلال خيمت على بيتهما بصورة لم يعهداها من قبل.

٧٧

لم يتمالك هشام من الاعتراف، فيما بينه وبين نفسه، بأن هيا كانت رائعة كل الروعة بملابسها، وخاصة اللفة الأنيقة التي أحاطت رأسها بها، وتذكر في مثل ومض البرق أن هذا المنظر ـ بالذات ـ كان هو الذي سحره يوم لمحها في تلك اللحظة الخاطفة في بيت أبيها.

ولكنه كتم إعجابه في نفسه، فلعله يزيدها تمسكًا بما هي عليه بينما هو يحاول بشتى الطرق أن تلبس، وتتصرف كالأخريات في هذا البلد الغريب، والذي يعتقد بأن من الأفضل التكيف، بعض الشيء، مع أسلوب الناس في الحياة فيه.

وكانت هيا تجلس صامتة إلى جانبه في السيارة، وهما يتجهان إلى منزل الدكتور باركر، وما كانت تطمع في أن يبدي هشام رأيًا إيجابيًا في الملابس التي ارتدتها، والتي بذلت مجهودًا كبيرًا في انتقائها، فقد كان

يكفيها أن يمتنع عن انتقادها، والإصرار على ارتداء تلك الملابس التي اشتراها لها من لندن، والتي رفضت ـ وترفض ـ أن يراها بها أحد خارج بيتها.

ووصلا أخيرًا إلى البيت، ليستقبلهما مضيفهما الدكتور باركر وزوجته عند الباب، وشعرت هيا بقشعريرة باردة تسري في جسدها حين لمس الدكتور باركر يدها مصافحًا، ثم صعقت حين رأته ينحني انحناءة قصيرة، ويجذب يدها إلى شفتيه يريد أن يقبلها، فأجفلت، ثم سحبت يدها بسرعة وهي تبتسم بارتباك.

وبدا على الضيف أنه فوجئ بحركة هيا تلك، ولكنه ـ وهو الذي خبر الناس، وقابل آلافًا منهم خلال حياته في الجامعة ـ ابتسم ابتسامة هادئة، وأشار بيده إلى ضيفيه يعرض عليهما التوجه إلى الصالون.

ولم يفت هيا أن تلاحظ أن هشام قد قبّل يد زوجة مضيفه بعد أن صافحها، فشعرت بالامتعاض الشديد، ولكنها كتمت ما بها... وجلس الاثنان في الصالون.

ومضت السهرة بهدوء... في جلسة احتسى فيها الجميع الشاي، وكانت تلك لفتة جميلة من الدكتور باركر الذي استطاع أن يعرف نوعية زوجة تلميذه وضيفه، فقد انتحى بزوجته ركنًا من الصالون، وحذرها بعبارات سريعة من تقديم أية مشروبات روحية.

ودار الحديث بين هشام ومضيفيه، وكانت هيا تصغي، وتفهم معظم الحديث، ولكنها لم تكن قادرة على الاشتراك فيه بطلاقة، وإن كانت قد استطاعت أن تفهم أن زوجها كان يشرح لزوجة مضيفه سبب رفض هيا أن يقبل زوجها يدها.

وابتسمت المضيفة، وقالت بلباقة:

ـ جميل يا سيد هشام أن يحتفظ كل إنسان بعاداته، وتقاليده...

لقد ذهبنا أنا وزوجي أكثر من مرة إلى «الشرق الأوسط»... زرنا بعض بلدانه... ولاحظنا بطبيعة الحال الاختلاف الجسيم في العادات، والتقاليد، والحياة الاجتماعية بيننا وبينكم.

وردّ هشام شاكرًا لها ملاحظتها اللبقة تلك، محاولًا أن يوضح لها مزيدًا من المعلومات عن طبيعة المجتمع المسلم، ووجوه الاختلاف بينه وبين المجتمعات الأخرى.

ومرت السهرة بسلام، بعد ذلك الإيضاح، وتناول الجميع الطعام، وقضى الضيفان بعض الوقت، ثم ما لبثا أن قفلا عائدين إلى منزلهما.

٧٨

وفي المنزل، كانت الغضبة العارمة من الطرفين.

لقد ضرب هشام المنضدة بعنف، وهو يصيح في هيا بغضب:

ـ هل هذا تصرف يليق يا ست هيا؟ تسحبين يدك من يد الرجل، وهو في مثل عمر أبيك، بتلك الطريقة عندما أراد أن يقبلها؟

ونظرت إليه هيا باستغراب، وقالت له:

ـ وهل كنت تتوقع مني أن أترك رجلًا غريبًا يقبل يدي؟

فقال هشام بسرعة:

ـ إنه في مثل عمر أبيك.

ـ آه... في هذه الحالة أنا على استعداد لأن أقبّل يده إذا كان هناك داع لذلك... ثم هل تسمح بأن تقول لي كيف تقبّل يد تلك المرأة زوجته؟.

ـ إنها في مثل عمر أمي... وهذه هي قواعد الأتيكيت في هذه البلاد.

ـ أتيكيت... أتيكيت... هذه كلمة لا أفهمها... ولا أريد أن أفهمها... يجاملون المرأة ويقبّلون يدها... ثم يتركونها للذئاب تنتهشها

وكأنها لا تمت إليهم بأية صلة؟. . . إنني أفضل غيرة أهلي وزوجي وعائلتي عليّ. . . وحرصهم على سلامتي، وكرامتي، وشرفي. . . على هذه المظاهر الخادعة التي يزعمون معها، هنا، أنهم يحترمون المرأة أكثر منا.

ـ والنتيجة؟

ـ النتيجة هي ما قلته لك. . . وأصررت على قوله. . . إنني أرجوك يا هشام أن تفهم، وتقدّر وضعي. . . أنا لا أستطيع أن أفعل مثلما تفعل الأخريات هنا، بل ولا أستطيع حتى أن أرضى عن تصرفات كهذه من قبلك أنت. . . أنت تعرف محبتي لك. . . وخوفي عليك. . . لقد افترقت عن أهل من أجلك. . . وأصبحت، أنت، كل شيء لي هنا. . . فلا تحرجني أكثر مما أحرجتني. ولا تجرحني أكثر مما جرحتني. . . أنت قاس يا هشام. . . تريد أن تصبني في هذا المجتمع كالقالب ما بين يوم وليلة، دون أن تدرك أبعاد مشاعري، وتربيتي التي ترفض كل ذلك.

وخنقها البكاء، فغطت وجهها بيديها، ثم رفعت إليه عينيها المخضلتين بالدموع، وقالت في لهجة أقرب إلى التوسل:

ـ أرجوك يا هشام. . . أرجوك لا تدفعني إلى هاوية الاختيار بينك وبين طبيعتي وأخلاقي التي نشأت عليها. . . مع أنك تعرف أنني أحبك. . . أحبك. . . هل تعرف معنى هذا؟

وشعر هشام بالألم الشديد وهو يرى نفسه في هذا الموقف، تجاه زوجته الحبيبة التي وقفت إلى جانبه بكل قواها، منذ أن ربطت الزوجية بينهما، وعبرت له عن محبتها، وإخلاصها، وتفانيها بما لا مجال معه إلى مزيد.

وجلس إلى جانبها، ووضع يده على كتفها في مودة. . . وقال لها بلطف:

ـ أنا آسف إذا كنت قد تسببت لك في هذا الألم. . . ونحن لم

نصل، على كل حال، إلى مرحلة الاختيار التي تتحدثين عنها... إنني شديد الاعتزاز بك... وأبادلك المحبة بمثلها وأكثر... ولا أعرف كل المعرفة نوعية المشاعر التي تعتمل في نفسك... وأرجو ألا تظني أنني أقل عنك تمسكًا بأخلاقنا، وتربيتنا، وتقاليدنا... كل ما في الأمر أنني حاولت أن نجاري القوم فيما لا ضرر فيه... كيلا نبدو أمامهم، كما حدث معي أول مرة، بصورة تثير استغرابهم، وتقولهم علينا.

ـ ليقولوا ما يشاؤون... ما دمنا واثقين من أنفسنا... مطمئنين إلى أننا على صواب أكثر منهم... هذه مسألة يمكن إدراكها بالحس السليم.

ـ خلاص... لك علي! منذ الآن أن أتركك على راحتك... وألا أجبرك على شيء لا ترضينه... فهل هذا مناسب؟

ولمعت ضحكة هنيئة في عيني هيا، وهي ترفع رأسها من إطراقته، وتقول له بارتياح:

ـ مناسب جدًا... وشكرًا لك يا زوجي الحبيب.

٧٩

مضت الأيام تباعًا، وقد عادت ـ خلالها ـ حياة الزوجين إلى طبيعتها الأولى، فلقد أيقن هشام من أنه لا أمل لديه في تغيير طبيعة زوجته التي نشأت على قيم معينة، يعتز بها، هو نفسه ـ أشد الاعتزاز، وما كان يريد ـ ولا يرضى طبعًا ـ أن تغيرها، أو أن تتخلى عنها، وكل ما كان يرجوه هو شيء من «التكيف» مع المجتمع الذي يعيشان فيه، وإذ أنس في هيا إصرارًا حاسمًا، يتفق مع شخصيتها القوية ذات الإرادة الصلبة، فقد رأى أن يترك هذا الموضوع للزمن، بعد أن بات عامل قلق، وهمّ، وإزعاج، بالنسبة لهما معًا.

أما هيا فقد ظلت كما عرفها وعهدها منذ أن تزوجا، الزوجة المحبة المطيعة؛ التي تتفانى في تهيئة أفضل أجواء الراحة والسعادة في البيت، بأسلوبها الفريد، وذوقها المرهف، فلقد تناست من جهتها، كل ما مضى، وعاملت زوجها كما اعتادت أن تعامله: حبًا، ورعاية، واهتمامًا، ولم تشر بشيء إلى تلك المنغصات التي وقفت فيها ذلك الموقف الصلب.

ولطالما أعجب هشام بطريقة هيا في تنظيم حياتهما، وتقسيم وقتهما، فهو لا يكاد يخرج إلى الكلية حتى تنصرف إلى أعمال البيت، والطهور، والغسيل، ثم تجلس إلى دروسها في اللغة الإنجليزية، تواصلها بهمة ونشاط لتفاجئ هشام، كل يوم، بقدر غير قليل من الكلمات الجديدة التي تعلمتها، فيصحح لها بعضها، ويزيد من معلوماتها حول بعضها الآخر، بل إنها باتت تخاطبه أحيانًا ببعض الجمل الإنجليزية... كانت في البداية تنطقها بتلعثم، وبطء... ولكنها اكتسبت مع المران قدرة على الطلاقة أكثر، فاستطاعت أن تطلب حاجياتها تلفونيًا، بالإنجليزية، بعد أن كانت تطلب من هشام أن يقوم بذلك قبل خروجه من البيت.

وذات يوم قال لها هشام بعد أن انتهيا من الغداء:

- ربنا يستر يا ست هيا... إن عندي لك دعوة إلى حفلة.

وتوقفت هيا عن جمع الأطباق عن المائدة، ونظرت إليه متسائلة، وهي تقول:

- حفلة من إياهم؟ أم حفلة بريئة؟

- بريئة طبعًا... وهل عهدتني أحضر حفلات غير بريئة؟

- لماذا تتوقع إذًا أن أرفض، أو أثور؟

- إنه احتياط فحسب.

- وما هذه الحفلة؟

ـ إنها حفلة جامعية كبرى. . . اعتادت الجامعة أن تقيمها في مثل هذا التاريخ من كل عام، وإليها يدعى جميع من تخرجوا سابقًا من الجامعة. . . أو الذين يدرسون فيها الآن. . . . أو الذين التحقوا بها حديثًا.

ـ وما الغاية من هذه الحفلة؟

ـ إنها تقليد من تقاليد بعض الجامعات الأميركية. . . والغاية من إقامتها توثيق الصلات بين طلبة الجامعة الواحدة، مهما تباعد الزمن بين أوقات دراستهم فيها.

ـ فكرة جميلة.

ـ وطبعًا دعينا، أنت وأنا، إلى هذه الحفلة، باعتباري من منسوبي الجامعة.

ـ وتريدني أن أذهب؟

ـ أجل ليش قلت ربنا يستر؟

وابتسمت هيا. وأكملت ما كانت فيه، وهي تقول:

ـ خلاص. . . نروح الحفلة يا باشمهندس.

٨٠

كان الازدحام على أشده في الساحة الكبرى للجامعة، وفي الحدائق المحيطة بها، وقد نصبت في وسط الساحة خيام كثيرة، يحمل كل منها رقم إحدى السنوات منذ الأربعينيات، فهذه خيمة عليها لوحة تحمل رقم (١٩٤٠)، وأخرى حملت رقم (١٩٥٥) وثالثة حملت رقم سنة أخرى من السنوات.

كانت كل خيمة، برقم السنة الذي تحمله تمثل إحدى دفعات المتخرجين من الجامعة، وكان بعضهم يحرصون على حضور هذا الحفل

السنوي، فهو مناسبة طيبة لتجديد صداقاتهم مع زملاء الدراسة.

وكان الملاحظ أنه كلما بعدت السنة كان شاغلو الخيمة التي تحملها أقل عددًا... بل إن بعض الخيام لم يكن يضم أحدًا... ومعنى ذلك أنه لم يحضر الحفل أحد من متخرجي السنة التي تحمل تلك الخيام أرقامها، لسبب أو لآخر، بينما كانت الخيام التي تحمل تواريخ قريبة أكثر ازدحامًا بالحاضرين.

ومضى هشام يتجول هو وهيا بين الخيام، وكانت هيا تعلّق على كل خيمة يمران بها تعليقًا مرحًا، بعد أن شرح لها هشام سر الخيام، وأرقام السنوات التي تحملها... بينما كان يرد تحيات الزملاء والزميلات الذين يمران بهم.

واقترب الاثنان من ساحة فسيحة كانت تضم بضع مئات من الشباب والشابات، وهم يرقصون معًا في مرح صاخب، وقد ارتفعت أصوات الموسيقا حتى لتكاد تصم الآذان... وتبادل هشام وهيا نظرة ذات معنى، ابتسما، كلاهما، على أثرها، وانتحيا جانبًا من المكان يرقبان المشهد الذي كان أول مشهد من نوعه تراه هيا رأي العين.

وفجأة اقترب منهما شاب من زملاء هشام في الكلية ـ وهو من إحدى بلاد أمريكا اللاتينية ـ وحياهما مصافحًا، وحين صافحته هيا، بعد تردد يسير، استبقى يدها في يده، وهو يقول لها ببساطة:

ـ هل تسمحين يا سيدتي بمشاركتي هذه الرقصة؟

وردت عليه هيا بالإنجليزية قائلة:

ـ آسفة... لا أستطيع.

وسحبت يدها بسرعة، وقد علا الاحمرار وجهها، وبدا على الشاب أنه قد فوجئ بحركة هيا وجوابها، فجمد في مكانه بغير حراك، فسارع هشام إلى القول:

ـ السيدة متوعكة قليلًا.

فابتسم الشاب، عندها، وقال:

ـ آه... إذًا أرجو المعذرة، وشكرًا.

وابتعد الشاب وهو يشعر بشيء من الخجل، إذ لم يعتد أن ترفض أية فتاة مراقصته، ولو من قبيل المجاملة، كما جرت العادة.

واصطدم، وهو يبتعد، بالدكتور باركر الذي كان يشارك في الحفل، شأنه شأن معظم أساتذة الجامعة، وكان يراقص فتاة صغيرة إحدى تلك الرقصات المجنونة التي انتشرت في ذلك الحين، بينما كانت زوجته تراقص شابًا، وقد اختلطت صرخات الراقصين والراقصات بأصوات الموسيقا، وضجيج المتفرجين، وتوقف الدكتور باركر عن الرقص، وتناول الشاب من ذراعه، وجذبه بعيدًا، وهو يقول له بصوت مرتفع ليسمع وسط ذلك الضجيج:

ـ لقد رأيت ما حدث... أظن أنك عرضت على تلك السيدة المراقصة ورفضت... أليس كذلك؟

فاضطرم وجه الشاب خجلًا، وقال له بمثل ارتفاع صوته:

ـ أجل يا دكتور.

ـ اسمع يا بني... اذهب حالًا، واعتذر لها.

فهتف الشاب بدهشة:

ـ أعتذر لها؟... كيف؟... أعتقد أنها هي المدينة لي بالاعتذار.

ـ افعل كما أقول لك... اذهب وقدّم لها اعتذارك، واحترامك... وقل لها أنك لم تكن تعرفها.

ـ أعرفها؟ ومن تكون.

ـ إنها على الأقل أول امرأة أقابلها في حياتي، وتفرض احترامها عليّ... هيا... اذهب... اذهب.

وتابع الدكتور باركر الرقص، بينما وقف الشاب حائرًا يتلفت حوله باحثًا بعينيه عن هشام وزوجته إلى أن رآهما، وقد انتحيا ركنًا في إحدى الكافتيريات المنتشرة في أرجاء المكان.

واقترب الشاب منهما بارتباك، واستند إلى كرسي كان قرب المنضدة التي جلس الاثنان إليها، وقال مخاطبًا هيا بتلعثم:

ـ آسف يا سيدتي... لم أكن أعلم.

وسارع هشام إلى القول:

ـ لا بأس... لا بأس.

واتجه الشاب ببصره إلى هشام، وقال له:

ـ قال لي الدكتور باركر أن عليّ أن أعتذر للسيدة... وأنا آسف جدًا... ولم أكن أعلم.

ورد هشام:

ـ لم يحدث شيء ذو بال، ولا داعي للاعتذار.

وراح الشاب ينقل بصره بين الاثنين، وكأن ما لديه من الكلام قد انتهى، فما عاد يدري ما يقول، وبدا عليه التردد لحظة، ثم ما لبث أن اندفع مبتعدًا ليختلط وسط الراقصين في جوهم المحموم.

أما هيا فقد فهمت مجمل الحديث الذي دار بين زوجها وذلك الشاب، ولكنها لم تفهم تفاصيله، فسألت هشام:

ـ ماذا به؟ وماذا كان يقول؟

وأجابها هشام من بين أسنانه بصورة دلت على غضب مكتوم:

ـ إنه جاء يعتذر لنا عما حدث... يبدو أن الدكتور باركر قد نصحه بذلك.

وعلقت هيا بهدوء:

ـ عظيم... لقد أدرك إذًا أنه قد ارتكب خطأ... هذه نتيجة طيبة.

ـ نتيجة طيبة؟

هتف هشام بلهجة أقرب إلى الإنكار، وردت هيا:

ـ طبعًا... وجميل أن يعرف الإنسان خطأه، ويعتذر عنه.

ـ ولكن الرجل لم يفعل شيئًا.

ـ ألم يتقدم إلي طالبًا مني أن أراقصه؟

وقال هشام بلهجة قاطعة:

ـ مفهوم... مفهوم... انتهينا.

وساد الوجوم جو الركن الذي جلسا فيه... وراحا كلاهما ينظران إلى ما حولهما، وهما غارقان في دوامة من الأفكار.

وكان الارتياح يبدو بوضوح على وجه هيا، وكأنها قد حققت إنجازًا عظيمًا، أما هشام فكان تجهمه يدل على استيائه من هذا الذي حدث، ومن تكراره في مناسبات عديدة سابقة، منذ أن جاءت هيا معه إلى هذه البلاد.

ولم يكن ذلك ليخفى على هيا، التي كانت تستطيع أن تستنتج بسهولة معنى الأفكار التي تدور في رأس زوجها.

وقالت له بصوت هادئ:

ـ هل هناك شيء سبب هذا الوجوم الذي يبدو عليك؟

ـ ليس بي شيء.

ـ أتقول لي أنا ذلك؟ أنا أعرفك جيدًا يا باشمهندس.

وابتسم هشام على الرغم منه، فإن طريقتها المحببة هذه في تحاشي الصدام بينهما، وقدرتها على التحكم بأعصابها في مثل هذه المواقف، كانا من الأمور التي تعجبه فيها، والتي يعدّها ميزات نادرة أودعها الله هذه الفتاة التي أصبحت زوجته.

وعادت هيا تقول بإصرار:

ـ هه... إنك لم تجب على سؤالي.

وحدّق هشام فيها، وهزه أنها كانت تنظر إليه بهدوء تام، ولكن بإصرار على أن تعرف جواب سؤالها:

ـ تريدين أن تعرفي الجواب؟

ـ طبعًا يا باشمهندس.

ـ اعلمي إذًا أنك قد قسوت على ذلك الشاب.

ـ قسوت عليه؟ بل قل إنني كنت غاية في الرقة... كان يجب أن أصفعه على وجهه عندما قال لي بتلك الوقاحة أنه يريد مراقصتي.

وزفر هشام، وقال بضيق:

ـ أنا لم أقل أن عليك أن تراقصيه... إنني، أنا نفسي، أرفض ذلك طبعًا، ولكن... ولكن كان يمكن أن تكون طريقتك في الرفض أقل قسوة... هذا هو كل شيء.

ـ آه... فهمت.

وأحكمت هيا وضع الشال الذي كانت تضعه على كتفيها، وعادت تنظر إلى المكان، وتراقب الجو الصاخب الذي يحيط بها.

والتزم هشام، بدوره، الصمت، وراح ينظر مثلها.

كان واضحًا أن عاصفة تعتمل داخل الاثنين، وأنهما كتماها تحاشيًا للصدام، كما كان واضحًا لهما، معًا، إن هذا الصدام لا بد وأن يقع... ربما الآن... وربما بعد زمن.

وقالت هيا لهشام بهدوء:

ـ أريد أن أعود إلى المنزل.

ونهض هشام في الحال، وهو يقول:

ـ هذا أفضل... هيا بنا.

وكأنما كان هنا اتفاق ضمني بين الزوجين على عدم التطرق إلى ما حدث تلك الليلة، وكانت لكل منهما أسبابه الخاصة... هشام كان يخشى أن يتفاقم الخلاف، وأن يصدر عنه ما يزعج زوجته التي يحب، وهيا بعقلها الراجح، وأعصابها القوية، كانت ترى أنه لا فائدة ترجى من الحديث في ذلك الموضوع، فهي قد قالت كلمتها بصورة عملية، ولم تعد ترى أن هناك حاجة إلى المزيد من الكلام.

غير أن الأمر الذي أثار انتباه هشام أن هيا قد ضاعفت جهودها في تعلّم اللغة الإنجليزية بصورة غير عادية.

كان يعود من الكلية، وما إن يفتح الباب حتى يتناهى إليه صوت آلة التسجيل التي يستخدمها هيا في دروسها، حتى إذا أطل عليها، وجدها منهمكة في متابعة الكلمات على الكتاب كأية تلميذة مجدة، فإذا ما ألقى عليها التحية... رفعت رأسها إليه... وعيناها تلمعان ببريق طفولي جميل، فتضغط بإصبعها على زر المسجل لتوقفه، وتنهض على الفور لإعداد المائدة، بينما تحاول الثرثرة أثناء ذلك، باللغة الإنجليزية التي كان هشام يلمس في كلماتها تقدمًا مستمرًا، وحين تعوزها الكلمة المناسبة تسأله بالإنجليزية عنها بكل بساطة... فيقولها لها باسمًا، ويلاحظ ـ راضيًا ـ سعادتها، وهي تقطع مراحل تعلم اللغة بنجاح كبير.

ولم يستغرب هشام هذا النجاح الذي حققته، فهو يعرف جيدًا إرادتها الفولاذية؛ التي تختفي تحت إهابها الرقيق، والتي تبدو بكل ما فيها من قوة في المواقف الصعبة، والمناسبات الحرجة.

كانت هيا، في البداية، تتلعثم، وتتلجلج في الحديث، وتداري ذلك بضحكة خجولة، وقد احمر وجهها، ولكنها ـ شيئًا فشيئًا ـ تخطت هذه المرحلة، وأصبحت تتحدث بسهولة أكثر، بل وصارت تقرأ في

بعض المجلات والقصص المخصصة للأطفال والمبتدئين في دراسة اللغة الإنجليزية.

أول مرة رآها تقرأ في تلك المجلات انفجر ضاحكًا، ولكنها نظرت إليه بهدوء، وقالت له:

ـ لا تنس، يا باشمهندس، أنني أعتبر في المرحلة الابتدائية... ولست أتوقع أن أتمكن من قراءة مسرحيات شكسبير وأنا في هذه المرحلة، ولكن انتظر... وسوف ترى بنفسك إن شاء الله.

وخجل هشام، ورمقها بنظرة مختلسة، فقد كان يخشى أن تكون ضحكته تلك قد جرحت شعورها، ولكن وجهها كان هادئًا، وانصرفت ببساطة تامة إلى البحث عن إحدى الكلمات في القاموس، ثم سجلت ترجمتها في دفترها الصغير بعناية، وتابعت القراءة بالبساطة والهدوء نفسيهما.

وقطّب هشام حاجبيه، وتمنى لو أن ضحكته قد أزعجتها فعلًا، إذ لم يكن يهزه شيء قدر أن يرى هذه الفتاة وهي تُعَبّر بشتى الوسائل عن روحها العظيمة، فهي تترفع أمام الصغائر، وتكتم ما في نفسها بقدرة غريبة، وتتصرف بصورة لا يمكن معها لأي إنسان أن يعرف ما في داخلها.

واعترف هشام، بينه وبين نفسه، ولأول مرة منذ أن رأى هيا، أنه يتمنى لو أن زوجته كانت من طراز آخر... طراز عادي، كما هو الشأن لدى معظم النساء.

كانت سيطرة عقلها على تصرفاتها تدهشه، وقدرتها على التفريق بدقة تامة بين ما يجوز وما لا يجوز تشعره بأنه قد تزوج امرأة صعبة المراس، تعرف ما لها وما عليها بوعي كامل.

وكان أشد ما يغيظ هشام، بعد أن صارح نفسه بتلك الفكرة، أنه

لم يكن لديه ما يأخذه عليها... فقد كانت نعم الزوجة المثالية؛ التي تبتكر كل يوم أساليب جديدة لإدخال السعادة على نفسه، وتبذل جهودًا كبيرة لكي توفر له كل أسباب الراحة والهناء في بيته.

كانت تفرض الصمت على البيت عندما يبدأ الدراسة، فلا تُسمع فيه نأمة واحدة.

وكانت تحيل البيت إلى ضجيج من الحيوية، والمرح في أوقات فراغه.

إنه لم يشعر يومًا أنها قد قصرت في حقه بشيء... بل العكس هو الصحيح... إنها تتفانى في رعايته، وإسعاده، ولكن.

وتنهد هشام، وهمس في سره:

ـ آه من «لكن» هذه... دائمًا تعترضني «لكن» هذه.

وعاد إلى الاسترسال في خواطره.

ولكن.

ولكن هذه الكتلة من الجمال، والرقة، والنعومة، والحب، تتحول في مثل ومض البرق إلى كتلة من الصلابة والرفض إذا ما حاول أن يجعلها تتكيف ولو بعض الشيء مع الجو الذي يعيشان فيه، مما تعدّه منافيًا لتربيتها، ومبادئها.

إنه لا يكاد يتذكر عدد المرات التي اختلفا فيها حول هذا الموضوع.

إنها كثيرة جدًا... صراخ... وغضب... ودموع... وإصرار على موقفهما... بل الأصح أن يقول هشام، أو يعترف، بأن جميع تلك المواقف قد انتهت إلى انتصارها عليه... أجل... لقد انتصرت عليه وهو الرجل... وهو سيد البيت... انتصرت عليه وهي زوجته... وهُزم أمامها مع أنه الأقوى.

ونظر إليها مرة أخرى وقد اجتاحه غيظ مفاجئ، وراح يرمقها وهي تركز نظراتها في القصة التي بين يديها، وتلفظ أحيانًا إحدى الكلمات بصوت خافت، أو تبحث عن معنى كلمة أخرى في القاموس.

ومن غير أن يشعر وجد نفسه يقول لها بحدة:

ـ خلاص... أنا ما أبغاكي تتعلمي إنجليزي.

ورفعت بصرها إليه بهدوء، وقالت له دون أن تبدو في صوتها أية رنة للاستغراب:

ـ إيش السبب؟

ولم يجب على تساؤلها، إذ لم يكن لديه في الواقع أي سبب، سوى ذلك الشعور بأنها لا تطيع رغباته كلها، وأن لها مواقفها المستقلة، حيث ترى أنه يجب الاستقلال.

ونهضت من مكانها، واتجهت إليه، وجلست بجانبه، وتناولت يده في راحتيها تربت عليها، وهي تتكلم:

ـ اسمع يا هشام... لقد قلت لك أكثر من مرة أنني شديدة الألم لهذا الذي يجري بيننا... وأكاد لا أجد شيئًا أضيفه إلى ما سبق أن قلته لك... إنني زوجتك المحبة، والمطيعة، والوفية إلا فيما يخالف ما نشأت عليه من قيم... وأنت تعلم أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق... وإذا كنت لا تريدني أن أواصل دراستي للغة الإنجليزية فليكن... سأمتنع منذ هذه اللحظة عن الدراسة... ولكنك تعلم أنني وحيدة معظم ساعات النهار، وقد وجدت في هذه الدراسة فرصتي لتغطية الوقت بشيء نافع... وكنت آمل أن توافق على أن أواصل الدراسة، وأنتسب إلى «الجونيور كوليج»، حيث لا تستغرق الدراسة أكثر من سنتين أحصل بعدها على شهادة جامعية.

ونظر إليها، فوجدها تسدد نظراتها بالهدوء نفسه الذي تتكلم به، فحوّل عينيه عنها بارتباك، وقال لها وهو ينهض:

ـ افعلي ما شئت... وأنا آسف لما بدر مني.

وإذ غاب وراء غرفة النوم، تلاشت معالم الهدوء التي كانت تبدو عليها، فأحنت رأسها على ركبتيها، وراحت تنشج في بكاء صامت.

٨٢

ـ آه... هشام؟... غير معقول... هذا أنت؟

كانت المتكلمة جين التي لم يقع بصرها على هشام منذ نهاية السنة الدراسية الفائتة، فعبّرت عن سرورها بتلك الجملة التي سبقتها صيحة فرح أطلقتها بمجرد أن رأت هشام.

كان اللقاء في أحد أروقة الجامعة، حيث كان هشام في طريقه لحضور إحدى المحاضرات.

وشدّ هشام على يدها الممدودة إليه بفرح شديد، وقال لها بسرور صادق:

ـ جين... كم أنا سعيد بهذا اللقاء... إلى أين تذهبين؟

ـ إلى الكافتيريا... لقد خرجت لتوي من المحاضرة... وأنت؟

ـ إنني ذاهب إلى محاضرة.

ـ أمر مؤسف... كان بودي أن نجلس معًا بعض الوقت.

ودون شعور منه وجد هشام نفسه يقول لها:

ـ لم لا؟... هيا بنا إلى الكافتيريا.

ـ ومحاضرتك؟

ـ لا يهم... إنني أشعر ببعض التوعك.

ـ هل أنت مريض؟... قالتها باهتمام.

ـ لا... إن التوعك هو في... في مزاجي.

وأعقب كلامه بضحكة مفتعلة، فضحكت هي الأخرى، وتأبطت ذراعه في طريقهما إلى الكافتيريا، وفي أعماق هشام شعور عميق بالأسف، فتلك هي أول مرة في حياته يُفَضِّلُ فيها شيئًا ما على واجباته الدراسية.

وجلس الاثنان في الكافتيريا، وجين تثرثر كعادتها، بينما كان هشام منصرفًا عنها، فقد أدهشه، وأحزنه، عزوفه عن الدراسة بتلك الصورة المفاجئة التي لم يكن يتوقعها، وأن يكون جالسًا هذه اللحظة مع هذه الفتاة ومكانه في قاعة المحاضرات خال... ولكنه ـ بالمقابل ـ استمر تخلصه من ذلك الشعور الثقيل بالواجب؛ الذي ظل يسيطر عليه طوال حياته، وأحس بأنه حرٌّ طليق، يستطيع أن يفعل ما يشاء.

وانتبه من خواطره على جين، وهي تقول له:

ـ كيف هي؟... ما شكلها؟

فقال لها هشام بارتباك:

ـ من هي؟

ـ آه عدت للشرود مرة أخرى... تتركني أتحدث، وتغيب بأفكارك بعيدًا عني.

ـ آسف... لن أفعل ذلك مرة أخرى.

ـ صفها لي.

ـ من؟

ـ زوجتك... كنت أسألك عن زوجتك.

ـ آه... دعينا من هذا الحديث.

وحدّقت جين فيه، وقالت:

ـ إذًا فصحيح ما سمعته عنكم.

ـ وماذا سمعتِ عنا؟

ـ سمعت أنكم تغارون على نسائكم كثيرًا.

ـ هذا صحيح.

ـ ما أبدع هذا!

قالت جين ذلك وفي لهجتها شيء من الأسف.

وسألها هشام بدهشة:

ـ هل يعجبك ذلك؟

ـ جدًا.

ـ غريب... ألا تعلمين أن وجود من يغار عليك معناه أن تفقدي كثيرًا من حريتك؟

ـ هل تظنني الآن حرة حتى تتوقع أن أخاف افتقاد حريتي؟

ـ لم أفهم.

ـ أقول لك... أنا لا أعرف كثيرًا عنكم، وعن حياتكم... ولكنني سمعت شيئًا عن ذلك جعلني أكوّن رأيًا... صحيح أن المرأة عندنا تتمتع بحرية كاملة... وهذا قد يبدو جميلًا بادئ الأمر... ولكن ما النهاية؟ إننا نلهو، ونرقص، ونفعل ما نشاء في مقتبل حياتنا... ولكن ما إن يتقدم العمر بالمرأة بعض الشيء حتى ينفض الرجال من حولها شيئًا فشيئًا؛ ولذا فإن عليها أن تكون ذكية، وتصطاد زوجها في الوقت الملائم.

وتوقفت الفتاة عن الحديث، وقد ارتسمت معالم الجدية التامة على وجهها، ولكن هشام لم يعلق بشيء، فاستطردت:

ـ جميل جدًا أن أجد رجلًا يقاتل من أجلي... رجلًا يصفعني إذا رآني مع سواه... رجلًا يشعرني بأنني له وحده... وأنه لي وحدي.

٨٣

عندما دخل هشام إلى البيت في ساعة متأخرة، وجد هيا ساهرة وقد جلست على كنبة، دون أن تواصل دراستها كعادتها، فألقى عليها السلام بصوت خافت، فردت عليه متسائلة:

ـ أين كنت إلى هذه الساعة؟

ـ كنت... كنت مع بعض الأصدقاء.

ـ أما كان بوسعك أن تتصل تليفونيًا، وتخبرني بأنك ستتأخر؟

ـ فاتني ذلك.

ـ هشام... مالك؟

وتحاشى أن تلتقي عيناه بعينيها، وهو يجيبها بشيء من الارتباك:

ـ لا شيء... لا شيء.

ـ سأحضر لك العشاء... إنه جاهز منذ فترة.

ـ لا داعي... لقد تعشيت.

ولم تقل هيا شيئًا، وأرخت رأسها في ألم، فقد بدت لها أن شيئًا ما قد تغير في زوجها، لا سيما عندما توجه إلى غرفة النوم مباشرة دون أن يقوم بأعماله الدراسية، كما كانت عادته.

والواقع أن هشام لم ينم كما اعتقدت هيا، بل عقد ذراعيه وراء رأسه، ومضى يفكر.

كان قد أمضى النهار وشطرًا من الليل بصحبة جين، يسمع ثرثرتها، ولا يصغي إليها، فقد خرج معها إلى الكافتيريا، ومنها إلى الحديقة، ثم توجها إلى مطعم تناولا فيه طعام الغداء، وبعدها توجها إلى إحدى دور السينما، ومن ثم ذهبا إلى مطعم آخر لتناول العشاء.

كانت الأفكار تصطرع في رأسه في مثل تلاطم الموج، فهو قد فعل اليوم ما لم يفعله في حياته قط... أهمل دراسته، وطرح واجباته وراء ظهره، وراح يمضي الوقت بلا مبالاة.

وفي حين أن أعماقه كانت ترفض هذا السلوك، وهو الذي نشأ على احترام الواجب، وإعطائه الأولوية على أي شيء آخر، فقد استمرأ ـ ويا للغرابة ـ هذا النوع من اللامبالاة، وارتاح إلى أن يخلي ذهنه من أي شيء.

ولم يحاول هذه المرة، أن يحلل أفكاره، ويتعرف إلى مساراتها المتشعبة، وتقبل أحداث يومه المنصرم كما هي، وهو يحاول كبت ذلك الشعور العميق بالأسف والأسى، فلقد أضاع ـ هذا اليوم ـ محاضرات يوم كامل من الدراسة.

ولم يخطر بباله أن يتساءل عما سيعقب ذلك من نتائج.

وهكذا، جذب الغطاء على جسمه، واستغرق في نوم عميق، فلقد كان نهاره ـ على أية حال ـ حافلًا، بصرف النظر عما حقق فيه، أو لم يحقق، من خطوات على طريق الهدف الذي جاء إلى هنا من أجله.

٨٤

ومضت أشهر... تغير هشام خلالها بصورة لم تعهدها هيا فيه، بل وما عهدها هو في نفسه، فلقد تحول نشاطه السابق إلى خمول، واجتهاده إلى كسل، وحماسته إلى ركود.

لقد كثر تغيبه عن المحاضرات... وأهمل واجباته الدراسية... وبات يقضي وقته في الكافتيريات، والمطاعم، ودور السينما والحدائق.

وكانت جين هي صديقته المفضلة التي لا يفارقها في معظم الأماكن التي يتردد عليها.

وكانت هيا تراقب هذا التحول الفاجع في صمت وألم، فهي قد لاحظت ذلك التغيير منذ اليوم الأول؛ الذي جاء فيه هشام متأخرًا، ثم تزايد يقينها مع ما رأته من إهمال هشام لدراسته، وقضائه أغلب أوقاته خارج

المنزل، وقلة كلامه معها، وعدم اكتراثه بأن تصحبه كما كان يفعل سابقًا.

وهكذا خيم ظل ثقيل من الهم على حياتهما، وتحولت هيا من تلك الفتاة المرحة التي ملأت المنزل شدوًا، وغناء، إلى كتلة من السهوم والوجوم، ترقب ذلك التحول في ألم، وتطوي جوانحها على ما رأت من انهيار أصاب حياتها الزوجية، ولم يكن يخطر لها على بال منذ أن تزوجها هشام، وحتى اليوم الذي جاءت فيه معه إلى هذه البلاد الغريبة.

ولقد كان حريًا بأية زوجة، غير هيا، أن تثور لهذا الوضع، وأن تعلن سخطها، وأن تطلب العودة إلى بلادها في الحال.

كان حريًا بأية زوجة أن تناقش زوجها الحساب على الأقل، وأن تسأله عن أسباب وخلفيات ذلك التحول، وأن تنبهه إلى نتائجه الوخيمة التي ليس أقلها تزعزع حياتهما الزوجية، ثم إخفاقه في دراسته وعودته إلى المملكة فاشلًا، من غير أن يحصل على الشهادة الموعودة.

ولكن هيا لم تفعل من ذلك شيئًا قط.

وكان موقفها هذا نابعًا من فهم عميق لنفسية هشام، وطبيعته، فلو أنها طلبت إليه أن يفسر مسلكه هذا لغضب، وتمسك به أكثر فأكثر.

ولو أنها حاولت أن توجه انتباهه إلى الطريق الخاطئ الذي يسير فيه، فلسوف يتحول النقاش، حتمًا، إلى شجار، ثم إلى ما هو أبعد... لأن عقلها المنظم، وأسلوبها الفريد في التصرف وصلابتها تجاه ما تراه خاطئًا، ستجعلها تقف أمام هشام بقوة... فإذا اصطدمت القوتان فمن يدري ما يحدث؟

لقد أدرك هشام، فيما بعد، أن الموقف الذي اتخذته زوجته بالتزامها الصمت، والترقب إزاء ما رأته من حاله، إنما كان وجهًا آخر من وجوه شخصيتها القوية المتميزة، وهو لا يقل عن موقفها يوم قبلت سفر زوجها وحده، ولما يمض على زواجها منه سوى زمن قصير.

وهكذا ساد التحفظ جو المنزل، وأصبح الكلام بين الاثنين نادرًا لا يكاد يتعدى بضع جمل عادية في اليوم، ووجهت هيا اهتمامها إلى دروسها بهمة أكبر، فقطعت عددًا من المراحل من مستويات الدراسة، حتى بات بوسعها أن تقرأ جريدة، أو مجلة، وأن تلم بما تقرأ بصورة كافية.

* * *

وإذ انتهى الفصل الدراسي، تسلم هشام رسالة صادرة عن الملحق التعليمي في نيويورك... وما كاد يقرؤها حتى تهالك جالسًا على المقعد وقد دارت به الأرض، بينما كانت هيا جالسة في مقعدها ترقبه صامتة.

٨٥

كانت رسالة الملحق التعليمي مقتضية، لا تزيد عن بضعة أسطر، ولكنها أحالت نور النهار في عيني هشام إلى ظلام.

«... نشير إلى المعدلات الضئيلة التي حققتها خلال الفصل الدراسي المنصرم، ويؤسفنا أن نبلغكم أن بعثتكم تعدّ لاغية، ونأمل مراجعتنا خلال أسبوعين من تاريخه لاتخاذ الترتيبات اللازمة لعودتكم إلى المملكة، وطي قيدك من كشوف المبتعثين السعوديين في الولايات المتحدة، ولكم تحياتنا...».

حدّق هشام في الرسالة بذهول، وقد غامت المرئيات أمام عينيه، وتراقصت الأسطر أمام بصره الذاهل.

إنه الإخفاق... ويا له من إخفاق.

الآمال... والطموحات... والصورة الزاهية للمستقبل... كلها تلاشت... ضاعت... لم يعد لها وجود... وعليه أن يعود إلى بلاده مهزومًا، محسورًا.

وأطرق هشام، وترك الورقة تسقط من بين أصابعه، وأطلق زفرة دلت على ما سببت له الرسالة من ألم موجع.

وغاص قلب هيا بين ضلوعها، وشعرت بالخوف، فقالت لهشام بصوت مرتجف يهزه القلق، والتوجس:

ـ خير يا هشام... إيش فيه؟

ولم يجب هشام، وظل رأسه ملقى على صدره في انكسار.

كان يشعر بخجل شديد، لم يتمكن معه من أن يرفع رأسه خشية أن تلتقي عيناه بعينيها.

ونهضت هيا وهي تكاد تترنح، والقلق قد أخذ منها كل مأخذ.

وبيد مرتجفة تناولت الورقة الملقاة على الأرض، وود هشام لو يمنعها من قراءتها، لولا أن قواه كانت قد خارت بشكل لم يعد يستطيع معه أن يقوم بأية حركة.

وبنظرة متلهفة ألمّت هيا بمحتويات الرسالة، فشعرت وكأن هوة قد فغرت فاها لتبتلعها وهشام، وتبتلع معها كل الآمال العراض التي عاشت على تهاويلها؛ منذ أن طرأت فكرة البعثة على بالها.

وترنحت في إعياء، وبذلت مجهودًا خارقًا حتى استطاعت أن تحرّك ساقيها، وتتجه إلى مقعدها لتتهالك عليه، وقد جثم جبل هائل من الهم والحزن على كتفيها.

هذه هي النهاية إذًا؟

والزمن الذي قضاه هشام، ثم هيا، قد ضاع هباء.

إنه الإخفاق... إنه الضياع... فما عاد في وسع هشام أن يرفع نظره إلى أحد من أهله.

وتصورت هيا أي وقع صاعق للنبأ على أهله وأهلها، ثم على

رؤساء هشام الذين محضوه ثقتهم، وهيؤوا له هذه البعثة لكي يرفع من مستواه العلمي، والوظيفي.

وارتجفت شفتاها بطريقتها التي تعبر بها عن ألمها، وودت لو سمحت للدموع التي تجمعت في مآقيها أن تنساح على صفحة وجهها؛ لعلها تخفف شيئًا من الشعور الأليم الذي انتابها.

ولكن الدموع تحجرت، بقوة إرادتها، والألم ظل حبيس القلب، والروح، والوجدان.

ـ فلنحاول مرة أخرى.

همست بهذه الجملة بصوت مرتجف على الرغم مما بذلت من مجهود؛ لكي يبدو طبيعيًا، وهادئًا.

ـ نحاول؟... نحاول إيش؟... ما خلاص... الخطاب صريح... إنه إنهاء للبعثة... وأمر بالعودة إلى المملكة.

ـ ولكنني أعلم أن هناك مجالًا لإعادة السنة والمحاولة من جديد.

ـ هذا يحدث عندما تكون التقديرات في مستوى معين من الضعف... أما بالنسبة لي فإن التقديرات شيء... شيء مخجل لا يبشر بأمل.

ونظرت إلى الورقة المرفقة بخطاب الملحق التعليمي، وجرت بعينيها عليها في عجلة، ثم قالت في نفسها «حقًا... شيء مخجل... أقصد... مؤسف فعلًا...».

ثم قالت بصوت مسموع:

ـ لا بد وأن نجد طريقة.

ـ يمكن أن نجد طريقة في أي شيء إلا هذا... الأنظمة صريحة، والتعليمات واضحة... لقد بعثوا بي لكي أحقق نتائج مشرّفة... لا هذه النتائج المخزية.

ـ هدئ من روعك، ودعنا نفكر بهدوء؛ لكي نتمكن من أن نجد طريقة مناسبة.

وفي هذه اللحظة رن جرس التلفون، فلم يتحرك هشام الذي اعتاد، قبلًا، أن يرد بنفسه:

ـ التلفون.

قالت هيا.

وتكرر الرنين دون أن تبدو على هشام رغبة في الرد، فقد أشار بيده في حركة تدل على عدم الاكتراث عندما كررت هيا تنبيهه. فلم تجد بدًا من الاتجاه إلى التلفون، ولم تكد ترفع السماعة حتى أتاها صوت فتاة:

ـ مستر هشام هنا؟

ـ وبكل هدوء أجابت هيا:

ـ نعم... لحظة واحدة.

وعادت إلى مقعدها، وهي تقول لهشام:

ـ التلفون لك يا هشام.

ونهض هشام متثاقلًا، ورفع السماعة، ولم يكد ينطق بكلمة «هالو» حتى جاءه صوت جين قائلة له:

ـ هيا... كيف حالك؟... سهرتنا الليلة في...

ولكن هشام قاطعها بسرعة قائلًا:

ـ آسف... لا يمكنني المجيء.

ـ ولكن.

ـ كما أقول لك... باي باي.

ووضع السماعة في الحال، وعاد إلى مقعده، فتهالك عليه، وراح يفكر فيما هو فيه، بينما نظرت هيا إليه في صمت، وقد ومضت في ذهنها فكرة... أترى هذا الموقف الذي وقفه من المتحدثة على التلفون هو

أول دليل على أنه قد بدأ يعي مقدار الخطأ الذي ارتكبه، وعزم بالتالي على أن يسلك الطريق الصحيح إلى إصلاحه؟

٨٦

في صباح اليوم التالي كان تصرف هشام مختلفًا كثيرًا عما كان عليه قبل أن يتلقى خطاب الملحق التعليمي.

فخلال الفترة التي انقضت منذ أن امتنع، لأول مرة، عن الذهاب إلى المحاضرة، وحتى يوم أمس، كان يتصرف وكأن شيئًا ما لا يهمه، فهو يولي عنايته التامة لهندامه قبل أن يخرج، ودون أن ينتظر هيا لكي تتفقده، كما كانت تفعل.

ولم يكن يولي كثير اهتمام لكتبه، ومراجعه، وأدواته قبل الخروج، كما كان يفعل من قبل، إذ كان واضحًا أن ذهنه متجه إلى ما سوف يفعله في يومه، من الذهاب إلى مكان، أو تفضيل آخر، فما كان حريصًا على استكمال ما يأخذه معه؛ كما كان يفعل في حياته الدراسية الأولى عندما كان يضع أوقاره، وكتبه في حقيبته بعناية، ويشغل بالتفكير في موضوع من مواضيع الدراسة.

أما اليوم... وخطاب الملحق التعليمي ما زال في مكانه على الطاولة كما تركه بالأمس، فقد نهض في تثاقل، ووجوم، وبعد أن ارتدى ملابسه عاد إلى الخطاب يلقي نظرة عليه، وكأنه لا يصدق ما احتواه من عبارات تؤذن بهدم آماله وآمال زوجته كلها.

ولكن الخطاب كان واضحًا صريحًا، وعليه أن يواجه هذه المشكلة التي تسبب بها نتيجة لخروجه على ما اعتاد عليه من جد، واجتهاد، وعناية بدراسته، وجامعته.

وكانت هيا تراقبه في صمت، ولم تتبادل معه سوى عبارات قليلة،

ولكن رنة صوتها، وصفحة وجهها تدلان على عطف شديد، وتفهم عميق، وحرص على مشاركته ما هو فيه.

وحين قال لها أنه سيخرج لساعة أو ساعتين، ويعود سريعًا قالت له في لطف:

ـ خد راحتك... المهم ألا نترك هذا الحادث يعطل تفكيرنا، ويمنعنا من تلمس سبيل الخلاص.

وارتسمت ابتسامة باهتة على شفتيه تدل على أنه يدرك أبعاد الإخفاق الذي حدث، وأنه لا يرى وسيلة أخرى غير أن يعدّا حقائبهما، ويعودا من حيث أتيا.

وخرج هشام متثاقلًا، وهيا ترقبه في عطف وألم، ولم يكد يغلق الباب وراءه حتى سارعت إلى الخطاب في لهفة، وركزت نظراتها على أرقام التلفونات المطبوعة في أعلاه، ثم رفعت السماعة، وأدارت القرص بأحد تلك الأرقام.

٨٧

جلس هشام في مقعد منعزل في إحدى الحدائق، وقد استغرق في تفكير عميق.

كان الخجل والخزي يلفانه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

كان كمن صحا من نوم ثقيل، أو من غيبوبة طويلة، فراح يجيل بصره فيما حوله مستغربًا، وكأنه يراه لأول مرة.

لم يكن يصدق أن تلك العبارات التي تضمنتها رسالة الملحق التعليمي تعنيه هو بالذات، بعد أن قطع مراحل دراسته بنجاح طول حياته، وحقق دائمًا معدلات عالية، ونتائج ممتازة.

ولكنها الحقيقة، ويا للأسف.

إنه هو المقصود بالرسالة، وهو الذي أنهيت بعثته لعجزه عن تحقيق حد أدنى من النتائج.

إن الجهات المختصة لا تعمد إلى هذا الإجراء إلا إذا كانت نتائج المبتعث في حالة ميئوس منها، حيث يصبح استمراره في البعثة نوعًا من إضاعة الوقت.

أهو وصل، أو انحدر، إلى هذا المستوى؟

وكيف يستطيع أن يعود إلى بلاده بتلك النتيجة المخجلة، وبم يبررها يا ترى؟

أيقول لأهله، ورؤسائه، وأصدقائه أنه قد استسلم للتيار يجرفه، ويهدم آماله لمجرد انسياقه معه، وهو الذي كان فخورًا بما حقق من صلابة وثبات أمام كل ما واجهه عندما بدأ بعثته أول مرة؟

وهيا.

آه ما كان أروعها وهي تتقبل النبأ الصاعق بشجاعة وهدوء، فلا تسمح للصدمة أن تحولها عن ثباتها، أو تعطل تفكيرها، فتقول بثقة أنهما سيجدان طريقة لمواجهة هذا الموقف.

مسكينة كم احتملت من الألم الصامت، وهي تراه سادرًا في لهوه وعبثه، فتوجّه إليه اللوم بصمت يطل من عينيها، ولا تسمح للسانها أن ينطق كلمة واحدة تزعجه.

أتراه كان، حقًا، ساخطًا على موقفه الصامد من كل محاولاته لإجبارها على التكيف، مع ما لا ترضاه من قيم هذا المجتمع الغريب عليها؟... أم إنه ـ يا ترى ـ قد اتخذ من هذا السخط ذريعة يطلق معها العنان لنفسه، ليهمل واجباته، ويقضي أوقاته ما بين الكافتيريات، والحدائق، والمطاعم، ودور السينما؟

ـ إنني... إنني.

وحاول أن يجد أقسى وصف يمكن أن يطلقه على نفسه وهو في حالته تلك، فلم يجد... كان ذهنه مشتتًا، موزعًا، وضميره مثقلًا بالخجل، بل الخزي، لما جنت يداه، وما اقترف.

والآن... ما العمل؟... ما العمل؟

وأحس أنه عاجز تمامًا عن أن يجيب على هذا التساؤل.

٨٨

عندما دخل إلى المنزل تناهى إليه صوت هيا، وهي تغني إحدى أغنياتها المفضلة في سعادة فدهش... لأن المفروض أن تشاركه حزنه وألمه بعد الإخفاق الذي أصيب به، وأن تؤلمها الصدمة كما آلمته، لا سيما وأنه رأى، بالفعل، دليلًا على ذلك.

ولم يكد نظر هيا يقع عليه حتى أشرق وجهها في سعادة فائقة زادت من دهشته؛ لأن معالم الأسف والحزن قد اختفت تمامًا من وجهها، وبدت وكأنها قد تلقت أنباء سعيدة، رسمت تلك الفرحة الواضحة على وجهها.

وقبل أن يتكلم هتفت إذ رأته:

- لقد وجدت الحل... وجدت الحل.

- الحل؟

تساءل هشام في بطء، إذ لم يكن يبدو له أن هناك أي حل سوى تنفيذ ما جاء في خطاب الملحق التعليمي.

وجذبته هيا من يده إلى غرفة الجلوس، ودفعته برفق إلى المقعد، ثم جلست تجاهه، وقالت له وعيناها تشعان بالفرح:

- لقد وجدت الحل.

وقبل أن يعبر لها هشام عن استغرابه ويأسه، اندفعت في الشرح، والإيضاح:

ـ لقد اتصلت بعد خروجك بالملحق التعليمي. . . في نيويورك.

ـ في نيويورك؟

ـ أجل. . . عرضت له رغبتي في أن ألتحق بالجامعة. . . في الجونيور كوليج. . . إن الدراسة فيها لا تحتاج إلى أكثر من سنتين أحصل بعدها على شهادة جامعية. . . فقال لي: إنه لا شيء يمنع من ذلك نظامًا. . . بالعكس. . . إن الجهات المختصة يهمها جدًا أن تستفيد زوجات المبتعثين من مرافقة أزواجهن خلال مدة الابتعاث بالالتحاق بأي نوع من الدراسات التي تلائم كل زوجة.

ولم يفهم ما كانت هيا ترمي إليه، فتساءل في مرارة:

ـ هل جئنا إلى هنا من أجل دراستي، أم دراستك؟

فضحكت هيا ضحكة سعيدة، وقالت له وعيناها تلمعان بذلك الفرح الطفولي القوي:

ـ دعني أكمل لك. . . قال لي الملحق التعليمي: إنه لا شيء يمنع من التحاقي بالجامعة. . . فقلت له: وفق خطة وضعتها في ذهني أن من الضروري أن يسمحوا لك بالبقاء كمحرم. . . وفقًا للنظام. . . فأيّد الملحق كلامي.

وأشرقت الحقيقة في ذهن هشام فجأة، واستطاع أن يفهم ـ أخيرًا ـ خطة زوجته؛ التي واصلت حديثها بحماسة، فشرحت تلك الخطة التي رأت فيها حلًا للمشكلة التي يواجهها زوجها.

ولكن هشام لم يعد يتابع كلماتها، بل اتجه تفكيره إلى الشعور بالإعجاب، أو الذهول، أمام هذه المرأة التي لا تيأس أبدًا، والتي استطاعت أن تقف معه في أحرج الأوقات والظروف، والتي لم يكن ـ هو نفسه ـ في مستوى ما هي عليه من الشجاعة، وصواب الرأي، وحسن التصرف.

وانتبه من خواطره على صوتها، وهي تختتم حديثها قائلة باللهجة الحماسية نفسها:

ـ . . . وليس عليك إذًا إلا أن تنهي الإجراءات النظامية، سواء بالنسبة لالتحاقي بالجامعة، أو بالنسبة للسماح لك بالبقاء هنا فترة دراستي. . . فما رأيك؟

وقال هشام، وهو يمد ذراعيه نحوها:

ـ رأيي؟ . . . رأيي أنني لا أتمنى سوى أن أعرف مم خلقت أيتها المرأة المدهشة.

فابتسمت، وهي تلقي رأسها على صدره:

ـ لقد قلتها لك من قبل. . . لست سوى امرأة بسيطة، تحاول أن تكون لائقة بباشمهندس عظيم مثلك.

ـ إنك. . . إنك أكثر مما أستحق يا هيا.

ـ أستغفر الله يا باشمهندس. . . سأضع الطعام في الحال، وبعدها نعقد جلسة غير عادية لاتخاذ الخطوات التنفيذية للخطة.

ـ وهو كذلك.

وشعر هشام أن جبال الأسى التي أثقلت روحه قد انزاحت، أو كادت، بسبب ما وهب الله زوجته من إمكانات عجيبة، تجعلها قادرة على مواجهة الصعوبات بصلابة وثبات، دون أن تترك لليأس إلى نفسها سبيلًا.

٨٩

لم يشعر هشام بفداحة الخطأ الذي ارتكبه بإهماله لدراسته، وما أدى إليه ذلك من إنهاء لبعثته؛ إلا عندما شرع في اتخاذ الإجراءات النظامية تجاه وضعه الجديد كمحرم مرافق لزوجته ليس غير.

كان عليه أن يسوي الأمر مع الملحق التعليمي، وأن يحصل على

إذن من رؤسائه في وزارة الدفاع بالرياض على البقاء لمدة سنة في الولايات المتحدة، وأن يسجل اسم زوجته كمبتعثة تتلقى دراسات جامعية في اللغة الإنجليزية لدى الملحق التعليمي، والجامعة.

وانتابه شعور بالمهانة وهو يتابع تلك الإجراءات، ويضطر للسفر إلى نيويورك مرة أو مرتين، إلى أن اتخذ وضعه صورته الجديدة، فهو لم يعد مبتعثًا: زوجته هي المبتعثة، وهو مجرد مرافق لها.

وأكثر من مرة خامرته الرغبة في العودة إلى المملكة، ووضع حد لهذا الإذلال الذي كان يشعر به في قرارة نفسه، ولكنه كان يقنع نفسه بأنه يدفع ثمن غلطته. وكان حريًا به أن يفكر في ذلك حين راح يضيع وقته، ويهمل زوجته، ويسدر في العبث ما بين الحدائق، والمطاعم، ودور السينما، وإن أية سلبيات يواجهها، هنا، هي أقل كثيرًا مما يمكن أن يواجهه إذا ما عاد إلى المملكة مخفقًا خاسرًا... كيف يستطيع أن يرفع عينيه في وجه أبيه وأهله؟... كيف يواجه رؤساءه الذين غمروه بمختلف مظاهر الثقة، والتقدير؟... كيف يواجه (ناصر) وأباه؟... كيف يواجه زملاءه؟... لا... لا... عليه أن يبقى، وأن يتجرع ما يتجرع من شعور الهوان على نطاق ضيق لا يتعداه، هو نفسه، بدل أن يواجه ما هو أدهى، وأمرّ.

واستطاع، بعد بضعة أيام من المعاناة، أن يطمئن إلى رأيه هذا، وعاهد نفسه على ألا يتكرر ذلك الخطأ مرة أخرى، وأن يتخذ منه درسًا يفيد منه، لكي يحول الخسارة إلى كسب، والهزيمة إلى انتصار.

وما كان لفتاة لمّاحة مثل هيا أن تغفل عن هذه الأفكار التي تراود ذهن زوجها، فقد كانت تكاد تلمسها لمس اليد، كلما جاء إلى البيت حاملًا معه الأوراق والوثائق؛ ليخبرها بما أنجز من إجراءات تجاه وضعهما الجديد.

وحاولت هيا جهدها أن تتحاشى أية كلمة، أو إشارة تسيء إلى شعور زوجها، أو تجسم له ما يعنيه الوضع الذي أخذا يعملان متعاونين من أجله.

كانت تركز حديثها على الأحلام نفسها؛ التي عمرت فؤاديهما معًا عندما جاءا إلى هذه البلاد، وأملها في أن يحقق هشام النجاح المأمول بعد أن بات عليه أن يعتمد على نفسه في سنته التالية، وأن يبذل أقصى جهده لتحقيق النجاح الذي يعيد إليه اعتباره، ويحقق ما عقده عليه رؤساؤه، وأهله، وقبلهم زوجته، من آمال.

وهكذا، استكمل هشام الإجراءات اللازمة لتسوية الوضع الذي نجم عن إخفاقه ذاك، وأصبح عليه أن يستجمع كل ما آتاه الله من قوة لكي يصحح الخطأ، ويعيد حياته إلى مسارها الطبيعي.

٩٠

اتجهت أنظار جميع الطلبة والطالبات إلى الفتاة التي دخلت المحاضرات، وقد ارتدت ثوبًا طويلًا، وغطت رأسها بلفة سوداء، فلم يظهر منها سوى كفيها، ووجهها.

وألقت هيا التحية بصوت خافت، ثم اتجهت إلى مقعد خال في طرف القاعة، اتخذت مكانها فيه، واتجهت بنظرها إلى المدرّس العجوز الذي كان يتهيأ للكلام.

ودار بين الطلبة همس مكتوم، انتقل بسرعة البرق من واحد إلى آخر، ومن طالبة إلى أخرى، وهم يتساءلون جميعًا عمن تكون هذه الفتاة التي ألقت ـ بمجرد دخولها ـ نوعًا من الهالة أحاط بها حتى تهيب أي من الموجودين أن يأتي بحركة أو كلمة تنال منها، كما هي عادة أولئك الشباب في مثل هذه الحالة.

لقد أقامت ملابس هيا المحتشمة، الأنيقة في الوقت نفسه،

وحركاتها الهادئة التي تدل على ثقة بالغة بالنفس، أقامت جدارًا من الاحترام بينها وبين زملائها وزميلاتها، فكانت نظراتهم إليها تحمل معنى التساؤل والفضول أكثر مما تحمل أي شيء آخر.

وبطبيعة الحال، فإن مظهر هيا الهادئ الذي فرض وجوده على كل من كان في القاعة، كان يخفي تحته بركانًا ثائرًا من التوتر، والقلق، والخوف... فهذه التجربة الجديدة التي اضطرت لخوضها من أجل زوجها كانت أبعد ما تكون عن طبيعتها، وكم كانت تتمنى لو أنها كانت ـ هذه الساعة ـ في بيتها، تجلس آمنة مطمئنة، بعيدًا عن هذا التوتر والانفعال اللذين يكادان يمزقان أعصابها.

وقفز ذهنها إليه...

إلى هشام الذي بدأ، مجددًا، معركته بعد أن عاهدها، وعاهد نفسه على أن يصحح خطأه، ويحقق الغاية التي ابتعث من أجلها.

لقد كان الموقف صعبًا عليهما، معًا، هذا الصباح، وهما يخرجان سويًا إلى الجامعة.

كان طوال الطريق صامتًا، يحدّق أمامه، وهو يقود سيارته وهيا إلى جانبه.

كان يشعر أنه المسؤول عن هذا الموقف الذي وضعت هيا نفسها فيه، وإنه يدفع اليوم ثمن إهماله، ولهوه، وعبثه في السنة الدراسية المنصرمة.

وشعرت هيا بما يعتمل في نفسه، فتنحنحت بطريقة مرحة مصطنعة، وقالت في هدوء:

ـ وبعد يا باشمهندس... ألا تزودني بنصائحك الغالية، وأنا أدخل هذه المرحلة المتقدمة من الدراسة... أنت أقدم مني، وأكثر خبرة على أية حال.

وضحك هشام ضحكة قصيرة على الرغم منه، وأجابها وقد سرته روحها المعنوية العالية:

ـ أنا أنصحك؟. . . إنك قادرة على أن تنصحي قبيلة بأكملها . . . إنني لا أخاف عليك أبدًا . . . الخوف هو على من يتعرض لك.

وضحك الاثنان. . . وقد سري عنهما، فهما يخوضان اليوم معركة مشتركة يجب أن يفوزا فيها كلاهما؛ لكي يستطيعا تحقيق أهدافهما المشتركة.

وأنزلها هشام عند حديقة الكلية، بعد أن تواعدا على اللقاء في الكافتيريا في ساعة معينة، ولوحت له بيدها، وقد ارتسمت ابتسامة شجاعة على وجهها، وظلت تتابعه بنظراتها إلى أن غاب عنها في طريقه إلى كليته.

وانتبهت هيا من خواطرها على الطلبة وهم ينهضون بعد المحاضرة، ومع أنها لم تستوعب منها شيئًا يذكر، إلا أنها استفادت من تجربة مواجهتها المباشرة مع نمط الحياة الأميركية الجامعية الذي لم تألف مثله من قبل، وتصورت أن بإمكانها إكمال الطريق إلى آخره، قياسًا على ما مر بها اليوم.

ونهضت هي الأخرى، واتجهت نحو باب الخروج، تريد أن تبحث عن الكافتيريا التي تواعدت مع هشام على اللقاء فيها، فإذا بها تلاحظ أن شابًا من طلبة الفصل كان يقف قربها متريثًا، ولم تكد تمر أمامه حتى لحق بها إلى الممر المؤدي إلى خارج المبنى، وعندما حاذاها قال لها بلطف:

ـ هاي.

وغاص قلبها بين جنبيها، وشعرت بخوف شديد، فبلعت ريقها بصعوبة، وأجابت على تحيته بكلمة مماثلة، ثم أسرعت خطاها أكثر من ذي قبل، فأسرع الشاب، هو الآخر، محاولًا أن يساير خطواتها المتعجلة، فاختلست النظر إليه، ولاحظت مع كثير من السرور أن الشاب لا يقل

ارتباكًا عنها، وأنه على ما يبدو يبحث عن كلام مناسب يفتتح به حديثه.

ودق قلب هيا بعنف، فهي لم تواجه مثل هذا الموقف أبدًا من قبل، وليس في ذهنها أدنى فكرة عن كيفية التصرف تجاهه، وراحت تبحث في ذهنها عن الجملة الإنجليزية المناسبة التي ستقولها للشاب كي يبتعد عن طريقها.

ويبدو أن صمت هيا، وتعجلها في السير واتجاهها بنظرها إلى الأمام، لا تحيد به إلى يمين أو يسار، قد زاد في ارتباك الشاب الذي كان أجنبيًا مثلها، وإن لم تستطع أن تحدس من أي بلد هو.

وأخيرًا تكلم الشاب فقال بإنجليزية ركيكة:

ـ هل... هل تقبلين دعوتي إلى... إلى الكافتيريا؟

ـ آسفة.

فتوقف الشاب عن السير فجأة، وتسمر في مكانه، وراح يتابعها بنظرة ذهول، وابتسمت هيا، وتنهدت بارتياح وكأن جبلًا قد انزاح عنها، وتذكرت ما كان هشام قد حدثها به عن تجربته الأولى في هذه البلاد، وقالت في نفسها:

ـ لا أدري... هل جاء هؤلاء الناس إلى هنا للدراسة، أم لمصاحبة بعضهم إلى الكافتيريات؟

وتنهدت في أسف، واستطردت تخاطب نفسها:

ـ ما كان أغناني عن هذا الموقف، يا هشام، لو أنك شديت حيلك، وانتبهت إلى دراستك.

وحين وصلت إلى الكافتيريا، بعد أن سألت أكثر من مرة عن مكانها، أدارت بصرها في القاعة باحثة عنه، ولكنها لم تجد أحدًا، فعادت تنظر باحثة عن منضدة خالية، وارتاحت إذ عثرت عليها في مكان قصي، فاتجهت إليها، وهي ترى أنظار الموجودين معلقة بها تتابعها في

سيرها، ولكنها لم تكترث، بل جلست إلى المنضدة الخالية بكل هدوء، ووضعت حقيبة يدها وكتبها على المقعد المقابل؛ كيلا يأتي أحد، ويقحم نفسه عليها بتلك الطريقة اللامبالية، وأسندت ذقنها إلى كفيها المتشابكين، وراحت تنظر إلى ما حولها في شيء من النفور... فحلقات الشباب والشابات كانت تملأ المكان ضحكًا، وصخبًا، وكان أكثر ما لفت انتباهها، وحملها على الابتسام على الرغم منها، أنها وجدت صعوبة في تمييز الشبان عن الشابات، فالشباب قد أطلقوا لشعورهم العنان حتى استطالت كشعور النساء، والشابات قد ارتدين ملابس كملابس الرجال.

وهزت رأسها في تعجب، وراحت تتابع تلك المناظر؛ التي بدت لها غريبة، ومستهجنة، وبعيدة عن المفاهيم التي آمنت بها طول حياتها.

وانتبهت من تأملاتها على هشام، وهو يقترب منها في تعجل، ويقول لها فور وصوله:

ـ آسف... يبدو أنني قد تأخرت قليلًا.

ـ لا يهم... المهم هو كيف كانت دراستك اليوم؟

ـ الحمد لله... كل شيء على ما يرام.

ـ الحمد لله.

نهض هشام متوجهًا إلى حيث يباع الطعام والشراب في الكافتيريا، وعاد حاملًا كوبين من الشاي، وجلس أمام هيا، وهو يسألها:

ـ كيف كان يومك؟

وابتسمت هيا، وقالت وهي تضع السكر في كوبها:

ـ مثل أول يوم لك في المعهد... هل تذكر؟

وابتسم هشام للعبارة، وازدادت ابتسامته للذكرى.

وأضافت هيا، وهي تبتسم:

ـ على فكرة... عرض علي شاب أن يصحبني إلى الكافتيريا.

وضحكت إذ رأت هشام يقطب، ويسألها باهتمام:

ـ وبم أجبته؟

ـ كنت لطيفة جدًا معه.

ـ لطيفة جدًا؟

ـ أجل. . . قلت له آسفة، ولم أشأ أن أقول شيئًا آخر.

ـ آه.

وارتسم الارتياح على وجهه، وعلقت هيا على ذلك قائلة:

ـ أرأيت؟. . . كنت تحاول منذ جئنا إلى هذه البلاد إقناعي بالتكيف مع هذا المجتمع الغريب. . . وها أنت تشعر بالغضب إذ تعلم أن شابًا قد خاطب زوجتك.

ـ هذا طبيعي. . . لو رأيته لكان لي معه شأن.

ـ الحمد لله. . . الحمد لله. . . هذه دلائل العافية. . . الآن أستطيع أن أقول: إنك قد عدت كما عهدتك دائمًا.

ورشف هشام كوبه بسرعة، ثم قال لهيا وهو ينهض:

ـ هيا بنا.

ونهضت هيا في الحال، فأمسك بذراعها، وسار بها إلى أحد الأبواب الجانبية، وهو يحث الخطى.

لقد رأى جين تدخل من باب آخر، وبصحبتها شاب، وإذ لم يكن واثقًا كيف ستتصرف الفتاة الأميركية لو رأته، فقد رأى أن الانسحاب بسرعة هو أفضل ما يفعله.

٩١

وهكذا راحت هيا تنظر بارتياح شديد إلى سير حياتها مع زوجها بعد أن عاد إليها ـ حسب تعبيرها ـ كما كان، فلقد كان يتفانى في

الدراسة بصورة أشفقت هيا معها عليه منها، ولكنه كان يقول: إن هذه هي الطريقة الوحيدة لإصلاح الخطأ الذي ارتكبه، وإن عليه أن يدفع ثمن الوقت الذي أضاعه قبلًا، وأن يحصل على الشهادة التي ابتعث من أجلها.

وكان هشام من جهته صادق العزيمة فيما قاله، إذ كان لا يزال يشعر بنوع من الخجل من أن يكون مُحرمًا لزوجته، وأنه تمكّن من البقاء في تلك البلاد من أجلها، وبسببها، بعد أن كانت قد جاءت، هي نفسها، من أجله، وبسببه.

كان يواجه الواقع بكل قسوته، على طريقته في محاسبة النفس دون هوادة ولا رفق، وكان يرى ـ بالتالي ـ أن الانصراف إلى الدراسة هو وحده السبيل إلى تصحيح الأمور، وإعادتها إلى نصابها.

وكان الزوجان قد اتفقا على عدم العودة إلى المملكة في الإجازات إلا بعد أن يحصل هشام على شهادته، فما كان بوسعه أن يواجه أباه وأهله بذلك الإخفاق، وشاركته هيا الرأي في ذلك.

وانتظمت حياتهما على ذلك الأساس، وعادت إليهما الألفة القديمة التي افتقداها في السنة الفائتة، وكان أهم ما وجهت هيا إليه عنايتها هو حرصها على بث الثقة والشجاعة في نفس زوجها، إذ لم يكن يخفي عليها ما يشعر به، فكان همها أن تشعره بأن شهادته هي الأصل، وهي الهدف، وأن دراستها ليست إلا لإنقاذ الموقف أولًا، وتمضية الوقت ثانيًا.

وما كان أشد فرحتها واغتباطها حين حقق هشام ظنها به، وجاءت تقديراته خلال السنة الدراسية ممتازة ومشرّفة، وبلغت هذه الفرحة أوجها عندما تكللت جهودهما ـ معًا ـ بالنجاح، وكانت النتائج خير جزاء لما بذلاه، كلاهما، من جهد خلال السنة الدراسية.

وبذلك استطاع هشام أن يسوّي وضعه من جديد، وأن يستعيد

صفته كمبتعث، وساعده الملحق التعليمي في ذلك مساعدة كبيرة؛ بعد أن تأكد له أن الإخفاق الذي أصيب به هشام إنما كان شيئًا عابرًا.

ومضت الأيام.

٩٢

وجاء يوم كانت الجامعة فيه ترتدي حلة قشيبة من الأنوار، ومعالم الزينة، وقد انتشر الطلبة، والطالبات، وأهلهم، وأصدقاؤهم في أرجاء إحدى الحدائق الواسعة.

إنه يوم التخرّج.

وكان هشام وهيا قد حضرا إلى المكان بدورهما، فاليوم تحصل هيا على شهادة التخرج في الجونيور كوليج؛ بعد أن أتمت دراستها بنجاح.

وكانت تفصل بين الزوجين مسافة بعيدة.

هشام في مقاعد المتفرجين.

وهيا مع المتخرجين.

وكان هشام يشعر بسعادة عميقة؛ لأنه يرى كل شيء على ما يرام، فزوجته ستتخرج اليوم، وهو سيتخرج ـ إذا شاء المولى ـ في العام المقبل... وقد اتخذت حياتهما مسارها الطبيعي منذ ذلك اليوم؛ الذي تفتق فيه ذهن هيا عن فكرتها التي بدأت تؤتي ثمارها اليوم.

ونظر هشام إلى هيا التي كانت تقف مع عدد كبير من المتخرجين والمتخرجات؛ استعدادًا للمسيرة الأكاديمية المعتادة.

ولوح لها بيده بحركة خفيفة، وهو يبتسم، فأومأت له برأسها، وكأنها تشكر له تحيته.

وإذ بدأ الاحتفال، وسار المتخرجون أمام الحاضرين إيذانًا بأنهم

قد أنهوا الدراسات التي اختارها كل منهم، فوجئ هشام بمرأى دموع غزيرة تنسال على وجه هيا، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة مغتصبة.

ودهش هشام... فهذا يوم فرح... يوم التخرج... كيف تبكي هيا في مثل هذا اليوم؛ الذي تجني فيه ثمار ما بذلت من جهد خلال السنتين الفائتتين؟... أتراها سعادة النجاح التي جاوزت حدها، فعبرت عنها هيا بتلك الدموع؟

والتقت عيناه بعينيها، وذهل إذ رأى شفتيها ترتجفان في تأثر يوحي بأنها توشك على أن تنفجر في بكاء مسموع.

وصفق هشام مع المصفقين؛ الذين استقبلوا مسيرة المتخرجين بحماسة، وتهليل.

وراحت هيا تتابع مراسم التخرج كما تقتضيها التقاليد الجامعية، وقد خلا وجهها من كل تعبير.

ولم تستلفت دموعها انتباه أحد، ذلك أن كثيرًا سواها من المتخرجات كانت الدموع تلتمع في عيونهن... أليس الفرح الغامر سببًا للبكاء كالحزن الغامر؟

وحين استقل الزوجان سيارتهما عائدين إلى البيت، رمت هيا بشهادة التخرج الملفوفة، وجلست إلى جانب هشام دون أن تنطق بحرف واحد.

وقال لها هشام بمودة عميقة:

ـ ألف مبروك حبيبتي.

ـ شكرًا لك.

وكانت هاتان الكلمتان هما كل ما نطقت به هيا طوال الطريق.

أما هشام فلم يتوقف عند ذلك كثيرًا؛ لأنه كان مقتنعًا بأن فرحة هيا العظيمة هي سبب دموعها، ووجومها، ألم تصبح ـ اليوم ـ حاملة لشهادة

عليا في آداب اللغة الإنجليزية؟... ألم تصبح الآن تجيد اللغة الإنجليزية أفضل من كثير من أهلها؟... إذًا فمن حقها أن تسمح للدموع بأن تعبر عن فرحتها في هذا اليوم الذي لا ينسى.

وإذ دخل الاثنان إلى البيت، تبين لهشام أن هيا لا تحمل الشهادة في يدها، فقال باستغراب:

ـ الله... فين الشهادة؟

وردت هيا بعدم اكتراث:

ـ مدري... يمكن نسيتها في السيارة.

ـ الله يهديكِ يا بنت الناس... حد ينسى شهادته كده؟... أنا من بكره راح أعمل لها برواز، ونعلقها في صدر الصالون.

ولم تجب هيا بشيء، بل تهالكت فوق أحد المقاعد، وهي تطلق زفرة تعسة.

ونظر إليها هشام بدهشة، ثم هز كتفيه، ومضى مسرعًا إلى السيارة ليحضر الشهادة.

وما إن عاد حتى تسمر في مكانه مذهولًا.

٩٣

كانت هيا تنشج في بكاء مكتوم، وهي تسند رأسها إلى ركبتيها، وقد تصاعدت شهقاتها، وكأنما قد عجزت عن السيطرة على نفسها.

وأسرع هشام إليها، وحاول أن يرفع رأسها المنحني، ولكنها تشبثت بوضعها كطفلة عنيدة.

ـ مالك يا حبيبتي؟... حد يبكي في يوم زي هذا؟

وهتفت في لوعة وهي مسترسلة في نشيجها:

ـ إنني امرأة فاشلة... فاشلة... فاشلة.

ـ فاشلة؟... من قال هذا؟... وهذه الشهادة التي حصلت عليها اليوم؟... أليست دليلًا على العكس؟

ورفعت رأسها إليه، فروَّعه مرآها، وقد ارتسمت على وجهها كل معالم التعاسة، والحزن، والتفجع.

ـ مالك يا حبيبتي؟... أنا ماني فاهم حاجة... حصل مني حاجة زعلتك؟... وإلا فرحة النجاح زادت عندك عن الحد الطبيعي؟

ـ بالنجاح؟... أيّ نجاح؟... أما قلت لك أنني فاشلة؟

وبدت على هشام الحيرة.

ـ أنا ماني فاهم حاجة... ممكن تقولي لي إيش الحكاية؟

ومسحت دموعها بظاهر كفيها، ومضت تتكلم في تؤدة، وشهقات البكاء تقطع كلامها بين الفينة والأخرى:

ـ لقد جئنا إلى هذا المكان من أجلك أنت... لا من أجلي... من أجل أن تحصل على الشهادة المنشودة... وما خطرت لي فكرة الدراسة، بادئ الأمر، إلا على سبيل التسلية، وتمضية الوقت... ثم حصل ما حصل بيننا من خلافات... لا يهمني أن أحدد من كان المسؤول عنها... ولكنني كنت ألاحظ التحول الذي طرأ عليك... وانصرافك عن الدراسة بتلك الصورة التي أدت إلى إلغاء بعثتك... هنا يكمن فشلي... هنا... لأنني لم أكن غافلة عن ذلك التحول... وبذلت أقصى مجهود استطعته لكي أبدو لك، وكأنني لم ألاحظ شيئًا... كنت أخاف على حياتنا الزوجية من أن يعصف بها الخلاف بعد أن أصبح هذا الخلاف يدب لأتفه الأسباب... كنت أريد أن تسير في طريقك ذاك إلى منتهاه اعتقادًا مني أنك لا تلبث أن تعرف أنه خاطئ، فتعود إلى الطريق الصحيح... لم أحسب حساب إلغاء البعثة واضطراري، من ثم، إلى الالتحاق بالدراسة؛ لكي تتمكن من مواصلة

دراستك... اليوم بدا لي مقدار فشلي... أنت في صفوف المتفرجين وأنا في صفوف المتخرجين... وضع خاطئ كان يجب أن يحدث عكسه... ولو أنني حاولت أن أوجه انتباهك إلى الطريق الذي كنت تسير فيه، فلربما استطعت أن أفعل شيئًا... أن أساعدك على تقويم الخطأ عند وقوعه... أما أن أسكت وأدعك ترتكب ذلك الخطأ وأنا أتفرج فهذه نتيجته... ثق يا هشام أنه لا توجد في الدنيا، هذا اليوم، امرأة أتعس مني... الشهادة؟... ما لي ولها؟... أنا جئت من أجل شهادتك أنت... هل فهمت الآن؟

وعادت هيا تلقي رأسها على ركبتيها، وهي تبكي في حرقة، وهشام ينظر لها بذهول شديد.

لقد صورت المسألة تصويرًا دقيقًا، ورمت مسؤولية فشله على عاتقها... هذه هي طريقتها، دائمًا، في النظر إلى الأمور نظرة مجردة.

وأحس هشام بأذنيه تكادان تلتهبان بدماء الخجل التي تصاعدت إلى رأسه، فلقد بدا له خطؤه، وسوء تصرفه، بوضوح ما بعده وضوح... وتعلم ـ مرة أخرى ـ من هذه الفتاة شيئًا جديدًا... إنها تواجه الحقائق بكل شجاعة... وبكل ما في هذه الحقائق من أسباب جعلتها تنحي باللائمة على نفسها في خطأ ارتكبه هو.

وراح يمسح بكفه على شعرها، وهو يتكلم:

ـ هيا... يا شريكة العمر... إنني أفهم، وأقدر، كل كلمة قلتيها... إن روحك العظيمة هي التي جعلتك تتحملين خطأ لا ذنب لك فيه... أنا الذي أخطأ... وأنت التي دفعت الثمن... ولكننا تعاهدنا على أن نتناسى هذا... وأن ننصرف بقوة وعزيمة إلى هدفنا... وأحسب أنني قد قدمت لك الدليل على أنني استفدت من ذلك الدرس... وإن هي إلا سنة حتى أتخرّج، بإذن الله، فأكون قد صححت الخطأ كاملًا.

ورفعت إليه عينيها اللتين كانت الدموع تلتمع فيهما، وأشرق وجهها بابتسامة سعيدة، ثم ألقت بنفسها على صدره في استكانة وادعة، وهي تهمس:

ـ بإذن الله... بإذن الله يا حبيبي.

۞ ۞ ۞

الخاتمة

اليوم الموعود.

الجامعة ترتدي حلتها المألوفة من الأنوار والزينات في مثل هذه المناسبات التي كانت تعيشها ذلك اليوم.

إنه يوم التخرج.

الطلبة والطالبات، وأهلهم وأصدقاؤهم قد انتشروا في أرجاء الحديقة الواسعة.

وهيا بين صفوف المتفرجين تتوثب الفرحة في أضلعها، وتطل سعادة غامرة من عينيها.

فاليوم يحصل هشام على الماجستير، بعد أن أتم دراساته بنجاح.

إنه يقف بين المتخرجين وقد ارتدى اللباس الجامعي، وهو يبحث بعينيه عن زوجته بين صفوف الحضور.

وتبدأ المسيرة الأكاديمية، ويسير المتخرجون في صف طويل، وقد أعلن الحاضرون فرحتهم بالتصفيق.

وتركز هيا عينيها على هشام، وقد سار في الصف.

ويقترب هشام من مكانها، حيث جلست في الصف الأول، فيرى دموعًا تنسال على خديها.

ويهمس لها، وهو يبتسم:

ـ الدموع؟... تاني؟.

وتهمس دون أن تحاول أن تتمالك نفسها:

ـ إنها... إنها دموع الفرح يا هشام... دموع الفرح.
وتخفي وجهها بين كفيها في سعادة.
وتواصل جموع الطلاب مسيرة التخرج... وهشام بينهم.

❁ ❁ ❁